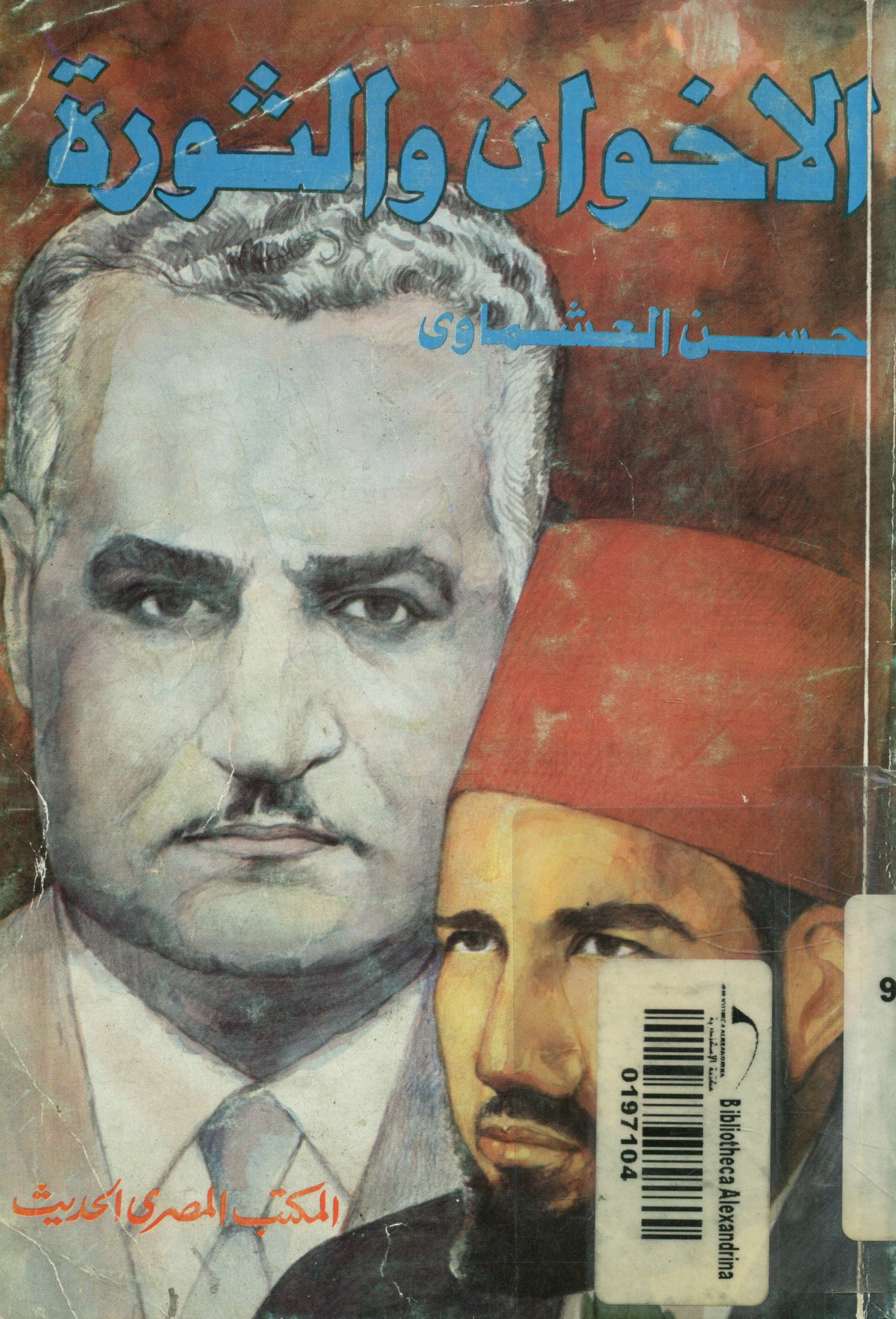

الاخوان والثورة
حسن العشماوى
المكتب المصرى الحديث

الإخوان والثورة

الناشر : المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر
٢ شارع شريف تليفون ٥٣١٢٧ القاهرة
٧ شارع نوبار تليفون ٢٦٦٠٢ الإسكندرية

الإخوان والثورة

حسن عشماوي

الجزء الأول

المكتب المصري الحديث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

"وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى، قَالَ: يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ، فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْهَا، خَائِفًا يَتَرَقَّبُ، قَالَ: رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ".

الإهـداء

إلى زوجتي التي شاركتني مشاعري طوال الطريق .. أهدي هذه الكلمات

"حسـن"

كل ما في هذه الكلمات هو الواقع .. لم أغير فيه غير بعض أسماء الأشخاص ولم أحذف منه غير بعض أسماء الأماكن .

إن بدراً والصحاب ، كانوا علامات الطريق ، ومنائر الهداية خلال ثلاثة أعوام همت فيها بليل الهرب ، ألتمس النجاة إلى شاطئ الحرية الواعية .

فإلى هؤلاء أبعث اعترافي بالجميل .. وإلى تلك الأماكن أبث أشواقي

"حسـن"

هنا ستقيم

غدا الركب الصغير – منذ الشروق – بحث السير متعقباً قرص الشمس نحو الصحراء . . . كنا خمسة أشخاص ، نسير على أقدامنا وقد أنقضت الأحمال ظهورنا فرحات وحسين وعليان وحامد . . ثم أنا . وكنا نسير صفا واحدا بهذا الترتيب كان فرحات يتقدمنا جميعا لأنه دليل الركب فهو أعرفنا بمسالك الصحراء ودروبها عرف الكثير عنها حين اشتغل بتهريب السلاح ونقله فى الصحراء من بلد إلى آخر بل وقبل ذلك بكثير منذ كان غلاما صغير السن يذهب إليها حاملا الطعام إلى أخيه الأكبر الهارب من السجن ، الآوى إلى الصحراء تحميه من عيون الشرطة ثم زاد فرحات معرفة بالصحراء ومخابئها حين عمل لصا يسرق الماشية ليلا ثم يخفيها بعيداً عن الناس وليس أبعد عن الناس من تلك الصحراء التى تراها العين قريبة واضحة ، فإذا قصدها قاصد أعياه الوصول إليها ثم ضل فى تيهها المتشابه .

وكان سائر زملائنا – حسين وعليان وحامد – أخوة ثلاثة وكانوا أمثال فرحات وزملاءه فى العمل ، اتخذ الجميع السرقة وسيلة كسب لهم ، وإن كانوا – لحداثة سنهم – أقل منه خبرة بالصحراء وأقل ترددا عليها . . ولذلك ارتضوا أن يكون فرحات لهم قائدا ودليلا .

وكان أفراد الركب الصغير يحملون قربتين من الماء ، وسلة ملئت خبزا يابسا وقليلا من طعام ، وبطانيتين خشنتين من صوف الأغنام وبعض الملابس والأدوات وقطعا من أخشاب يابسة . . وكان كل منهم يحمل بندقيته وبعض الذخيرة وسكينا . وكنت أنا بجسمي الهزيل الذى أرهقه السهر أياما فراح يضطرب فى الثوب الفضفاض الذى أرتديه – كنت أنا بطأ الركب سيرا ، وأشد أفراده شعوراً بثقل ما أحمل . . مع أنى لم أكن أحمل غير ثيابى وسلاحى . . وقلبى . . . ! ! ! !

وقطع الركب فى سيره ساعة وغابت عن ناظرنا مشاهد الوادى الأخضر والبيوت القائمة المبنية بالطين . . ثم بدأنا الصعود إلى جبل أجرد ، فى درب ضيقة يزل حصاها تحت أقدامنا . . وعلى يسارنا واد سحيق يزداد كلما ارتقينا عمقا ، انتصبت صخوره الصماء القاسية تنذر من يسقط إليها بشر موتة .

وتصببنا عرقا فى الشتاء وانفرجت أفواهنا لتفسح المجال للأنفاس اللاهثة ووهنت ساقاى عن حملى ، وغشينى الدوار :

استرحنا فى صعودنا مرتين نلتقط أنفاسنا ونهيئ لسوقنا المكدودة بعض الراحة عسى أن تواصل الصعود .

وراودتنى فى كل مرة أستريح فيها فكرة أن أعود من حيث أتيت . . .

ولكن ، إلى أين أعود . . . ؟ لم يصبح لى فى الأمر خيار . . ! هل أعود إلى سجن أعلم ما فيه من أهوال وصنوف عذاب . . ثم إلى محاكمة صورية أعلم ما تنطوى عليه من ظلم . . ثم إلى عدو كان صديقا يحمل معنا ذات الفكرة فغدر ولم أعد منذ زمن آمن غدره . . . ؟ !

لا . . . لن أعود . . ولأواصل السير مهما كانت النتائج . . ولومت هناك . . هناك بعيداً .

وحين بلغنا قمة الجبل ، وجلسنا نلتمس بعض الراحة ألقيت نظرة إلى الوادى خلفى حسبتها الأخيرة فى حياتى ، فإذا به قد انكشف للنظر وإذا بالنيل الحبيب يلمع فى ضوء الشمس الدافئة وهو ينساب وقورا بين الجبلين ، ومن ورائهما صحراء لم أكن أعلم بعد عنها شيئا وحول النيل نسج الإنسان — بعون الطبيعة — أبسطة خضراء وصفراء وسوداء وأقام منازل هى أقرب إلى الأكواخ . . وراح يقضى عمره على الأرض التى عشقها قريبا من النيل الذى أحبه ... النيل الذى عبده قديما قبل أن يهتدى إلى من أجراه وسخره له . النيل الذى يجرى هواه فى دم كل مصرى مهما لقى على شاطئه من عنت . . يخيل إلى أن عروس النيل التى

يقال أنهم كانوا يهدونها إليه كل عام . كانت تحبه من أعماقها مع أنها ستلقى فيه حتفها .

هل لى إلى هذا الوادى الأخضر من رجعة ؟ هل سأرى من خلفت فيه ثانية . . ؟ أم ستبتلعنى تلك الصحراء الفاغرة فاها أمامى ولن ألقى بعد اليوم أحدا ؟

إن ذلك الهمس الذى دار حولى صبيحة مجيئى إلى هذه البلدة لم يزل يرن فى أذنى منه تلك العبارة الوحيدة التى التقطتها : إن خفتم على أنفسكم منه فاقتلوه والأرض واسعة تبتلع كل أثر . . . !

وأيقظنى فرحات من تأملاتى حين دعانا إلى السير . . فعاودنا الرحلة على أرض منبسطة تعترضها — من جنوب إلى شمال — درب واسعة مهيأة للسير ، عليها آثار دواب مرت حديثاً . إنه الدرب الواسع كما يسميه القوم هنا ، يسلكها من يذهبون إلى الصحراء علانية يلتمسون رزقا حلالا مما يجلبون من ملح وشيح وروث خفاش . . ! وعبرنا الدرب الواسع وسرنا فى حذر فوق الصخور والحصى بعيدا عن الدروب الصغيرة المنتشرة متجنبين السير على الرمال حتى لانترك وراءنا لأقدامنا آثارا تدل علينا وعلى اتجاهنا ثم بـــدأنا فى الهبوط من القمة إلى الصحراء سالكين دروبا ضيقة تارة ومجارى لسيول قديمة جافة تارة أخرى . . حتى بلغنا — قبيل الظهر — مكانا ألقينا فيه ما نحمل . . وجلسنا .

« هنا ستقيم . . ! قالها لى فرحات ببساطة غير مكترثة ، وهو يطوى لفافة تبغة بين أصابعه » .

وتلفت حولى أنظر أين أنا . . . وارتقيت صخرة قريبة لأتعرف على ذلك المكان الذى قضى على أن أقيم فيه وأن أتخذه بيتى . . وشغل عنى رفاقى الأربعة بلفائف تبغهم وبحديثهم فيما لايعنينى من أمور .

فى مجرى لسيل قديم جداً ، جف ماؤه منذ سنين — وقد يعود يوما كان ينساب من القمة غربا إلى الوادى السحيق شرقا ، حيث يلتقى بغيره فى « مجمع السيول »

وبين قمتين قاتمتين كثيبتين تقومان شمالا وجنوبا سقط السيل قديما فأحدث فى مجراه فجوة – يقوم حولها من صخر الجبل ما يشبه الحائطين ، تستوى بينهما مساحة رملية مستطيلة يبلغ طولها أربعة أمتار وعرضها مترين ونصف المتر . ثم ينساب مجرى السيل جافا قاحلا ليتسع حيث ينتشر فيه صخور سوداء صماء أحرقتها الشمس الحامية فهى أشبه ما تكون بجنود سود قاموا حول المكان حراسا . . وبعد ثلاثين مترا – شرقا – يسقط المجرى رأسا وفجأة إلى قاع مجمع السيول على عمق يزيد عن المائتى متر . . . !

قمم جرداء كستها الشمس حمرة وسفوح كوالح تعلوها صفرة ، وصخور صماء سوداء وقفار شاسعة على مرمى البصر . . وغرابيب سود تحلق ، أمنت القمم الشاهقة فاتخذت منها أوكاراً بعيدا عن أعين الناس .

هذا كل ما رأت عينى فى المكان الذى كتب على أن أعيش فيه فترة من الزمن لاأعلمها وعند العصر ودعنى رفاقى جميعا وعادوا إلى الوادى تركونى وحيدا . . بغير أنيس من إنسان أو كتاب أو قلم . . واجتاحنى شعور عارم بالوحشة حتى كان الليل فتكاثر حولى عواء الذئاب فأنست به ، ورن فى سمعى صوت الشيخ الطيب : يا بنى إن الذئب هجر الوادى وسكن الصحراء لأن أصحاب الوادى له أعداء وأنت خاصمت رجال الدولة فكلهم لك عدو وهم اليوم أصحاب الوادى .. فاتبع جرة الذئب إلى الصحراء فهى مأمنك الوحيد . ..

كان ذلك مساء الثلاثاء ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ والحكومة تعد المشانق لزملائى والكل ينتظر دوره .

وفى هذا المكان أقمت طويلا .. أطول مما قدرت وقدر الناس .
ولكن ، كيف جئت إلى هنا .... وما القصة من أولها ؟

من قناة السويس .. إلى القاهرة

إنها ليست قصة حياتى ، لأن حياتى أهون عندى من أن أكتب لها قصة .

وليست قصة الأخوان ... فقصتهم أكثر تشعباً من أن أستقل بكتابتها .

وليست قصة ثورة مصر فى ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ فلقصتها مجال آخر .

ولكنها قصة فرد آمن بحريته ففر من وجه الدولة وتعاون معه الشعب الحر فنجا ليواصل الطريق .

ولهذا فهى تمس كل تلك الأمور فى ناحية من نواحيها ولكن معالمها تبدأ منذ اليوم الذى عرفت فيه عبد الناصر ، لا منذ عرفنى فقد عرفنى لصلتى بالاخوان حين كان يعتبر نفسه واحدا منهم يدرب شبابهم على إطلاق النار وأعمال النسف فى مركز « الصف » ويشترك مع جهازهم السرى القديم فى تخطيط بعض الحوادث ولكنى لم أكن أعرفه فى ذلك الوقت .

عرفت عبد الناصر فى أكتوبر سنة ١٩٥١ بعد أن ألغت وزارة الرئيس مصطفى النحاس المعاهدة المصرية البريطانية المعقودة عام ١٩٣٦ وكان الاخوان يشاركون فى معارك قناة السويس دون إعلان وأراد جماعة الضباط الأحرار — الذين يمثلهم عبد الناصر — أن يتعاونوا مع الأخوان فى المعركة بعيدا عن الجهاز السرى القديم الذى كان عبد الناصر أحد أعضائه ، فاتصل بالمرحوم عبد القادر عوده وكيل الاخوان . والذى أصبح فيما بعد أحد ضحاياه — فأحاله على الصاغ صلاح شادى أحد زملائنا الذى ترك لى مهمة الاتصال بعبد الناصر فى هذا الشأن . . واستمر الاتصال بيننا إلى ما تلا المعركة من شئون . وكنت عندئذ استقلت من عملى كوكيل لانائب العام ، واشتغلت محاميا .

دخل على مكتبى شاب طالت قامته حتى انحنت قليلا إلى الأمام ، ونحف جسمه إلى حد الهزال أسمر اللون ، طويل الأنف إلى حد يلفت النظر . . يبدو للرائى أول

نظرة ساهيا ولكن فى عينيه بريق ذكاء يلحظه المراقب عن قرب . وكان يرتدى أول مرة لباسا عسكريا ثم أقلع عن ارتدائه وصار يلقانى بقميص رمادى وبنطلون أقرب إلى السواد . وكان يبدوا لمحدثه بسيطا واضحا قليل الكلام ، أقرب إلى الحزن منه إلى المرح ولم أستغرب ذلك حين علمت منه بعض ظروفه الخاصة .

ذكر الشاب لى اسم من أرسله وعرفنى بنفسه . كان يحمل وقتذاك اسم « البكباشى أركان الحرب جمال عبد الناصر » ثم اتخذ لنفسه معى فيما بعد اسما مستعارا هو « زغلول عبد القادر » يذكره إذا اتصل بى تليفونيا أو أراد أن يلقانى فى مكان ما ، ولا غرابة فى اتخاذه اسما مستعارا ، فقد اعتاد ذلك فى كل هيئة انتمى إليها أو اتصل بها .

منذ ذلك اليوم بدأت أصبح أحد سبل الاتصال بين الضباط الأحرار والاخوان فى أمور معارك قناة السويس والسبيل الوحيد فى غيرها من الأمور . وكان المفهوم من البداية أنهم جماعة ذات صلة وثيقة قديمة بالاخوان تريد أن تتعاون فى القتال فلا محل لأن نرفض .

وعرفت عن عبد الناصر منه ومن زملائى وزملائه الشيء الكثير . وتوثقت بيننا العلاقات بسرعة وشكا لى كثيراً من جهالة زملائه وضيق أفقهم فهو قد جمعهم — على حد قوله — من مجالس تحضير الأرواح والجان ، ولم يستطع بعد أن يرتقى بمداركهم عن مستواهم القديم . ولم نرفض طلبه العون فى « تعليم زملائه » .

وقد بدأت جماعة الضباط الأحرار أصلا كمجموعة من مجموعات الاخوان المسلمين فى الجيش . ولكنها انفصلت عام ١٩٤٨ حين استطاع جمال عبد الناصر — الذى كان قد تردد قبل ذلك على أكثر من هيئة سياسية احتفظ بزملائه له فيها — أن يقنع رئيسه المرحوم الضابط المتقاعد محمود لبيب بانفصالها واستقلالها بكثير من أمورها الخاصة على أن يكون اللقاء فى الخطوط الرئيسية والأهداف وكانت حجة عبد الناصر الرئيسية فى الانفصال بجماعة الضباط الأحرار أن الشروط الخلقية

التى يتطلبها الانضمام إلى الاخوان كانت تعوق أغلب ضباط الجيش مما أدى إلى تضييق مجال الانضمام إليها فى صفوف الجيش ولما انفصلت جمعية الضباط الأحرار توسع عبد الناصر فى ضم الضباط إليها بغير شروط غير مجرد السخط على نظام الحكم القائم وهكذا ضمت تلك الجمعية السرية أشخاصا ينتمون إلى مختلف الهيئات السياسية فى مصر وظل كل منهم يظن أن عبد الناصر يوافقه فى مبادئه . . ثم ضمت مجموعة من الغارقين فى العبث ، فاحتاجوا — كما قال عبد الناصر يوما — إلى تعليمهم .

وبرغم هذا الخليط العجيب المتنافر من الأعضاء. فقد ظلت الأسرار الحقيقية للضباط الأحرار وقفا على عبد الناصر وقلة من الضباط تختلف فى مدى علمها بالأسرار أما البقية الباقية من الأعضاء فإنها كانت تنتظر مجهولا لا تعلمه . .

وشغلتنا معارك قناة السويس وما تحتاجه من سلاح وأعمال عن تعليم الضباط الأحرار .

كانت صناديق الذخيرة تأتى من رفح على حدود فلسطين — فنتلقاها — عبد الناصر وأنا — وننقلها إلى بيوتنا لترسل فى اليوم التالى مباشرة إلى خطوط القتال أو مراكز التدريب . وكان مفهوما أن هذه الذخيرة مسروقة من الجيش المصرى ولكنى لم أجد حرجا فى تسلمها ونقلها فالمفروض أن يساهم الجيش فى القتال فإن لم يفعل فلا أقل من أن يشارك ببعض ذخيرته يسرقها ويحضرها لنا بعض أفراده ، ولكن هؤلاء الأفراد لم يستطيعوا أن يقدموا لنا غير الذخيرة . . فلا سلاح ولاقنابل ولا مواد ناسفة إلا مقابل الثمن .

عرضوا علينا أن يشتروا لنا سلاحا وكان الثمن الذى عرضوه مناسبا ، فقبلنا وكان آخر ما اشتروه لنا بضع مدافع رشاشة ثمنها مائة وعشرة جنيهات أضيفت إليها خمسة جنيهات للتاجر الذى نقلها ... وخمسة أخرى كأتعاب للصاغ صلاح سالم وبقى عند عبد الناصر إلى اليوم ثلاثمائة وثمانون جنيها من الخمسمائة جنيه التى سلمتها له كدفعة أخيرة . . ولست أطالبه اليوم بسدادها وإن كان قد اعتبرها يومئذ دينا فى ذمته شخصيا ...

حدث أثناء محاكمة الوزير الوفدى فؤاد سراج الدين عام ١٩٥٤ أن ذكر المتهم أن حكومة الوفد كانت تعاون فى معركة قناة السويس ، حتى أنه أذن شخصيا — حين كان وزيرا للداخلية — بنقل لغم بحرى من القاهرة إلى القنطرة ليفجره الفدائيون هناك بمعاونة بعض الضباط ولكن قائد الجناح عبد اللطيف بغدادى — رئيس المحكمة العسكرية — كذبه فى قوله ، وقال أن الضباط الأحرار هم الذين نقلوه بالطائرة . . وأنه لم ينقل بالقطار ، والصحيح أن ما قاله رئيس المحكمة لم يكن الواقع كاملا ... فإن الطائرة لم تنقل إلا الأسلاك والمفجر . أما اللغم ذاته فقد نقل بالقطار كما قال فؤاد سراج الدين ....

كان هناك ضابط فى قسم الأبحاث بالجيش المصرى ينتمى إلى جماعة الضباط الأحرار هو اليوزباشى صلاح هدايت واستطاع هذا الضابط أن يصمم لغما بحريا بسيطا يمكن تحضيره داخل ثكنات الجيش بمعاونة بعض الضباط الألمان الذين كانوا يعملون فى قسم الأبحاث ولما تم تركيب اللغم نقلت أسلاكه ومفجره إلى رفح بالطائرة وعادت من رفح إلى القنطرة على قناة السويس . أما اللغم ذاته — وكان كبير الحجم ملفتا للنظر — فقد أوصلناه إلى محطة القاهرة ومنها سافر بالقطار إلى القنطرة بإذن خاص من فؤاد سراج الدين وزير الداخلية لحكومة الوفد فى ذلك الوقت .

وكانت الخطة الموضوعة لتفجير هذا اللغم أن يسافر بعض الاخوان إلى القنطرة ومعهم واحد من زملاء عبد الناصر فيضعون اللغم فى القناة ليلا ، ثم يفجرونه من الشاطىء الشرقى فى إحدى ناقلات الزيت أو بوارج البحرية البريطانية أثناء عبورها القناة وستعطل الملاحة حيناً يزعج القوات البريطانية المحتلة للمنطقة ويحفز الدول المستفيدة من الملاحة بالقناة أن تدفع هيئة الأمم إلى التدخل فى النزاع المصرى البريطانى .

وقد بقيت المجموعة المكلفة بالعملية هناك ليلتين ، لم يسعدها الحظ خلالها بالباخرة المطلوب نسفها .

وأراد مندوب عبد الناصر حين أعياه الانتظار أن يفجر سفينة ركاب هولندية تعبر القناة فرفض رئيس المجموعة ... وقام اضطراب كاد أن يودى بالجميع لولا أن هدد رئيس المجموعة بإطلاق النار على مندوب عبد الناصر إذا تقدم خطوة واحدة نحو المفجر الكهربائى وعادت المجموعة ولم تتم شيئا وأجل التنفيذ إلى يوم آخر ، حالت دونه أحداث وقعت فى القاهرة .

ومن العجيب أن عبد الناصر عتب على المجموعة أن دفعتها الإنسانية إلى رفض تفجير باخرة ركاب تسير آمنة بمن تحمل من نساء وأطفال ومدنيين .

وقد أعاد عبد الناصر إلى ذهنى تلك العملية القديمة ، حين نسف – أثناء اعتداء القوات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية على مصر عام ١٩٥٦ – بعض مراكب فى القناة واستطاع أن يتهم القوات المغيرة بضربها .

فى ديسمبر سنة ١٩٥١ طلب منى عبد الناصر أن نقدم له شابا من الاخوان فدائيا ميت القلب كما نقول فى مصر ، ونعنى شجاعا لايخاف ثابتا لايضطرب وكان يريده ليقوم بعملية خطيرة فى بور سعيد فقدمنا له المرحوم محمود عبد اللطيف الذى كان قد أبدى شجاعة وثباتا فائقين فى حرب فلسطين عام ١٩٤٩ والذى أعدمه عبد الناصر بعد ذلك بثلاثة أعوام بتهمة الشروع فى قتله بالاسكندرية .

سافر محمود عبد اللطيف إلى بورسعيد ونحن لا نعلم بعد ما هى العملية الخطيرة التى سيقوم بها هناك وحين لحقت به مع بعض زملائى تبين أن العملية هى تسميم الجنود البريطانيين فى معسكر بورسعيد وكان ذلك سيتم بأن يلتحق محمود عبد اللطيف كأحد العمال بناء على توصية شخص موثوق فيه ممن يشرفون على المعسكر ثم يضع كمية من السم فى اللحوم المخزونة بالثلاجات وليكن ضحاياها من يكون ممن سيأكل هذا اللحم .

ورفضنا العملية لأن القتل بالسم أمر غير إنسانى ولو كان ضد الأعداء .. وعدنا بالمرحوم محمود عبد اللطيف إلى القاهرة على أن نعيد بحث الأمر بعد الرجوع للأستاذ الهضيبى الذى رفض بشدة هذا الأسلوب فى المعارك وبقى السم عند مندوب عبد الناصر فى بورسعيد واتجهنا نحن إلى القتال الصريح فى معارك القناة .

مهما اختلف الناس أخيراً فى سلامة إلغاء المعاهدة البريطانية كتصرف سياسى فلا شك أن الظروف كانت تهيىء لمعارك قناة السويس أن تستمر وأن تؤثر فى موقف جيش الاحتلال وأن تؤتى ثماراً طيبة وسريعة . فقد كان الشعب كله متحمساً لها ، وكانت حكومة الوفد القائمة تؤيدها مادياً ومعنوياً وكان المفروض أن تستغل لتطوراتها دولياً . ولا شك أن معركة كهذه يتعاون فيها الشعب والحكومة جديرة بأن تنجح وإن وقف الجيش رسمياً بمنـأى عنها . ولكن وزارة الوفد أقيلت أثر حادث حريق القاهرة ذلك الحادث الذى نقل المعركة من قناة السويس إلى العاصمة ومن معركة خارجية يتفق فيها الجميع إلى معركة داخلية تختلف فيها الاتجاهـات والنزعات .

لقد حاول كثيرون تحديد المسئولية عن حريق القاهرة فاخطأهم التوفيق لأنهم كانوا يضربون فى الظلام فيخطئون الاتهام لأنهم لم يعيشوا مع ذلك الجنين الذى كان يتكون والذى أحرق القاهرة ليهيىء لنفسه الظروف كى يولد . .

إن أكبر دليل اتخذ فى اتهام البعض باحراق القاهرة أنهم كانوا يقولون فى صراحة أنه لا فائدة من معركة خارجية ضد الاحتلال ما دام الوضع الداخلى للبلاد فاسداً يحتاج إلى معركة حاسمة تصلحه .

ولكن مجرد هذا القول لايكفى فى نظرى دليلاعلى احراق القاهرة فإنى طالماسمعته من عبد الناصر شخصياً ومع ذلك لم يخطر ببالى يوماً أن أتهمه .

أما اتهام الشفارة البريطانية تارة والملك السابق فاروق تارة أخرى . فإنه لا يعدو — فى نظرى — أن يكون نوعاً من الدعاية . . . ! !

من أحرق القاهرة ..؟

كان لدى عمل بإحدى محاكم الصعيد يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٥٣م فحاولت أن أنتهى يوم ٢٦ يناير مبكراً من إرسال ما فى منزلى من ذخيرة إلى مركز التدريب وسافرت بالقطار الذى يغادر القاهرة ظهراً وكانت المظاهرات تملأ الشوارع وفوجئت صباح يوم ٢٧ يناير بالجرائد تنقل أنباء حريق القاهرة . وإعلان الأحكام العرفية ومنع التجول .. وكنت قد نمت بالأمس دون أن أسمع عن ذلك الذى أذيع شيئاً. فعدت لفورى إلى القاهرة لأتبين الوضع الجديد الذى سينجم عن الأحداث المفاجئـــة .

وما أن وصلت منزلى حتى طالعتنى فى الجاراج صناديق كثيرة بها كميات من الذخائر والقنابل والمواد الناسفة . وهالنى ما رأيت فى بيتى فالأحكام العرفية مفروضة والحكومة تبحث عمن أحرق القاهرة . ولكنى قدرت أن أجد تفسيراً لهذه الأشياء عند زملائى فى الصباح حين يكون التجول مباحاً . ولما قابلتهم رووا لى ما حدث . فهم الذين وضعوا تلك المواد الخطيرة فى بيتى .

فى يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ومعارك قناة السويس تسير سيرها الطبيعى والمظاهرات تجوب شوارع القاهرة تطالب بمزيد من قتال ضد الإنجليز والملك فاروق يدعو إلى مائدته جمعاً من ضباط الجيش،وضع مجهولون النار فى بعض أماكن بالقاهرة فأثاروا ثائرة الجماهير التى اندفعت تخرب وتسرق وتقتل وقبض على كثيرين وأعلنت الأحكام العرفية ثم أقيلت وزارة الرئيس مصطفى النحاس ، وتوقفت تقريباً عمليات القتال بقناة السويس ومنع التجول فى القاهرة ليلا . . ونزلت قوات من الجيش إلى الشوارع . . ومع ذلك ظل من وضع النار فى القاهرة مجهـــولا .

وبمجرد أن انتشرت النار المشتعلة فى القاهرة وبدأ النهب يدور فى المتاجـــر والطرقات اتصل عبد الناصر بمكتبى تليفونياً فقيل له أنى على سفر . فذهب لفوره

إلى الصاغ صلاح شادى يطلب منه أن يتسلم عنى بعض الأسلحة والذخائر والقنابل الموجودة فى بيته وبيوت زملائه والمسروقة من الجيش لأنه يخشى أن تفتش بيوتهم فتضبط فيها تلك الأشياء وهى كفيلة بأن توقع بهم أشد العقاب أما بيوت الأخوان فهى فى مأمن من تفتيشها إذ المعلوم لدى الجميع أن الأخوان كانوا يعاونون فى اطفاء الحرائق وفى استتباب الأمن ومنع الفوضى أن تنتشر فى القاهرة .

وسارت بضعة سيارات — منها سيارتى وسيارة عبد الناصر الأوستن السوداء — تنقل قنابل حارقة ومواد ناسفة وسط شوارع القاهرة المشتعلة جمعت تلك المواد من بيوت عبد الناصر وزملائه الضباط وكدست فى جاراج بيتى دون تنظيم أو صيانة أو وقاية من مخاطرها الشديدة وها هى ذى الآن أمامى . . على أن أتصرف فيها . . . !

لم أسأل نفسى وقتذاك عن سبب وجود تلك المواد فى بيوت عبد الناصر وزملائه . فقد حرصنا منذ بداية تعاوننا فى القتال أن نجنبهم الشبهات وأن نتسلم أولا فأول ومن محطة القاهرة أو طريق السويس . ما يصل من ذخيرة لنخرجه فوراً من العاصمة إلى مواقع استعماله .

لم أسأل نفسى ولم أسأل عبد الناصر سبب وجود تلك الأشياء عندهم فقد كان كل ما يعنينى أن أنقذ رقابهم فى ذلك الوقت العصيب .

بدأت أنقل تلك المواد إلى مزرعة يملكها أهلى فى مديرية الشرقية . وأحضر إلى عبد الناصر تصميماً هندسياً لمخزن ذخيرة . . وحفرنا فى المزرعة وتحت الجاراج وأنشأنا المخزن دون أن يعلم أحد من أهلى أو من سكان المزرعة ما يدور وراء سور الحديقة وخلف باب الجاراج المغلق لم يعلم أحد بوجود تلك الأشياء إلا من وضعوها فى المخزن وزوجتى التى كانت تصحبنى إلى هناك لتشرف على ما نحتاجه من طعام .

لن أنسى تلك الأيام التى كنت أجتاز فيها نقط المرور فى القاهرة والأقاليم وأطفالى يجلسون فوق صناديق يخشى كثير من الرجال الاقتراب منها . . وهم مع ذلك لاهون يغنون لأنهم لا يعلمون على أى خطر يجلسون . . !

وعندما كنا نرمى تلك المواد فى المخزن تأكدت أن فيها كمية كبيرة من القنابل الحارقة والمواد الناسفة وصندوقين من مادة الـ ت . ن . ت الشديدة الاحتراق . . وكان عبد الناصر لم يقدم لنا شيئاً من هذه المواد طوال معركة القناة وعرفت من التحقيق الذى أجرته النيابة عن حريق القاهرة أن مادة الـ ت. ن . ت هى أول ما استعمل فى الإحراق . . وهى مادة لا يستطاع الحصول عليها فى مصر إلا من مخازن الجيش وقد أثار كل ذلك شكوكى ولكنى لم أرد أن أجعل الشك سنداً لأحكامى وحين سألت عبد الناصر عن سبب ضنه علينا بمثل تلك المواد أثناء المعارك كان رده ــ ببساطة ــ أنها لم ترد إلا أخيراً .

كثيراً ما كان الحديث يجرى بينى وبين عبد الناصر عن حاجة البلاد إلى ثورة تصحح أوضاعها وتقيم فيها حكماً دستورياً سليماً ينبع من إرادة الشعب الحقيقية ويحقق للناس ما هم فى حاجة إليه من رخاء وكرامة . وكان لا خلاف بيننا فى أن الملك فاروق وجيشه يقف عقبة فى طريق كل إصلاح داخلى جذرى .

وفى يوم من الأيام الأولى لشهر مارس سنة ١٩٥٢م رأى بعض الضباط ــ ومنهم جمال عبد الناصر ــ أن الوقت مناسب لعمل انقلاب عسكرى تتخلص فيه البلاد من الملك وتعيد دستورها وتلتفت إلى إصلاحاتها الداخلية وإلى استكمال استقلالها الخارجى واستشار عبد الناصر بعض زملائه وبعض أصدقائه ثم جاء إلى مكتبى غير مخف غضبه جاء يشكو ويأخذ رأيى النهائى أن زميله القائمقام رشاد مهنى الذى أصبح بعد الثورة عضواً لمجلس الوصاية على العرش . . رفض المشاركة فى الحركة العسكرية بحجة أن الوقت غير مناسب ورشاد مهنى له كثيرون يدينون له بالطاعة فى صفوف الضباط الأحرار فلا يمكن القيام بالحركة بدونه ، ورشاد مهنى على صلة طيبة بالأخوان فقد لا يشترك ضباط الأخوان فى حركة يرفضها وقد لا تؤيد الهيئة ذاتها فكرة الحركة .

وبدأت أناقش فى هدوء ــ ودون دفاع عن وجهة نظر معينة ــ مدى مناسبة الظروف محلياً ودولياً للقيام بثورة عسكرية يكون تمهيداً لثورة شعب . . فلم يستطع عبد الناصر أن يضبط نفسه وقاطعنى قائلا :

ـــ لماذا إذن تكبدنا المتاعب والأخطار فى سبيل إنزال قوات الجيش إلى شوارع القاهرة لقد كاد الأمر أن يفلت من أيدينا ولكننا كسبنا نزول الجيش إلى الشوارع . . وهو يستطيع اليوم أن يستولى على الحكم فى ساعة واحدة من ساعات الليل . .

وعرفت يومئذ أن عبد الناصر استفاد كثيراً من تلك الفترة التى كان يحمل فيها اسم « موريس » كاسم حركى فى خلية شيوعية . .

ولم أناقش الماضى ، فمناقشة الماضى أملا لا طائل من ورائه . واستكملنا حديثنا عن الثورة العسكرية المرتقبة ونتائجها ولكن حركة مارس عدل عنها حين لم يجد عبد الناصر من يعينه عليها ـــ أو من يقوم بها نيابة عنه ـــ وحين أيقن أن التخريب قد يدخل الإنجليز قبل إقناع الأمريكان أمر خطير ـــ أرجىء تاريخ الثورة لتقع فى ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢م وظلت الأسلحة والذخائر والمواد الناسفة والحارقة المتبقية من حريق القاهرة فى مخزنها الذى اختاره لها عبد الناصر ، حتى قام فى يناير سنة ١٩٥٤م بضبطها . . ولكن كل مصرى عرف من هو صاحبها .

وسارت الأيام . . وتغيرت الوزارات فى مصر بسرعة غير عادية وأسرف رجال القصر الملكى فى عبثهم . . وحاولت الحكومات المتعاقبة التفاهم مع الأخوان الذين أبوا أن ينخدعوا فالأحكام العرفية مفروضة تستغل فى اضطهاد بعض الهيئات الشعبية فليس لهيئة أن تثق فى الحكومة أو فى القصر . واستمر الإعداد الجدى فى خفاء للثورة العامة التى سيقوم فيها الجيش بالخطوة الأولى لأن الشعب لا يطمئن إلى الاقدام وحده على عمل مادام الملك فاروق يرهبه بالجيش .

وأريد ـــ إنصافاً للتاريخ ـــ أن أقول أن بعض الزملاء ـــ الذين لم نسمع لهم يومئذ رفضوا إلى آخر لحظة قيام الجيش بحركة عسكرية كخطوة نحو الثورة العامة لأنهم لا يثقون فى حركات الجيوش . ولا أستطيع أن أكشف عن أسماء هؤلاء الزملاء ولكن الأيام كفيلة بأن تكشف عنهم .

أما المتحمسون منا ومن غيرنا المؤملون كثيراً فى مستقبل الحرية فلم يستمعوا إلى الزملاء الذين أشرت إليهم . ورأوا مخاطر مشاركة العسكريين فى الثورة أهون من بقاء النظام القائم فى مصر ، وحسبوا أن الشركاء العسكريين يمكن أن يصدقوا فى دعواهم فى الحرص على الحرية والدستور وكرامة الإنسان .

واستمر الإعداد للثورة العامة التى تبدأ بتحرك عسكرى فدعى ضباط الأخوان للمشاركة فيها ودعى عامة الشباب ليكونوا على أهبة الاستعداد لحماية الوضع الجديد . . ولكننا اتفقنا على أن يبقى كل ذلك مكتوماً فلم نعلن عنه حتى بعد نجاح الثورة .

ونوقشت الأوضاع التالية للثورة واحتمالات الفشل والنجاح . أما الفشل فكان معناه أن تنضم الفئة الثائرة من الجيش إلى الشباب ويكون قتالا يؤدى إلى ما قد يؤدى إليه من أحداث . . أما النجاح فكان يعقبه إسناد الحكم مؤقتاً إلى الرئيس على ماهر لتطمئن الهيئات المحلية والدول الأجنبية . . ثم تجرى انتخابات سريعة يحكم البلد بعدها من يختاره الشعب فى ظل الدستور الذى له السيادة وحده . . ويرجأ الغاء الملكية إلى ما بعد الانتخابات وقد رأى عبد الناصر — كما قال لى — أن يزيد بعض الدول الأجنبية اطمئناناً إلى الوضع الجديد فإذا ببعض السفارات الأجنبية تعلم بالثورة قبل نشوبها .. وهذا يفسر لنا اطمئنان تلك الدول إلى الناصرية وقتاً طويلا .

كما أصر عبد الناصر بعد الثورة وكم ردد — فى مناسبة وغير مناسبة — أن لا وصاية لأحد على الثورة . وفاته أن الأمر لم يكن أمر وصاية هيئة على هيئة أو شخص على شخص بل لإقرار أوضاع البلاد على حال يمكن أن تستقيم ، كان الاتفاق واضحاً على أن يعاد الدستور ويحمى وتقف مهمة الجيش عند منع عبث الحكومة المؤقتة بأوضاع البلاد إلى أن يتسلم الحكم من تسفر الانتخابات عن نجاحه . . فإذا احتاج الأمر إلى تدخل أكبر أو تعديل فى الخطط وجب أن يتفق ثانية على ذلك .

وحدد التوقيت . . ولكن الظروف قدمته أياماً قلائل حين وصلت أنباؤه وأسماء بعض الضبـــاط إلى أسماع الملك فاروق فكان التنفيـــذ وقامت الثورة يوم ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢م ولم يعلم بها قبل وقوعها إلا القليلون .

وقعت الثورة وفرح بها الناس فى دهشة وتهاوى أنصار الملك، واضطربت تصرفاته وعين الرئيس على ماهر رئيسا للوزراء والرئيس محمد نجيب قائدا للجيش وبعد ثلاثة أيام تنازل الملك عن العرش وغادر البلاد فأزاح بذلك حملا ثقيلا عن صدورنا .

لو أن الملك فاروق اتجه إلى معسكرات مصطفى باشا فى الإسكندرية بدلا من التجائه إلى قصر رأس التين لانضمت إليه قوات من الجيش كبيرة . . وربما أمكنه أن يغير تاريخ مصر الحديثة ... ولكن القدر كان قد رسم أن ينهى فاروق — بتصرفاته غير المتزنة — حكم أسرته . . فاستقرت الأحداث إلى غايتها المحتومة .

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن البكباشى جمال عبد الناصر كان المحور الذى تدور حوله تنظيمات الضباط الأحرار وأن صديقه الصاغ عبد الحكيم عامر كان موضع سره . فلما كانت ليلة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ أوحى ذكاء عبد الناصر له أن لا يشارك فى التنفيذ خشية الفشل ، لقد ظـل عبد الناصر وصديقه عامر بلباسهما المدنى البسيط واعتصما بكلية أركان الحرب حتى تم احتلال إدارة الجيش وقبض على كثير من الضباط وعند ذلك عثر عليهما القائمقام يوسف صديق فنقلهما إلى مقر القيادة ...

إن حقائق الثورة لم تعرف بعد ، وسيعرف النـاس غدا تلك الأسماء التى سقطت فى القاع كما ترسب الجواهر تحت الماء وعلى آية حال فإن الثورة قامت ورفعت شعاراتها المعروفة ومن بينها الشعار الذى آمن به المخلصون « نحن حماة الدستور . . ! » .

السجين رقم ١٣

فى مساء يوم ١٣ يناير سنة ١٩٥٤ سارت سيارة نقل مكشوفة من مقر البوليس الحربى وكنت أقف صامتا فى أحد أركانها يحيط بى كثيرون لم أعرف منهم أحدا وكانت قد سبقت هذه السيارة منذ الصباح الباكر — وتلتها سيارات أخرى كثيرة .. سارت السيارة بسرعة حتى وصلت ثكنات الجيش بالعباسية — فأوغلت فيها إلى أن توقفت داخل السجن الحربى وقابلنا ضابط شاب ، ظل يصدر أوامره بسرعة وبصوت عال لامبرر له .. فساقنا الجنود إلى مبنى كبير وارتقيت سلما وأحد الجنود يقبض على ذراعى بقوة كأنه يخشى أن أفلت منه ، حتى فتح باب زنزانة دفعنى داخلها وهو يقول « ادخل سجن العفاريت .. وأغلق الباب خلفى .. وحاولت أن أتبين مكانى فى الظلام الدامس فما رأيت شيئا ولا أحد إلا أنا .

وكنت متعبا فجلست على الأرض الباردة وأحكمت إحاطة المعطف حول جسمى وأسندت رأسى إلى الحائط ومر الليل الطويل ساكنا يقطعه بين حين وآخر نداء الحراس واحد تمام اثنين تمام خمسة تمام إلى آخر الأعداد حتى تبلغ ثلاثة عشر ؟ ثم يسكت النداء — ليبدأ بعد قليل .

وفى سكون الليل رحت أسأل نفسى لماذا أنا هنا ... ؟ كل ما أعرفه ولم أندم عليه أنى أنا الذى أسلمت نفسى إلى هؤلاء الحكام بعد أن أفلت منهم فى الصباح وهل من خطر أن أسلم نفسى مادمت لم أفعل إلا أن خالفت الشركاء فى الرأى وهب أنهم تنكروا للشركة وقبلت تنكرهم ، فالأمر لايعدو مخالفة حاكم فى رأيه . فلماذا أنا هنا وفى السجن ؟ ...

دق جرس التليفون بمنزلى فجر يوم ١٣ يناير سنة ١٩٥٤ والظلام لايزال مخيما ورفعت السماعة عجبا من يكون المتحدث فى ذلك الوقت غير المناسب ونادانى

صوت صديق يقول فى عجلة أن أوامر اعتقال بالجملة ستنفذ الآن ، واسمى من بين ما ورد فى القوائم وترك لى أن أتصرف .

وارتديت ملابسى بسرعة ولم أرد ازعاج زوجتى فابلغتها أنى مسافر إلى الإسكندرية فى عمل ... وما أن خطوت خطوات نحو الباب حتى دق جرسه فأيقنت أن أوامر الاعتقال ستنفذ قبل أن أغادر البيت .. وفتحت الباب لأجد أمامى زيا عسكريا كاكي اللون وغطاء رأس أحمر إنه الزى الذى يرتديه رجال البوليس الحـــربى وسقط الضوء على من بالباب فلم أجد محلا للخشية منه . كان صديقا آخر جاء ينبهنى إلى أمر الاعتقال ويذكر لى بعض أسماء من سيعتقلون ويبلغنى أن رجال البوليس لابد أن يكونوا الآن فى بيتى السابق الذى تركته منذ شهرين .

وتركنا المنزل معا . . وآثرت أن أسافر إلى الاسكندرية لغير ما عمل .. وأن أعود مع المساء .

لم أستطع إلى المساء أن أعرف أسباب أوامر الاعتقال التى صدرت من غير مقدمات إلا إذا كانت الاضرابات التى حدثت فى الجامعة بالأمس تبرر الاعتقالات على هذا النطاق الواسع . وظننت أن الاعتقال سيعقبه تحقيق يدور حول كلام كنت أقوله لعبد الناصر كرأى صريح فى تصرفاته وآرائه فقررت أن أسلم نفسى لأننى وحدى الذى يستطيع بيان ما وجهته إلى عبد الناصر من نقد .. ولم أرد أن يتحمل غيرى نتائج أرائى وتصرفاتى .

صحيح أن الحركة العسكرية بدأت تتجه اتجاها استبداديا لا يرضى بوجود اتجاهات تعارضها فى البلاد ، ولكنى لم أكن أظنها قد أوغلت فى هذا الاتجاه إلى حد اعتقال كل صاحب رأى مخالف حتى أولئك الذين شاركوا فى الثورة وأعانوها إلى وقت قريب . ربما كان عبد الناصر جادا فى تنفيذ ما هدد به فى مايو من العام الماضى بأن يتخلص من عشرين أو ثلاثين فى المائة من الشعب إذا لزم الأمر ليستقيم حال البقية ولكنى كنت أظن ذلك القول ثورة مناقشة غاضبة سرعان

ما تهدأ وتتزن عند التفكير العاقل .. لقد قلت يومئذ أن فاروق كان أكثر تواضعا منه فلماذا ثرنا ضده .. ؟ ولم يزد عن أن ابتسم .

وهكذا سلمت نفسي فى المساء إلى رئيس المباحث العامة وما أن جلست فى غرفته بوزارة الداخلية حتى اتصل تليفونيا بالوزير ثم سألنى عن مكان مزرعتى فأجبته ... ونقلت من وزارة الداخلية إلى مقر البوليس الحربى ، حيث وجه إلى الضابط الذى تسلمنى ذات السؤال « أين تقع مزرعتك ... ؟ » ولم أفهم سبب السؤال ، فكأنما يعرفه عبد الناصر الذى أمر باعتقالى ويعرف بالتحديد أين مخزن السلاح والذخيرة فيها ثم حشرنا فى سيارة نقل مكشوفة سارت بنا مسرعة إلى السجن الحربى حيث أجلس وحدى فى زنزانة « بسجن العفاريت » كما أسماه الجندى الذى دفعنى داخلها .

وبدأت خيوط الصباح تتسلل من النافذة ذى القضبان القريبة من السقف العالى ورحت أسمع بين الحين والآخر أصوات أقدام تسير وصرير مزلاج حديدى يفتح فى الزنزانات المجاورة فأملت أن تفتح زنزانتى ليقول لى الناس لماذا أنا هنا ... ؟ ولكن النهار الطويل انقضى ولم يفتح الباب وأسلمنى الإرهاق لنوم متقطع وأنا جالس على الأرض . حتى بدأ الظلام يخيم مع الليل وعادت نداءات الحراس تتجاوب فى جنبات السجن الحربى كل حين .

وأيقنت أن القائمين على أمر هذا السجن لايعلمون أن السجين إنسان يجوع ويعطش وعاد مع الليل الأرق .. وعاد مع الأرق التساؤل : لماذا أنا هنا ... ؟

حين تنازل فاروق عن العرش وغادر مصر ، استمر الرئيس على ماهر يحكم البلاد بوزارة هزيلة شكلت على عجل فى ظروف استثنائية . وظلت مجموعات الضباط تحاول أن تتدخل فى شئون الحكم من مقرها بإدارة الجيش ولكن الرئيس ماهر لم يكن خاضعا تماما لسيطرة الجيش بل كان له رأيه المخالف صوابا أو خطأ وبينما هو يحاول أن يبنى مجدا أو دولة على طريقته الخاصة كان الضباط يهيئون بناء نظـام حكم يتفق مع أفكارهم ، وكان عبد الناصر يبنى وحده فى الخفاء مجده

وامبراطوريته الواسعة التى بدأت أحلامها ثم بدت كأنها تتحقق ، لتعود أحلام ليلة سابقــة طلع عليها النهار فبددها . . ولـكنه استطاع أن يسجل اسمه فى تاريخ البشرية على أية صورة .

إن المراقب للأحـــداث التى وقعت منذ ثورة ٢٣ يوليو حتى استتباب الحكم لعبد الناصر شخصيا يحس بالإيحاء إلى إقامة حكم الفرد وتزعم عبد الناصر لهذا الاتجاه .. حكم الزعيم وهكذا اختفت — شيئا فشيئا — صورة الهيئات الشعبية التى كانت تنادى بسيادة الدستور وتؤيدها مجموعة من رجال الجيش وكثرة من أفراد الشعب .

الواقع أن عبد الناصر تنكر منذ نجاح الثورة لاتفاقاته السابقة مع بعض الهيئات الشعبية وبدأ يصرف الأمور مع لجنة الضباط الأحرار — التى أسماها فيما بعد مجلس الثورة — دون أن يحس بالتزامه بأن يرجع إلى من شاركوه أو أعانوه من غير زملائه العسكريين ولـكن تنكره ذلك لم يمنعه من طلب العون ولم يمنعنى من تقديم العون فاتفاقاتنا لم تكن لمصلحة شخصية أو حزبية بل كانت لمصلحة أمة وإقامة دستور فاكتفيت — ومن يرى رأيى من زملائى — بما قطعه عبد الناصر وزملاؤه على أنفسهم من عدم إقامة حكم عسكرى ومن احترام حريات الناس وسيادة القانون .

وقد استطاع الضباط أن يثبتوا مهارتهم السياسية حين تخلصوا من وزارة الرئيس على ماهر بحجة أنها تريد تعطيل الدستور فترة أطول من فترة الانتقال التى كان متفقا عليها من قبل وهى ستة أشهر .

واتبعوا ذلك بإعلان الدستور المؤقت الذى جعل مجلس الثورة هيئة دستورية لها وضعها فى تنظيم الـــدولة . ولـكن هذه الخطوة لم تتم إلا بعد تعيين اللواء محمد نجيب رئيسا للوزارة . ثم إقصاء رشاد مهنى من مجلس الوصاية على العرش .

فى منتصف أغسطس سنة ١٩٥٢ وبعد أقل من شهر على حكم الرئيس على ماهر استقر رأى الضباط الجالسين فى إدارة الجيش على أن « على ماهر مخرب للحركة .. فقد كانوا إلى ذلك الوقت يسمون ثورتهم العسكرية « حركة » ثم تطوروا بعد

ذلك إلى تسميتها ثورة . اعتبروا الرئيس ماهر مخربا للحركة لأنه لايهدف بسرعة إلى إعـــادة الدستور وإجراء انتخابات عامة فى البلاد ، ولأنه يفرض ضرائب غير مباشرة على المواد الاستهلاكية ولأنه فى ــ عبارة أخرى ــ يحكم بعقلية العهود الماضية . وعلى ذلك قرر الضباط تنحيته عن الحكم ليحل غيره محله .

وكانت أبرز الأسماء المرشحة لتولى الوزارة الدكتور السنهورى رئيس مجلس الدولة فى ذلك الوقت . وكان ترشيحه لعبة ماهرة من عبد الناصر الذى لايرتضيه رئيسا للوزارة إنه يرشحه لأنه يضمن رفضه من الهيئات الشعبية ومن كثير من رجال الجيش فللدكتور السنهورى ماض سياسى حزبى لاترضى عنه بعض الهيئات الشعبية فإذا رفض ــ وهو الرجل العالم الفاضل ــ فليس أمام الناس إلا أن يقبلوا رئاسة محايد ذى روح جديدة تتفق وأغراض الحركة الجديدة ... رجل عسكرى يعاونه مدنيون ولم يكن هناك من يمكن ترشيحه لرئاسة الوزارة ــ بعد تعيين رشاد مهنى عضوا فى مجلس الوصاية ــ إلا الرئيس نجيب ، قائد الجيش وممثل حركته إلى ذلك الحين .

وظلت لجنة الضباط العليا واللجان الفرعية فى الأسلحة المختلفة وأعضاء الهيئات الشعبية يناقشون اسم الرئيس الجديد للحكومة ويدورون فى حلقة مفرغة لتصل دائما إلى حل واحد هو تعيين اللواء محمد نجيب رئيسا للوزارة وهو الحل الذى يرتضيه عبد الناصر لأنه يريد التعجيل بوضع اللواء نجيب على كرسى الحكم ليوجهه فترة من الزمن وليخلفه بعدها وانطلت اللعبة الماهرة على الهيئات الشعبية وعلى المؤمنين بالدستور من رجال الجيش وعلى اللواء نجيب نفسه .. فعين رئيسا للوزراء يوم ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ خلفا للرئيس ماهر الذى قبلت استقالته قبل أن يقدمها ...

فى منتصف ليلة ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ طلبنى عبد الناصر تليفونيا وأبلغنى أنه يريد أن يلقانى فى إدارة الجيش فى الصباح الباكر . وفى هذا اللقاء

أبلغنى اعتقال ثلاثة وسبعين شخصا من رجال السياسة والقصر الملكى وعرض على اشتراك الاخوان فى الوزارة على أن أكون أنا أحد الوزراء أما الاعتقال فكنت لا أرضاه ولا أقبل له سببا إلا أن يكون احتياطيا مؤقتا بمناسبة تعيين رئيس وزراء عسكرى أو تمهيدا لتحقيق ومحاكمة أمام المحاكم العادية وقد أكد لى عبد الناصر أن الاعتقال موقت وسيفرج عن جميع هؤلاء الذين وضعوا فى المدرسة الثانوية العسكرية بعد أيام إلا من يثبت ضده اتهام يستوجب محاكمته الجنائية . أما دخول الاخوان الوزارة فقد تركته ليقرره مكتب الارشاد (مجلس إدارة الهيئة) وقد رفض المكتب الاشتراك فى الوزارة وحين دخلها أحد الاخوان — الشيخ أحمد الباقورى — استقال من الجماعة حتى لايتعارض موقفه مع قرارهم رفض الاشتراك فى الحكم وقد أغضب هذا القرار عبد الناصر وظل فترة يظن أنى أنا صاحبه ويحاول أن ينال منى بسببه .

وقد كنت إلى ذلك الوقت أثق فى عبد الناصر وأعتقد أنه يعمل للفكرة لا لمجده الشخصى ولذلك كان من رأيى الموافقة على إسناد الوزارة إلى الرئيس نجيب وأن يدخل الأخوان الوزارة كى يكونوا على بينة من سير الأمور وحتى لا نترك الانتهازيين والمنافقين يلتفون حول عبد الناصر وزملائه يوجهونهم إلى السيطرة والاستبداد ولكنى لا أستطيع اليوم — وبعد فوات ذلك الوقت الطويل — إلا أن أعترف ببعد نظر الظانين السوء بوزارة الرئيس نجيب المؤثرين عدم الاشتراك فى حكم يسير حتما إلى الدكتاتورية إلا أن يكون دخول الوزارة للخروج منها بعد حين عندما يسفر الاتجاه الدكتاتورى عن وجهه .

لقد علمتنى الأيام كم كنت مخطئاً فى تقدير أهمية وزارة الرئيس نجيب كنقطة تحول لثوره ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ . ولو كنت ممن يندمون على الماضى لندمت أنى لم أستمع إلى قول الناصحين لى أن نقضى على تلك المجموعة قبل أن تسيطر — وكنا وقتذاك قادرين على ذلك — ولكنى لم أقبل .

كل مصرى كان يعلم أن طريق السويس ومناطق القتال كانت محفورة بمجموعة من الفدائيين.. وكل مصرى يعلم أن السفارات الأجنبية والمراكز الحساسة فى القاهرة والأقاليم ومنازل عبد الناصر وزملائه وأشخاصهم كانت تحرسها مجموعات من الأخوان فى زى مدنى ليدفعوا عنها أى اعتداء من جانب المتطرفين . وكل مصرى يعلم أن رحله الرئيس نجيب وزملائه فى أقاليم مصر لم تنجح إلا بسبب الإعداد الذى تم لها من جانب الأخوان .

لم أقبل أى محاولة للقضاء على عبد الناصر وزملائه ووقفت ومن يرى رأيى ندفع عنهم أى أذى.. واستمر عبد الناصر فى خطته يصفى الجيش من منافسيه ويصفى جبهة الشعب من معارضيه مستعيناً بكل منهم على الآخر حتى لا يبقى غيره .

وإذا كنت أنا قد أخطأت فى تقدير تلك الخطوة فانى أعرف الكثيرين ممن أخطأوا تقديرها ولكنهم تغالوا بعد أن تبينوا الخطأ وهم يدفعون اليوم — هم وبلادهم — ثمن تلك المغالاة حتى أولئك الذين يظن الناس أنهم كانوا يحكمون فما كانوا فى الواقع إلا مغمضى عيون يدفعهم فى الطريق ركب يسير إلى الهاوية .

وتولت وزارة الرئيس نجيب الحكم ، وصدر بعد تأليفها مباشرة قانونان هامان أحدهما خاص بالإصلاح الزراعى حدد الملكية الزراعية وقيمة الإيجار للأراضى وثانيهما خاص بتنظيم الأحزاب السياسية وكان القانونان على رضى من أغلب الناس لما صاحبهما من دعاية ولما رجوا من ورائهما من إصلاح ، فإن سوء توزيع الثروة الزراعية فى مصر وكثرة ما أثير حول الأحزاب السياسية القديمة من مساوىء جعلت الناس يرجون الخير من معالجة القانون لتلك الأمور وقد سبق أن نادى الأخوان بضرورة إصدار مثل هذين القانونين .

ومع ذلك فقد وقع خلاف فى الرأى بين الأخوان وبين الضباط حول هذين القانونين.. خلاف فى التفاصيل لا فى الجوهر ولم ينس عبد الناصر هذا الخلاف . وظل طويلا يعلق عليه ويبدى لى استياءه من نشر جانب منه فى الصحف .

ولم يخف على عبد الناصر أن قانون تنظيم الأحزاب ليس إلا خطوة نحو الغائها فحرصنا معاً على أن لا ينطبق على هيئة الأخوان المسلمين وقد بذل عبد الناصر فى هذا السبيل جهداً لا أنكره برغم معارضة بعض زملائه له ، وبرغم ما وجد فى هذا السبيل من متاعب من الأخوان أنفسهم الذين لم يكن لزاماً على أن أبلغهم واحداً واحداً بما أسره إلى عبد الناصر من عزم على إلغاء الأحزاب القائمة نهائياً وكان المفهوم أن إلغاء الأحزاب سيعقبه بعد الانتخابات الأولى للجمعية التأسيسية إباحة إنشاء أحزاب جديدة تقوم على فكرة محددة لا على مجرد تجمع أشخاص بالذات كما كان الشأن فى كثير من الأحزاب القديمة وقد كان قانون تنظيم الأحزاب السياسية خطوة ذات أثر فعال فى زعزعة الأحزاب القائمة حين طمع بعض الأعضاء فى كل حزب — حتى فى الأخوان المسلمين — أن يكونوا هم أصحابه وذوى المكانة فيه وإن اضطرهم هذا إلى الارتماء فى أحضان الضباط الحاكمين وأدى هذا الطمع إلى صور من الخلاف المشين حطت من قـــدر الأحزاب ورجالها فى نفوس كثير من المصريين فلم يسخط الناس حين أقدم الجيش على إلغائها .

ولكن الناس بدأوا يسخطون وبدأ الساخطون يكثرون حتى عم السخط حين حاول عبد الناصر أن ينشئ حزباً بعد الغاء الأحزاب حزباً أسماه « هيئة التحرير » أراد أن يكون قاعدته الشعبية التى يحكم البلاد على أساس تأييدها له بجوار الجيش . وقد حاول عبد الناصر جاهداً أن يستعين فى تنظيم هذا الحزب وعمل برامجه بالأستاذ سيد قطب أحد كتاب الأخوان وأهل الرأى فيهم وكانت هيئة التحرير منذ إنشائها نقطة خلاف رئيسية بين عبد الناصر والأخوان . . وبينه وبين كل أصدقائه القدامى المؤمنين بالحرية السياسية للشعب . . ولكن هذا أمر لم يحـــدث إلا فيما بعـــد .

حين شكلت وزارة الرئيس محمد نجيب ، كان بعض الأخوان المسلمين الذين سبق أن حكم عليهم فى قضايا سياسية فى العهد الماضى لا يزالون فى السجون وكانت الحكومة لا تمانع فى العفو عن جميع الجرائم السياسية السابقة فيما عدا جرائم القتل والتخريب وكان من الأخوان من حكم عليه فى مقتل المستشار أحمد الخازنـــدار

ورئيس الوزراء محمود النقراشي وطلب مني الأخوان أن أتحدث مع عبد الناصر فى شأن العفو عن هؤلاء وحين قابلته وافق على أن يستصدر عفواً عن جميع المتهمين فيما عدا قضيتين قتل القاضي الخازندار وحريق القاهرة . . وكان عجيباً منه هذا الموقف . . هاتان القضيتان بالذات ؟

ولم يسعني إلا أن أقول فيما يشبه التأنيب أنه كان من الممكن أن يكون هو فى السجن فى إحدى هاتين القضيتين وأن يكون مكانه شخص مثلى فهل كان يرضى أن أتخلى عنه ؟

وفهم ما أرمى إليه . . ولم ينقض أسبوع حتى صدر العفو عن جميع القضايا بما فيها قضايا القتل .

وبعد فترة قصيرة من تشكيل وزارة نجيب ، أحس عبد الناصر بحاجته إلى إقصاء القائمقام رشاد مهنى عضو مجلس الوصاية وصاحب الحظوة عند الكثير من الضباط الأحرار وكان عبد الناصر قد وضعه عضوا فى مجلس الوصاية على العرش الذى كان يشغله رسمياً أحمــد فؤاد ابن الملك السابق وذلك ليبعده عن لجنة الضباط التى توجه مجلس الوزراء وليكون فى مكان الملك السابق فتنقطع صلته بزملائه . . وقد كان له ما أراد فتركه يصطدم بالرئيس نجيب ذى الحظوة الشعبية والعسكرية وتطور الصدام حين طالب رشاد مهنا بحقه ـ كواحد من رؤساء حركة الضباط الأحرار ـ فى أن تعرض عليه الأمور ليناقشها قبل إقرارها وفاته أن عبد الناصر إنما عينه عضواً بمجلس الوصاية على العرش ليجعله فى منزلة ملك وليس له أن يتدخل فى شئون الحكم وإلا اعتبر معتدياً على الدستور ، وهكذا وقع رشاد مهنى فى الفخ واعتبرته لجنة الضباط العليا ـ واللجان الفرعية ـ معتدياً على الدستور ، وما أكثر المؤمنين بالدستور فى ذلك الوقت وإن لم يكن فى البلاد دستور وصدر قرار باقالة رشاد مهنا من مجلس الوصاية وقصر المجلس على شخص واحد هو الأمير محمــد عبد المنعم .

ولكن مجرد وجود رشاد مهنا طليقاً كان يشكل خطراً على عبد الناصر فى ذلك الوقت فسارع فى يناير سنة ١٩٥٣ بالقبض عليه وعلى بعض الضباط وحاكمهم محاكمة سرية وقضى عليه بالسجن المؤبـــد .

وعند القبض على رشاد مهنا كانت الشهور الست المحددة لإعادة الدستور بعدها قد قاربت على الانتهاء واعتذر الضباط عن التأخير بأن وزارة على ماهر قد ضيعت بعض الوقت وأن رشاد مهنا أراد أن يجر البلاد إلى الوراء وأن يصبح ملكاً غير دستورى وصدر دستور موقت وشكلت لجنة لوضع مشروع دستور جديد كنت أحد أعضائها .

وشعر القائمقام يوسف صديق أحد أعضاء مجلس الثورة أن عبد الناصر يلعب لعبةجديدة فاختلف معه وتشاحنا فى المجلس ولكن عبدالناصر — مدرس علمالتكتيك فى كلية أركان الحرب — استطاع أن يحاصره وأن يعزله عن زملائه وعن الهيئات الشعبية التى تناصره وأن يبعده عن اللجنة ثم عن القاهرة ثم عن مصر كلها ليعود بعد ذلك سجيناً فشبه سجين وواحداً ممن يسيرون فى الركب مغمض العيون يجترون ما سبق أن أبدوا من بطولات قطف عبد الناصر وحده ثمارها، فيوسف صديق هو الذى احتل إدارة الجيش يوم الثورة . . وهو الذى حمل إليها عبد الناصر وصديقه عبد الحكيم عامر بعد أن أتم الثورة .

كان الفضيل الورتلانى أحد رجال الثورة الجزائرية القدامى وكان محكوماً عليه بالاعدام وأوى إلى مصر على عهد الملك فاروق وبقى بها وكان على صلة بكثير من الهيئات وعلى الأخص الأخوان المسلمين وشارك الفضيل فى انقلاب اليمن عام ١٩٤٨م ذلك الانقلاب الذى أطاح بالإمام يحيى ونجح شهراً ، ثم أطاح به الإمام أحمد بعون كبير من الملك عبد العزيز آل سعود وكان الفضيل أحد القلائل الذين استطاعوا الهرب من اليمن بعد سقوط حكومة ابن الوزير ولكن البلاد العربية أبت ايواءه فظل فى البحر هائماً فترة من الزمن حتى خجل منه — لسابق الصداقة بينهما — المرحوم رياض الصلح رئيس وزراء لبنان آنذاك فأذن له أن يهبط إلى أرض لبنان

ويعيش فيها شبه متخف ولما قامت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م أذنت له الحكومة المصرية بالعودة إلى مصر وكان على صله طيبة بعبد الناصر وزملائه وكان ولا يزال يحمل فى رأسه فكرة معاودة قلب نظام الحكم فى اليمن وطالما حدث عبد الناصر بها ولكن الأخير كان يرفضها .

وفى يوم من أيام ديسمبر سنة ١٩٥٢ أبلغنى عبد الناصر أن الدولة فى حاجة ماسة إلى قرض عاجل إذ أن الأرصدة الاسترلينية المتوفرة لمصر لدى بريطانيا لا تزال مجمدة منذ الغاء معاهدة ١٩٣٦م وأنه فهم من الفضيل الورتلانى أنه من المستطاع الحصول من الكويت على قرض يبلغ عشرين مليون جنيه استرلينى بفائدة ضئيلة أو بغير فائدة وطلب منى أن أسافر مع الفضيل إلى الكويت لبحث الأمر وأوصانى بالحرص وعدم التورط فى طلب قد يرفض وسافرت مع الفضيل وحملنا رسالة كتبها عبد النــاصر ووقعها الرئيس نجيب إلى حاكم الكويت ، وحرصنا فيها على عدم ذكر شيء على السبب الحقيقى للزيارة وكانت الرسالة تدور حول مشاعر الأخوة التى تربط البلدين واستعداد مصر أن تسير جميع حاجات الكويت من الفنيين فى مختلف المجالات .

وأمضينا فى الكويت ستة أيام فى أوائل شهر يناير سنة ١٩٥٣ وكان حاكم الكويت وشيوخها وأهلها كراماً معنا وإن لم يخفوا عجبهم من رحلتنا وحاولوا معرفة ما وراء رسالة الود الصادرة إليهم من القاهرة وقد أحسست أول الأمر أن فكرة القرض السخى كانت فرط خيال من الفضيل الورتلانى صادفت هوى فى نفس عبد الناصر فلم أتحدث فيها وقصرت حديثى على صلات الود بين البلدين وأن مصر تفتح ذراعيها لأهل الكويت زائرين ودارسين ومستخدمين أموالهم . وأوضحت دواعى القيام بالثورة فى مصر وأنها أمور لا تتصل بصور الحكم فى البلاد الأخرى . وقد تصادف أن زار الكويت أثناء وجودنا الدكتورعبد الوهاب عزام سفير مصر فى كراتشى آنذاك فتحدثت إليه فى الأمر فوافقنى على ما انتهى إليه رأيى وعدت من الكويت أحمل رسالة ود من حاكم الكويت الشيخ عبد الله السالم الصباح إلى اللواء محمد نجيب رداً على رسالته .

وحين عدت قدمت تقريراً لعبد الناصر بنتجة الزيارة ونصحت فيه بفتح أبواب مصر أمام العرب لاستثمار أموالهم وأعتقد أن هذا الأمر حدث فترة من الزمن كان من الممكن أن تحقق فى بلادنا رخاءاً ملحوظاً .

وفى وقت قريب من هذا ، اتصل أحد المقربين إلى الملك إدريس السنوسى مندوباً عن الحكومة الليبية بالاخوان لما يعلمونه من صلتهم بالضباط الحاكمين وعرض أن تقوم مصر باعانة ليبيا بمبلغ مليون ونصف مليون جنيه سنوياً على ما أذكر — على أن تفتح ليبيا أمام المصريين أبواب العمل فيها وأن يقوموا هم بتوجيه شئون المال والتعليم والأعمال فى البلاد . ونوه المندوب بأن قبول مصر دفع هذه الاعانة سيصرف الحكومة الليبية عن التماسها عند الإنجليز والأمريكان واهتم الأ -
وفاتحوا عبد الناصر فيه بحضورى وكان لعبد الناصر عذره فى أن يرفض لعدم وجود فائض فى ميزانية مصر . ولكنه لم يكتفى بهذا بل أفصح عن رأيه فى أى تعاون مع العرب فردد ذلك المثل الذى كان يقوله دائماً قبل الثورة ، العرب جرب فلا تقربهم وفوجىء اخوانى بهذا الرد ولم يقدر واحد منهم أن صاحب هذا الرأى سيصبح يوماً ما رائد القومية العربية وزعيم الوحدة بين بلاد العرب من المحيط إلى الخليج .

وحدث فى أواخر عام ١٩٥٢ أن طلب المستر ايفانز المستشار بالسفارة البريطانية فى القاهرة من أحد أصدقائه أن يجمع بينه وبين بعض الاخوان المسلمين ووقع اختيار المرشد على عضوين من مكتب الارشاد (مجلس إدارة الهيئة) هما منير دلة المستشار بمجلس الدولة وصالح أبو رقيق المستشار بالجامعة العربية . وطلب منى إبلاغ الأمر إلى عبد الناصر قبل أن يتم الاجتماع بالمستر ايفانز وقد قمت بابلاغه هو وعبد الحكيم عامر فرحبا بمثل هذا اللقاء ليعلم الانجليز مدى وقوف أكبر هيئة شعبية وراء مطالب الحكومة فى الجلاء واقترح عبد الحكيم عامر أن أكون ثالث من سيحضر هذا اللقاء مع المستر ايفانز ولكننى اعتذرت لأن من مبدئى أن الاخوان هم الذين يقومون باختيار من يمثلهم فى مثل هذه اللقاءات وقد اختاروا فعلا .

وعاد مستر ايفانز بعد لقائه بعضوى مكتب الارشاد يطلب أن يقابل المرشد العام للاخوان المسلمين فوافق المرشد على لقائه ودعاه لتناول الشاى معه فى منزله

وقمت بابلاغ ذلك إلى عبد الناصر واتفقنا على أن يلتقى عبد الناصر وزملائه بالمرشد ظهر يوم ٢٥-٢-١٩٥٣ ليعلموا منه ما تم فى لقاء مستر ايفانز وحضرت هذا الاجتماع الذى كان المرشد يشرح فيه وجهة نظره فى وجوب التمسك بانتهاء معاهدة ١٩٣٦ وأن الأمر لايحتاج إلى معاهدة جديدة مع بريطانيا لأننا نؤمن بموقف الحياد الذى نود أن نتخذه موقفا لنا فى السياسة الدولية. ولكن عبد الناصر - الذى اشتهر فيما بعد بأحد أبطال الحياد - كان يعارض هذه الفكرة ويؤكد وجوب الانحياز لأحد المعسكرين الغربى أو الشرقى وأنه شخصيا يرى السلامة فى الانحياز إلى المعسكر الغربى وبرغم الخلاف فى الرأى بين الاخوان من جهة وبين عبد الناصر وزملائه من جهة أخرى فقد أبدى عبد الناصر ارتياحه إلى موقف المرشد العام لأن تشدده فى الحياد سيعطى الحكومة فرصة التوصل إلى أحسن اتفاق مع بريطانيا فى شأن السودان وفى شأن الجلاء عن قاعدة قناة السويس .

وعرض المرشد على عبد الناصر ورفاقه فى هذه الجلسة فكرة دعاهم إلى محاولتها إذا اضطروا إلى عقد معاهدة مع الانجليز تقوم على أن يكون تقرير حالة خطر الحرب باتفاق الطرفين فإن اختلفا فبقرار من مجلس الأمن ... ولما كان مجلس الأمن لايصدر قرارا إذا اعترضت احدى الدول صاحبة حق الفيتو ، فإن هذا الوضع سيضمن حياد المنطقة من مظنة القول بخطر قيام حرب . وقد حاول عبد الناصر - كما أبلغنى - اقناع الانجليز بذلك فلم ينجح .

وفى أوائل صيف ١٩٥٣ تعثرت المفاوضات بشقيها السودان والجلاء - مع بريطانيا - وحاول عبد الناصر التقارب مع الاخوان عسى أن يعينوه فى بعض الأعمال الفدائية فى القتال . أملا أن تدفع هذه الأعمال المفاوضين الانجليز إلى نوع من التساهل معه ولم يجد عبد الناصر كبير عون من الاخوان بعد أن أحسوا أنه يبطش بغيرهم وأنه يبيت لهم وللحياة الحرة فى البلاد أمرا .

وجلست مع عبد الناصر أكثر من مرة ولم يخف عنى أنه يحس من الاخوان جفوة نحوه ونحو سياسته وأنه ينوى حل الجماعة ودعانى أكثر من مرة إلى

التعاون معه بعيدا عن نطاقها فلم يجد منى قبولا وكانت أحاديث طويلة وقف كل منا فيها موقفه ولم يبد أى تقارب بيننا فى الأفكار هو ينوى استمرار الحكم العسكرى ونحن نصر على عودة الحياة النيابية .

وحين انتهى الصيف كان ذهن العسكريين قد تفتق عن فكرة محاكمات الثورة وقدموا إليها بعض السياسيين وغير السياسيين .

وكان أول من حوكم رئيس الوزراء السابق ابراهيم عبد الهادى الذى كان يعتبر العدو الأول للاخوان المسلمين وقد قدم بعدد كبير من التهم منها تعذيبه للاخوان أثناء حكمه عام ١٩٤٩ وكان هذا الاتهام — الذى يحكم عليه من أجله — هو مجرد دعاية لعبد الناصر ورجاله وسط صفوف الاخوان . وانتهت المحاكمة بالحكم باعدام ابراهيم عبد الهادى .

وسئل المرشد العام يومئذ فى الاجتماع الأسبوعى العام للاخوان عن رأيه فى الحكم باعدام ابراهيم عبد الهادى فأجاب لاأستطيع أن أطمئن إلى عدالة حكم صدر بعد محاكمة غير عادلة ومحاكمة ابراهيم عبد الهادى كانت غير عادلة وأرسلنى فى اليوم التالى إلى عبد الناصر أطلب منه عدم تنفيذ مثل هذا الحكم وكانت مفاجأة لعبد الناصر أن أحدثه فى هذا ، وعجب أن يشفع الاخوان فى عدوهم ولكن ردى عليه كان نحن نطلب العدالة لنا ولخصومنا على السواء « ولم ينفذ الحكم وخفض إلى السجن المؤبد .»

وقد نجح عبد الناصر فى أكثر من مناسبة فى هذه السنة سنة ١٩٥٣ فى أن يحدث خلافا خطيرا بين الاخوان فاستطاع أن يضم إلى صفه كثيرا ممن لاأنكر اخلاص بعضهم وفضله ولكن الظروف كانت مواتية لخروجهم عن وحدة الصف فى الاخوان خاصة وأن من طبيعة المرشد أنه قليل الكلام وليس على استعداد لأن يبرر موقفه أمام الناس فلم يستطيع بعض الاخوان فهم موقفه إلا حين عالجوا الأمور بأنفسهم .

وأقبل يناير سنة ١٩٥٤ وأغلب الاخوان على رأى واحد ... أن بقاء الحكم العسكرى أصبح أمرا لايطاق . ولكنهم اختلفوا فى الوسيلة فالبعض يرى أن المجاهرة بهذا الرأى واجب والبعض الآخر يرى الاستفادة باستعادة ثقة الحكومة حتى يمكن التخلص منها من داخلها .

وفى يوم ١٣ يناير سنة ١٩٥٤ كانت السيارات تقطع شوارع القاهرة تجمع الاخوان من بيوتهم وكانت القطارات قادمة من الأقاليم تحمل المعتقلين من الاخوان .

وها أنذا فى السجن أفكر لماذا أنا هنا

حصاد ماسلف .. ؟؟

فى ضحى يوم ١٥ يناير سنة ١٩٥٤م وفى الزنزانة رقم ٣٥ مبنى ٢ من السجن الحربى الذى دخلته منذ مساء ١٣ يناير سنة ١٩٥٤م . . كنت أجلس على السرير الذى وضعوه لى صباحاً . . وفتح الباب ليدخل ضابط شاب يتحدث بأسلوب جاف مترفع . . فيسألنى عن اسمى وعملى ، ومركزى فى الجماعة . . ثم يقذف إلى بصحيفة أقرأ فيها بعد العناوين المثيرة قراراً بحل الجماعة يقول :

أصدر مجلس قيادة الثورة فى اجتماعه أمس برئاسة البكباشى جمال عبد الناصر نائب الرئيس ما يلى : تعتبر جماعة الإخوان المسلمين حزباً سياسياً ويطبق عليها أمر مجلس الثورة الخاص بحل الأحزاب السياسية .

وليس فى هذا القرار ما يريب . . ولا ما يدعو إلى الاعتقال والتحدث عن المؤامرة الكبرى لإقصاء العهد الحاضر ، يدبرها الأخوان المسلمين مع رجال السفارة البريطانية .

واستمر فى القراءة . فإذا بيان من مجلس قيادة الثورة يقول :

إن كانت الثورة قد قامت فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢م فقد ظل تنظيم الضباط الأحرار ينتظر من يتقدم الصفوف مخلصاً ليغير الفكر الذى كنا نعيش فيه ، ويثبت بعمله جدية صدقه وإخلاصه لدينه ووطنه وكنا على استعداد أن نتبعه فى صف واحد كالبنيان المرصوص حتى نحقق لوطننا العزيز عزة وكرامة وتحرراً من الاستعمار والعبودية ولما طال انتظارنا عقدنا العزم على القيام بالثورة وكنا جادين ولا هدف لنا إلا حرية الأمة وكرامتها وأن الله تعالى لن يكتفى بإيمان الناس إذا لم يتبعوا هذا الإيمان بالعمل وبالعمل الصالح فيقول عز وجل :

« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » .

ومن يوم قيام الثورة ونحن فى معركة لم تنته بعد ، معركة ضد الاستعمار لا ضد المواطنين وهذه المعركة لا تحتمل المطامع والأهواء التى طالما نفذ الاستعمار من خلالها ليحطم وحدة الأمة وتماسكها فلا تقوى على تحقيق أهدافها .

وقد بدأت الثورة فعلا بتوحيد الصفوف إلى أن حلت الأحزاب ولم يحل الأخوان إبقاء عليهم وأملا فيهم وانتظاراً لجهودهم وجهادهم فى معركة التحرير ولأنهم لن يتلوثوا بمطامع الحكم كما تلوثت الأحزاب السياسية الأخرى ولأن لهم رسالة دينية تعين على إصلاح الخلق وتهذيب النفوس ولكن نفراً من الصفوف الأولى فى هيئة الأخوان أرادوا أن يسخروا هذه الهيئة لمنافع شخصية وأطماع ذاتية مستغلين سلطان الدين على النفوس وبراءة وحماسة الشبان المسلمين ولم يكونوا فى هذا مخلصين لوطن أو دين .

ولقد أثبت تسلسل الحوادث أن هذا النفر من الطامعين استغلوا هيئة الأخوان والنظم التى تقوم عليها هذه الهيئة لإحداث انقلاب فى نظام الحكم القائم تحت ستار الدين وقد سارت الحوادث بين الثورة وهيئة الأخوان بالتسلسل الآتى :

(١) فى صباح يوم الثورة استدعى الأستاذ حسن العشماوى لسان حال المرشد العام إلى مقر القيادة العامة فى كوبرى القبة وأبلغ إليه أن يطلب من المرشد العام إصدار بيان لتأييد الثورة . ولكن المرشد بقى فى مصيفه بالإسكندرية لائـــذاً بالصمت فلم يحضر إلى القاهرة إلا بعد عزل الملك . ثم أصدر بياناً مقتضباً طلب بعده أن يقابل أحد رجال الثورة فقابله البكباشى جمال عبد الناصر فى منزل الأستاذ صالح أبو رقيق الموظف بالجامعة العربية وقد بدأ المرشد حديثه مطالباً بتطبيق أحكام القرآن فى الحال فرد عليه البكباشى جمال أن هذه الثورة قامت حرباً على الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى والاستعمار البريطانى وهى بذلك ليست إلا تطبيقاً لتعاليم القرآن الكريم فانتقل المرشد بالحديث إلى تحديد الملكية وقال إن رأيه أن يكون الحد الأقصى ٥٠٠ فدان فرد عليه البكباشى جمال قائلا أن الثورة رأت التحديد بمائتى فدان فقط وهى مصممة على ذلك . فانتقل المرشد بالحديث

قائلا أنه يرى لكى تؤيد هيئة الأخوان الثورة أن يعرض عليه أن أى تصرف للثورة قبل إقراره فرد عليه البكباشي جمال قائلا بأن هذه الثورة قامت بدون وصاية أحد عليها وهى لن تقبل بحال أن توضع تحت وصاية أحد وإن كان هذا لا يمنع القائمين على الثورة من التشاور فى السياسة العامة مع كل المخلصين من أهل الرأى دون التقيد بهيئة من الهيئات ولم يلق هذا الحديث قبولا من نفس المرشد .

(٢) سارعت الثورة بعد نجاحها فى إعادة الحق إلى نصابه وكان من أول أعمالها أن أعادت التحقيق فى مقتل الشهيد حسن البنا فقبضت على المتهمين فى الوقت الذى كان فيه المرشد لا يزال فى مصيفه بالأسكندرية .

(٣) طالبت الثورة الرئيس السابق على ماهر بمجرد توليه الوزارة أن يصدر عفواً شاملا عن المعتقلين والمسجونين السياسيين وفى مقدمتهم الإخوان . وقد نفذ هذا فعلا بمجرد تولى الرئيس نجيب رياسة الوزارة .

(٤) حينما تقرر إسناد الوزارة إلى الرئيس نجيب تقرر أن يشترك فيها الإخوان المسلمين بثلاثة أعضاء على أن يكون أحدهم الأستاذ الشيخ أحمد حسن الباقورى وقد تم اتصال تليفونى بين اللواء عبد الحكيم عامر والمرشد ظهر يوم ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢م فوافق على هذا الرأى قائلا إنه سيبلغ القيادة بالإسمين الآخرين . ثم حضر الأستاذ حسن العشماوى إلى القيادة فى كوبرى القبة وأبلغ البكباشى جمال عبد الناصر أن المرشد يرشح للوزارة الأستاذ منير الدله الموظف بمجلس الدولة والأستاذ حسن العشماوى المحامى . وقد عرض هذا الترشيح على مجلس الثورة فلم يوافق عليها وطلب البكباشى جمال من الأستاذ حسن العشماوى أن يبلغ ذلك إلى المرشد ليرشح غيرهما وفى نفس الوقت اتصل البكباشى جمال بالمرشد فقال الأخير إنه سيجتمع مكتب الإرشاد فى الساعة السادسة ويرد عليه بعد الاجتماع وقد أعاد البكباشى جمال الاتصال مرة أخرى بالمرشد فرد عليه إن مكتب الإرشاد قرر عدم الإشتراك فى الوزارة فلما قال له لقد أخطرنا الشيخ الباقــورى بموافقتك وطلبنا منه أن يتقابل مع الوزراء فى الساعة السابعة لحلف اليمين أجاب بأنه يرشح

بعض أصدقاء الأخوان للاشتراك فى الوزارة ولا يوافق على ترشيح أحـــد من الأخوان وفى اليوم التالى صدر قرار من مكتب الإرشاد بفصل الشيخ الباقورى من هيئة الإخـــوان .

فاستدعى البكباشى جمال عبد الناصر الأستاذ حسن العشماوى وعاتبـــه على هذا التصرف الذى يظهر الأخوان بمظهر الممتنع عن تأييد وزارة الرئيس نجيب وهدد بنشر جميع التفاصيل التى لازمت تشكيل الوزارة فكان رد الأستاذ حسن العشماوى أن هذا النشر يحدث فرقة فى صفوف الإخوان ويسىء لموقف المرشد ورجاه عدم النشر .

(٥) عندما طلب من الأحزاب أن تقدم إخطارات عن تكوينها قدم الأخوان إخطاراً باعتبارهم حزباً سياسياً وقد نصحت الثورة رجال الإخوان بألا يترددوا فى الحزبية ويكفى أن يمارسوا دعوتهم الإسلامية بعيداً عن غبار المعارك السياسية والشهوات الحزبية وقد ترددوا بادىء الأمر ثم استجابوا وطلبوا اعتبارهم هيئة وطلبوا من البكباشى جمال عبد الناصر أن يساعدهم فى تصحيح الأخطاء فذهب إلى وزارة الداخلية حيث تقابل مع المرشد فى مكتب الأستاذ سليمان حافظ وزير الداخلية يومئذ وتم الاتفاق على أن تطلب وزارة الداخلية من الإخوان تفسيراً عما إذا كانت أهدافهم سيعمل على تحقيقها عن طريق أسباب الحكم كالانتخابات وأن يكون رد الإخوان بالنفى حتى لا ينطبق عليهم القانون .

(٦) فى صبيحة يوم صدور قرار حل الأحزاب فى يناير سنة ١٩٥٣م حضر إلى مكتب البكباشى جمال عبد الناصر الصاغ صلاح شادى والأستاذ منير الدلة وقالا له الآن وبعد حل الأحزاب لم يبق من يؤيد الثورة إلا هيئة الإخوان ولهـــذا فإنهم يجب أن يكونوا فى وضع يمكنهم من أن يردوا على كل أسباب التساؤل فلما سألهم ما هو هذا الوضع المطلـــوب أجابا بأنهم يريدون الاشتراك فى الوزارة فقال لهما إننا لسنا فى محنة وإذا كنتم تعتقدون أن هذا الظرف هو ظرف المطالب

وفرض الشروط فأنتم مخطئون فقالوا له إذا لم يوافق على هذا فإننا نطالب بتكوين لجنة من هيئة الإخوان تعرض عليها القوانين قبل صدورها للمـوافقة عليها وهذا هو سبيلنا لتأييدكم إن أردتم التأييد فقال لهم جمال : لقد قلت للمرشد سابقاً إننا لن نقبل الوصاية وإننى أكررها اليوم مرة أخرى فى عزم وإصرار وكانت هذه الحادثة هى نقطة التحول فى موقف الإخوان من الثورة وحكومة الثورة ، إذ دأب المرشد بعد هذا على إعطاء تصريحات صحفية مهاجماً فيها الثورة وحكومتها فى الصحافة الخارجية والداخلية كما كانت تصدر الأوامر شفوياً إلى هيئات الإخوان بأن يظهروا دائماً فى المناسبات التى يعقدها رجال الثورة بمظهر الخصم المتحدى .

(٧) لما علم المرشد بتكوين هيئة التحرير تقابل مع البكباشى جمال فى مبنى القيادة بكوبرى القبة وقال إنه لا لزوم لإنشاء هيئة التحرير مادام الإخوان قائمين فرد البكباشى جمال أن فى البلاد من لا يرغب فى الانضمام للاخوان وأن مجال الإصلاح متسع أمام الهيئتين فقال المرشد إننى لن أؤيد هذه الهيئة وبدأ منذ ذلك اليوم فى محاربة هيئة التحرير وإصدار أوامره بإثارة الشغب واختلاق المناسبات لإيجاد جو من الخصومة بين أبناء الوطن الواحد .

(٨) وفى شهر مايو سنة ١٩٥٣م ثبت لرجال الثورة أن هناك اتصالا بين بعض الإخوان المحيطين بالمرشد وبين الإنجليز عن طريق الدكتور محمـد سالم الموظف فى شركة النقل والهندسة وقد عرف البكباشى جمال عبد الناصر من حديثه مع الأستاذ حسن العشماوى فى هذا الخصوص أنه حدث اتصال فعلا بين الأستاذ منير الدله والأستاذ صالح أبو رقيق ممثلين عن الإخوان وبين المستر إيفانز المستشار الشرقى للسفارة البريطانية وأن هذا الحديث سيعرض حينما يتقابل البكباشى جمال والمرشد . وعندما التقى البكباشى جمال مع المرشد أظهر له استياءه من اتصال الأخوان مع الإنجليز والتحدث معهم فى القضية الوطنية الأمر الذى يدعو إلى التضارب فى القول وإظهار البلاد بمظهر الانقسام .

ولما استجوب اليوم الدكتور محمد سالم عن موضوع اتصال الإنجليز بالمرشد ومن حوله قال إن القضية تبتديء وقت أن كان وفد المباحثات العربى جالساً يتباحث رسمياً مع الجانب البريطانى . وفى إبريل سنة ١٩٥٣م اتصل به القاضى جراهام بالسفارة البريطانية وطلب منه أن يمهد مقابلة بين مستر إيفانز المستشار الشرقى للسفارة البريطانية وبعض قادة الإخوان وأنه - أى محمد سالم - أمكنه ترتيب هذه المقابلة فى منزله بالمعادى بين منير الدلة وصالح أبو رقيق عن الإخوان ومستر إيفانز عن الجانب البريطانى ، وتناول الحديث موقف الإخوان من الحكومة وتباحثوا فى تفاصيل القضية المصرية ورأى الإخوان وموقفهم من هذه القضية ثم قال الدكتور محمد سالم أنه جاء فى رأى قادة الإخوان أن عودة الإنجليز إلى القاعدة تكون بناء على رأى لجنة مشكلة من المصريين والإنجليز وأن الذى يقرر خطر الحرب هى هيئة الأمم المتحدة . ولعل هذا هو السبب فى تمسك الإنجليز بهذا الرأى الذى لم يوافق عليه الجانب المصرى للمفاوضات حتى اليوم .

ثم قال الدكتور محمد سالم أنه تلا ذلك اجتماع آخر مماثل فى منزله أيضاً حيث طلب مستر إيفانز مقابلة المرشد فوعد منير الدلة بترتيب هذا الاجتماع وفعلا تم فى منزل المرشيد ودار فى هذا الاجتماع الحديث عن القضية المصرية وموقف الإخوان منها وذكر الدكتور محمد سالم أيضاً أن المستر إيفانز دعا منير الدله وصالح أبو رقيق لتناول الشاى فى منزله وقد أجابا دعوته مرتين .

(٩) فى أوائل شهر يونيو سنة ١٩٥٣م ثبت لإدارة المخابرات أن خطة الإخوان قد تحولت لبث نشاطها داخل قوات الجيش والبوليس وكانت خطتهم فى الجيش تنقسم إلى قسمين : القسم الأول ينحصر فى عمل تنظيم سرى تابع للاخوان بين ضباط الجيش ودعوا فيما دعوا عدداً من الضباط وهم لا يعلمون أنهم من الضباط الأحرار ، فسايروهم وساروا معهم فى خططهم وكانوا يجتمعون بهم اجتماعات أسبوعية وكانوا يتحدثون فى هذه الاجتماعات عن الإعداد

لحكم الإخوان المسلمين والدعوة إلى ضم أكبر عـــدد من الضباط ليعملوا تحت إمرة الإخوان وكانوا يأخذون عليهم عهداً وقسماً أن يطيعوا ما يصدر إليهم من أوامـــر المرشد .

أما القسم الثانى فكان ينحصر نشاطـــه فى عمل تشكيلات بين ضباط البوليس وكان الغرض منها هو إخضـــاع نسبة كبيرة من ضباط البوليس لأوامر المرشد أيضاً . وكانوا يجتمعون فى اجتماعات دورية أسبوعية وينحصر حديثهم فى الحقد والكراهيـــة لرجال الثورة ورجال الجيش وبث الدعوة بين ضباط البوليس بأنهم أحق من رجـــال الجيش بالحكم نظراً لاتصالهم بالشعب . وكانوا يمنـــوهم بالترقيـــات والمناصب بعد أن يتم لهم هدفهم وكان يتزعمهم الصـــاغ صلاح شادى الذى طالما ردد فى اجتماعاته فيهم أنه وزير الداخلية المقبل .

وقسم ثالث أطلق عليه قسم الوحدات وكان الغرض منه هو جمـــع أكبر عدد من ضباط الصف فى الجيش تحت إمرة المرشد أيضاً وكانوا يجتمعون بهم فى اجتماعـــات شبه أسبوعية وكان الحـــديث يشتمل على بث الكراهيـــة للضباط فى نفوس ضباط الصف وإشعارهم أنهم هم القـــوة الحقيقية فى وحدات الجيش وأنهم إذا ما نجح الإخـــوان فى الوصول إلى الحكم فسيعاملون معاملة كريمة . كما كان هذا القسم يبث الدعوة لجمع أكبر عدد من صف ضباط وجنود البوليس ليكون تحت إمرة المرشد العـــام للاخوان .

ولما تجمعت المعلومات لإدارة المخابرات اتصل البكباشى جمـــال عبد الناصر بالأستاذ حسن العشماوى باعتباره ممثلا للمرشد وصـــارحه بموقف الإخوان العام ثم بموقف الإخوان داخل الجيش وما يدبرون فى الخفاء بين قوات الجيش والبوليس وقال له لقد أمنا لكم ولكن هذه الحوادث تظهر إنكم تدبرون أمر سيجنى على مصير البلاد ولن يستفيد منه إلا المستعمر وإنى أنـــذر إننا لن نقف مكتوفى الأيدى أمام هذه التصرفات التى يجب أن توقف إيقافـــاً كاملا يوجب أن يعلم الإخوان أن الثورة إنما أبقت عليهم بعد أن حلت جميع الأحـــزاب

لاعتقادها أن فى بقائهم مصلحة وطنية فإذا ما ظهر أن فى بقائهم ما يعرض البلاد للخطر فإننا لن نتردد فى اتخاذ ما تمليه مصلحة البلاد مهما كانت النتائـج فوعد أن يتصل بالمرشد فى هذا الأمر وخرج ولم يعد حتى الآن .

وفى اليوم التالى استدعى البكباشى جمـال عبد الناصر الأستاذ حسن حميـدة نائب المرشد والشيخ سيد سابق وأبلغهما ما قاله لحسن العشماوى فى اليـوم السابق فأظهرا الاستياء الشديد وقالا إنهما لا يعلمان شيئاً عن هـذا وأنهما سيبحثان الأمـر ويعملان على إيقاف هذا النشاط الضار . ورغم هذا التحذير وهذا الإنذار استمر العمل حثيثاً بين صفوف الجيش والبوليس وأصبح الكلام فى الاجتماعات الدوريـة يأخـذ طابع الصراحة وطابع الحقـد . فكانوا يقلبون الخطط فى هذه الاجتماعات بحثاً عن أسلم الطرق لقلب نظام الحكم . وكان الأحـرار المنبثون فى هذه التشكيلات يبلغـون أولا بأول عما يدور فى كل اجتماع .

(١٠) بعد أن تعين الأستاذ الهضيبى مرشداً للاخوان لم يأمن إلى أفراد الجهـاز السرى الذى كان موجوداً فى وقت الشهيد حسن البنا برياسة السيد عبد الرحمـن السندى فعمل على إبعاده معلنـاً أنه لا يوافق على التنظيمات السرية لأنه لا سريـة فى الدين ولكنه فى نفس الوقت بدأ فى تكوين تنظيمات سرية جديدة تدين له بالولاء والطاعة بل عمد إلى التفرقة بين أفراد النظام السرى القديم ليأخذ منهم إلى صفه أكبر عدد ليضمهم إلى جهازه السرى الجديد وفى هذه الظـروف المريبة قتل المرحـوم المهندس السيد فايـز عبد المطلب بواسطة صنـدوق من الديناميت وصل إلى منزله على أنه هدية من الحلـوى لمناسبة عيد المولـد النبـوى ، وقد قتل معـه بسبب الحادث شقيقه الصغير البالغ من العمر تسع سنوات وطفلة صغيرة كانت تسير تحت الشرفة التى انهارت نتيجة الانفجـار وكانت المعلومات ترد إلى المخابرات أن المقربين من المرشـد يسيرون سيراً سريعاً فى تكوين جهـاز سرى قـوى ويسعون فى نفس الوقت إلى التخلص من المناوئين لهم من أفراد الجهاز السرى القديم .

(١١) وكان من نتيجة ذلك أن حدث الانقسام الأخير بين الإخوان واحتل فريق منهم دار المركز العام . وقد حضر إلى منزل البكباشي جمال عبد الناصر بعد منتصف ليل ذلك اليوم الشيخ محمد فرغلى والأستاذ السعيد رمضان مطالبين بالتدخل ضد الفريق الآخر ومنع نشر الحادث ، فقال لهم جمال إنه لن يستطيع منع النشر حتى لا يؤول الحادث تأويلات ضارة بمصلحة البلاد . أما من جهة التدخل فهو لا يستطيع أن يتدخل بالقوة حتى لا تتضاعف النتائج وحتى لا يشعر الإخوان أن الثورة تنصر فريقاً على فريق وأنه يرى أن يتصالح الفريقان وأن يعملا على تصفية ما بينهما . فطلب منه الشيخ فرغلى أن يكون واسطة بين الفريقين وأن يجمعه مع الأستاذ صالح عشماوى فطلب منه جمال أن يعود فى اليوم التالى فى الساعة العاشرة وأنه سيعمل على أن يكون الأستاذ صالح موجوداً وفى الموعد المحدد حضر الشيخ فرغلى ولم يمكن الاتصال بالأستاذ صالح غشماوى وكان الشيخ فرغلى متلهفاً على وجود الأستاذ عشماوى مما دعا البكباشي جمال أن يطلب من البوليس الحربى البحث عن الأستاذ صالح وإحضاره إلى المنزل وتمكن البوليس الحربى فى الساعة الثانية عشرة من العثور على الأستاذ صالح فحضر هو والشيخ سيد سابق إلى منزل البكباشي جمال وبدأ الطرفان يتعاتبان وأخيراً اتفقا على أن تشكل لجنة يوافق على أعضائها الأستاذ صالح عشماوى للبحث فيما نسب إلى الأخوان الأربعة المفصولين على أن لا يعتبروا مفصولين وأنهم يعتبرون تحت التحقيق ، والعمل على أن يسود السلام المؤتمر الذى كان مزمعاً عقده فى دار المركز العام فى عصر ذلك اليوم ، ولكن لم ينفذ هذا الاتفاق .

(١٢) فى يوم الأحد ١٠ يناير سنة ١٩٥٤م ذهب الأستاذ حسن العشماوى العضو العامل بجماعة الأخوان المسلمين وأخو حرم منير الدلة إلى منزل المستر كروزيل الوزير المفوض بالسفارة البريطانية ببولاق الدكرور الساعة السابعة صباحاً ثم عاد لزيارته أيضاً فى نفس اليوم فى مقابلة دامت من الساعة الرابعة بعد الظهر إلى الساعة الحادية عشرة من مساء نفس اليوم وهذه الحلقة من الاتصالات بالإنجليز تكمل الحلقة الأولى التى روى تفاصيلها الدكتور محمد سالم .

(١٣) وكان آخر مظهر من مظاهر النشاط المعادى الذى قامت به جماعة الأخوان هو الاتفاق على إقامة احتفال بذكرى المنيسى وشاهين يوم ١٢ الجارى فى جامعتى القاهرة والأسكندرية فى وقت واحد وأن يعملوا جهدهم لكى يظهروا بكل قوتهم فى هذا اليوم وأن يستغلوا هذه المناسبة استغلالا سياسياً فى صالحهم ويثبتوا للمسئولين أنهم قوة وأن زمام الجامعة فى أيديهم وحدهم وفعلا تم اجتماع لهذا الغرض برئاسة عبد الحكيم عابدين حضره الأستاذ حسن دوح المحامى ومحمود أبو شلوع ومصطفى البساطى من الطلبة واتفقوا على أن يطلبوا من الطلبة الإخوان الاستعداد لمواجهة أى احتمال يطرأ على الموقف خلال المؤتمر حتى يظهروا بمظهر القوة وحتى لا يظهر فى الجامعة أى صوت آخر غير صوتهم وفى سبيل تحقيق هذا الغرض اتصلوا بالطلبة الشيوعيين رغم قلتهم وتباين وجهات النظر وعقدوا معهم اتفاقاً وديا يعمل به خلال المؤتمر .

وفى صباح ١٢ الجارى عقد المؤتمر وتكتل الإخوان فى حرم الجامعة وسيطروا على الميكروفون ووصل إلى الجامعة أفراد منظمات الشباب من طلبة المدارس الثانوية ومعهم ميكرفون مثبت على عربة للاحتفال بذكرى الشهداء فتحرش بعض الطلبة الإخوان وطلبوا إخراج ميكروفون منظمات الشباب وانتظم الحفل وألقيت كلمات من مدير الجامعة والطلبة وفجأة إذا ببعض الطلبة من الإخوان يحضرون إلى الاجتماع ومعهم نواب صفوى زعيم فدائيين اسلاميين فى إيران حاملينه على الأكتاف وصعد إلى المنصة وألقى كلمة وإذا بطلبة الإخوان يقابلونه بهتافهم التقليدى الله أكبر ولله الحمد . . وهنا هتف طلبة منظمات الشباب « الله أكبر والعزة لمصر » فساء طلبة الإخوان أن يظهر صوت فى الجامعة مع صوتهم فهاجموا الهاتفين بالكرابيج والعصى وقلبوا عربة الميكروفون وأحرقوها وأصيب البعض باصابات مختلفة ثم تفرق الجميع إلى منازلهم .

حدث كل هذا فى الظلام وظن المرشد وأعوانه أن المسئولين غافلون عن أمرهم لذلك فنحن نعلن باسم هذه الثورة التى تحمل أمانة أهداف هذا الشعب أن مرشد

الإخوان ومن حوله قد وجهوا نشاط هذه الهيئة توجيهاً يضر بكيان الوطن ويعتدى على حرية الدين . ولن تسمح الثورة أن تتكرر فى مصر مأساة رجعية باسم الدين ولن تسمح لأحد أن يتلاعب بمصائر هذا البلد لشهوات خاصة مهما كانت دعواه ولا أن يستغل الدين فى خدمة الأغراض والشهوات وستكون اجراءات الثورة حاسمة وفى ضوء النهار وأمام المصريين جميعاً والله ولى التوفيق .

« مجلس قيـــادة الثورة »

ولم يكن هناك ما أعلق به على هذا البيان لأن السجن الانفرادى بدون تحقيق لا يسمح للفرد أن يناقش أمر يتهم به زوراً . . وحين حقق معى فى اليوم التالى فى شأن الأسلحة التى كنت أحتفظ بها لعبد الناصر ، لم أجد ما أرد به إلا الإحالة عليه ، رافضاً أن أفضى بأية معلومات أخرى .

ولقيت صلاح مرة فى السجن فسألته أكنت تضع يدك فى يد جمال لو أنك تعلم ما سيجرى بعد ذلك ، فأجاب ببساطة وهدوء لو أن الأمور عادت اليوم ثانية لوضعت يدى فى يده . . فقد قام وسيقوم بخطوات فى مصلحة الحركة الكبرى للأمة وإن أخطأ فى بعضها . . وإن كنا نحن المنادين بها من قديم أولى ضحاياها ، لم أفهم هذا الكلام فى البداية ولكن الأحداث كشفت لى عن مضمونه .

احجزوا لى غرفة فى السجن

لم ينقض يومان على قراءتى قرار حل الإخوان وبيان مجلس الثورة ، حتى استدعانى ضابط وقادنى تحت الحراسة إلى مكتب مدير السجن حيث وجدت أحد زملائى وكلاء النيابة العامة جالساً مجلس المحقق وبدأ بسؤالى عن اسمى وسنى ومهنتى دون توجيه يبين مما يشير إلى كونى متهما ثم وجه إلى أول سؤال فى التحقيق :

— هل تملك مزرعة فى مديرية الشرقية ؟

وتجلى فى ذهنى بوضوح ما وراء هذا السؤال وأيقنت أن عبد الناصر الذى أباح لنفسه أن يقول فى قرار الحل ماقال — ينوى أن يؤاخذنى بالأسلحة الموجودة فى مزرعة أهلى والتى أنقذت باخفائها رقبته وزملاءه بعد حريق القاهرة والتى عرضت عليه أكثر من مرة أن يستردها فكان يبدى اطمئنانه إلى وجودها عندى للحاجة وفهمت عند سماع سؤال المحقق لماذا كان يسألنى عن مكان مزرعتى كل من يستلمنى من ضباط المباحث والمخابرات العسكرية بعد أن سلمت نفسى منذ ثلاثة أيام مضت ولم أكن أدرى بعد أن التمثيلية قد تم إخراجها وأن الجرائد نشرت فى الصباح خبر ضبط ترسانة أسلحة ومتفجرات فى مزرعتى تكفى لإحراق القاهرة .

وأجبت على السؤال بما معنـــاه :

— لا . . أنا لا أملك مزرعة على الإطـــلاق ولكن لعائلتى مزرعـــة فى الإبراهيميـــة مركز ههيا مديرية الشرقيـــة . وبالمناسبة قد خبأت فيها بغير علم من أهلى أو سكانها كميـــة كبيرة من الأسلحة والذخـــائر والمتفجرات مملوكة للبكباشى جمـــال عبد الناصر ولست على استعداد لبيان مكانها أو الظروف التى تسلمتها فيها إلا إذا أذن هو شخصياً بذلك .

ولم يكن بعد ذلك مجال لسؤال أو جواب وعدت إلى زنزانتى ورجع المحقق بالتحقيق الذى علمت أنه أرسل إلى مجلس الوزراء ثم صـــدر قرار من النائب العام بحفظه وأعلن عبد الناصر أن للسلاح الذى ضبط بمزرعتى وضعاً خاصاً فلن تطبـــق عليه قوانين العقاب ومع ذلك حوكمت بعد سنة بتهمـــة إحراز هذه الأسلحة ولعلها التهمة الوحيدة التى صدر على حكم الإدانة من أجلها .

وكان هـــذا التحقيق الموجز فرصة للإذن لى بورق وقلم وكتب بدعوى الاستعانة بها على تحضير دفاعى واستفدت من الكتب لأقطع بها الساعات الطـــوال فى أيام متعاقبة ولكنى لم أحاول أن أحضر أى دفاع ولاشك أن قصـــة السلاح وكانت معـــروفة بين كثير من الضبـــاط جعلت لى بينهم مكانة معينـــة فحاولوا معاملتى على أحسن صورة اعتذاراً منهم على ما بـــدر من رئيسهم نحوى .

ومرت الأيام . . ولا أحد يسألنا ، ولا أحـــد يحقق معنا . ولا يعكر صفونا شىء إلا الشعور بأننا سجناء . ولكن أحـــد ضباط السجن لم يعـــدم وسيلة يوماً لإظهـــار بطشه حين جرت يوماً مناقشة بينه وبين أحد الإخوان فغضب وأصدر أمره باغلاق الأبـــواب علينا وأوقف حرســـا بالسلاح والذخيرة الحيـــة ليشرف على ذهابنا إلى دورة الميـــاه خمس دقائق كل أربع وعشرين ساعـــه . . ولكن هـــذا التكدير (كما يسمونه فى السجـــن) لم يستمر أكثر من يومين .

ورؤى أن ينقل بعضنا إلى السجن رقم ١ بجـــوار الإدارة واختير لذلك مجمـــوعة مع المرشد العام ، وكنت أنا منهم وكانت زنزانتى رقم ١٣ . وكانت فرصـــة رأيت فيها الكثير من الضبـــاط الساخطين على عبد الناصر ومن حوله ، جاءوا لزيارتى والاتفـــاق معى على عمـــل ضده ولم أكن من الغفلـــة بحيث أعطيهم إسما واحداً خارج السجن ليتصلوا به . إننى لا أدرى إلى الآن إن كان هؤلاء الذين اتصلوا بى مخلصين فى خلافهم مع عبد الناصر أم عاملـــين لحسابه . ولكنى أعلم أن أغلبهم لا يزال يشغـــل مناصب حساسة فى حكم عبد الناصر ولذلك حبست نفسى عن ذكر أسمائهم حماية لهم ومن يدرى لعلهم لا يزالون

ينتظرون الفرصة للاطاحة به وبحكمه أو ربما كانـوا من أخلص أعـوانه حاولوا استدراجي لحسابـه . . وأيا كانوا فقد خرجوا بلا شيء :

وفى فبراير ، نحى مجلس الثورة رئيسه اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء ثم إعادته رئيسـاً للجمهورية فقط . ولا يستطيع مثلى ممن كان داخل السجن أن يصور ما حدث . . سخط الضباط وسخط الشعب وحيلـة عبد الناصر التى انطلت على خالـد محي الدين . . ومظاهرات ميدان عابدين التى لم يهدئها غير عبد القـادر عـودة وكيل الإخوان الذى كان خارج السجن وقتئـذ . ذكاء عبد الناصر وسذاجـة خصومه المناورة التى انتهت ببيان إطلاق حـرية الصحافة وعـودة الحياة النيابية قريباً .

ولكننا برغم جدران السجن وحراسه كنا نحس أن شيئـاً غير عادى يجـرى وكان من يلقـانى من الضباط يروى لى جانباً مما يجرى من وجهـة نظره هو بطبيعة الحـال .

وفى هذه الأثناء فى مارس سنة ١٩٥٤م وجه المرشد العـام من داخل السجن رسالتـه إلى الرئيس محمـد نجيب قال له فيها :

أما بعـد ، فإن مجلس قيادة الثورة قد أصدر قراراً فى ١٢ يناير سنة ١٩٥٤م بأنه يجرى على جماعة الإخوان المسلمين قانون حل الأحزاب السياسية ومع ما فى هـذا القـرار من مخالفة لمنطوق القانون ومفهومه . فقد صدر بيان نسبت إلينـا فيه أفحش الوقائـع وأكثرها اجتراء على الحق واعتقلنا ولم نخبر بأمر الاعتقـال ولا بأسبابه وقيل يومئذ أن التحقيق فى الوقائع التى ذكرت به سيجرى علنـاً فاستبشرنا بهـذا القول لأننـا انتظرنا أن تتاح لنا فرصة الـرد عليه لنبين أن ما اشتمل عليه كله وعلى الصورة التى جاءت به لا حقيقة له . فيعرف كل إنسان قدره ويقف عند حده . ولكن ذلك لم يحصل .

وإلى أن تتاح لنا الفرصة إننا ندعوكم وندعو كل من اتهمنـا وندعو أنفسنا إلى ما أمر الله تعالى به رسوله عليه الصلاة والسلام حين قال : فقل تعالـوا

نـــدع أبنائنا وأبناءكم ونسائنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .

وقد استمرت حركة الاعتقالات طوال شهرين كاملين ، حتى امتلأت المعتقلات والسجون بطائفة من أطهر رجالات البلد وشبابها بلغـــوا عدة آلاف لكثير منهم مواقف فى الدفـــاع عن البلاد وعن حرياتهـــا شهـــد بها الأعـــداء قبل الأصدقاء وجاهـــدوا بأموالهم وأنفسهم ولم يكتفوا بالكلام كما يفعل كثير من الناس . أما كيفية الاعتقال ومعاملة المعتقلـــين فلن نعـــرض لها هنـــا .

وقد بدت فى مصر بوادر حركة — إن صحت — فقد تغير من شئونهـــا وأنظمتها وقرار حل الإخوان وإن أنزل اللافتات عن دورهم فإنـــه لم يغير الحقيقـــة الواقعـــة وهى أن الإخوان المسلمين لا يمكن حلهم لأن الرابطة التى تربط بينهم هى الاعتصام بحبل الله المتين وهى أقوى من كل قـــوة ولا زالت هذه الرابطة قائمة ولن تزال كذلك بإذن الله ومصر ليست ملكاً لفئة معينـــة ولا حق لأحد أن يفرض وصايته عليها ولا أن يتصرف فى شئونهـــا دون الرجـــوع إليها أو النزول على إرادتها لذلك كان من أوجب الواجبات على الإخـــوان المسلمين أن يذكروكم بأنه لا يمكن أن يبت فى شئون البلاد فى غيبتهم وكل ما يحصل من هـــذا القبيـــل لن يكون له أثر فى استقرار الأحـــوال ولا يفيد البـــلاد بشىء .

وإن ما دعوتم إليه من الاتحـــاد وجمـــع الصفوف لا يتفق وهذه الأحوال فإن البلاد لا يمكن أن تتحد وتجمع صفوفهـــا وهذه المظالم وأمثالهـــا قائمة .

نسأل الله تعـــالى أن يقى البلاد كل سوء وأن يسلك بنا سبيـــل الصـــدق فى القـــول والعمـــل وأن يهدينا إلى الحق وإلى الصراط المستقيم .

والسلام عليكم ورحمـــة الله وبركاتـــه

حسن الهضيبى

المرشد العـــام للاخوان المسلمين

وسلمت الرسالة بنفسى إلى أركان حـرب السجن الحـربى ، وأبلغنى أنه أرسلها فى ذات اليوم . . وخرجت نسخة من الرسالـة إلى جـريدة المصرى ، فصدرت فى يوم ١٦ مارس سنة ١٩٥٤م تحمل نص الرسالة وكانت مفاجأة لرجـال السجن لم نعدم بسببها حبسـاً انفراديـاً طويلا وحرماناً من الخـروج حتى إلى دورات المياه ولكن كفـانا أن هـذه الرسالة وخروجهـا إلى الصحافة كان له أثر فعال فى كل الإخـوان فقد أعادت إليهم ثقتهم فى سلامة موقفهم وصلابـة مرشدهم فى الحق .

اجتماعات بلا قرارات ...!!

لم يمنعني هربي في البداية من التردد على دار الاخوان المسلمين وعلى بيوت بعض أصدقائي وان تجنبت بيوت أقاربي وكنا قد استأجرنا فور خروجنا من السجن الحربي في نهاية مارس سنة ١٩٥٤ منزلا بمصر الجديدة باسم مستعار فلجأت إليه مع بعض زملائي الذين اضطرتهم ظروفهم للاختفاء . وبعد أيام قلائل لحق بنا الأستاذ حسن الهضيبي حين هوجم بيته ليلا في غيبته ، وتأكد له — ولنا — أمر أصدر بالقبض عليه هو أيضا وكان أمر القبض عليه نتيجة اجتماع عام عقده في المركز العام للاخوان ورد فيه على اتهامات جمال عبد الناصر مع أن الأستاذ الهضيبي كان رقيقا في رده إلى حد بعيد أثار بعض النفوس المتحمسة .

وتركنا بيت مصر الجديدة للأستاذ الهضيبي وعائلته التي لحقت به ، ونزلنا بيتا مؤقتا في حي آخر حتى استأجرنا منزلا قريبا من منزل الأستاذ الهضيبي أقمنا فيه وتزايد عدد المقبوض عليهم .. وتزايد عدد الهاربين .. واضطربت نفوس زملائنا .

بقيت في القاهرة — على صلة بالأستاذ الهضيبي وببعض الزملاء أكثر من عشرين يوما وقد اتخذت مسكنا استأجره لي صديق تحت اسم مستعار .. أو هكذا ظن هو مع أنه كتب العقد باسمي الكامل في دفاتر الدولة وذكر مهنتي ومحل عملي الحقيقين كل ما في الأمر حذف اللقب وحده — حسن جمال الدين محمد المحامي .. ومع ذلك لم يكشف البوليس أمر هذا المنزل حتى نهاية مدة العقد .. وفي هذا المنزل كنت أقيم مع عائلتي وزوجتي وأطفالي الذين اضطررت إلى تهريبهم من منزلي ليعيشوا معي هاربين .

وفي الفترة التي قضيناها في القاهرة اجتمع الأستاذ الهضيبي مع زملائه أعضاء مكتب الارشاد مرتين فضلا عن اجتماعات تكميلية تمت مع من أراد هذا الاجتماع بهم من الأعضاء ولن يستطيع أحد أن يتخيل ما في هذه الاجتماعات من مشقة وارهاق للأعصاب إلا من جرب يوما أن يعمل متخفيا عن عين دولة أشهد هذه

المرة أنها ساهرة ليل نهار ترقب كل ما يدور فى القاهرة كما كان عسيرا أن تحضر أشخاصا لاتثق فى كتمانهم أوفى حسن تصرفهم وتقديرهم وعليك أن تخفى عنهم وجهة سيرك دون أن تأمرهم أن يغمضوا عيونهم أو يعصبوها بل دون أن تثير فى نفوسهم أى شك ؟

كان الأستاذ الهضيبي فى المرتين يحدد لنا الموعد فى الليلة السابقة مباشرة على الاجتماع تاركا لنا تحديد مكانه وعلينا أن لانخبر أحدا بمكان الاجتماع أو زمانه إلا قبله بدقائق والواقع أننا أنفسنا يامن كنا نقوم بتنظيم الاجتماع لم نكن نستطيع أن نعلم مكانه تحديدا إلا قبله بساعات قلائل لأنناكنا ننتهز الفرص لنعثر على مكان مناسب يتم فيه الاجتماع ثم نعتبر هذا المكان بعد ذلك منطقة مكشوفة محرمة علينا لايجوز بعد ذلك أن نرتادها وكنا نجمع الأعضاء فى مكان الاجتماع أولا ، ثم ننقل الأستاذ الهضيبي — تحت العيون التى لاتغفل من مكان سكناه إلى مقر الاجتماع — ونرجع به قبل أن يغادر المكان غيره .

أعصاب مشدودة ويقظة دائمة .. وقلق مستمر ، كل هذا يجب أن نطوى عليه قلوبنا لنظهر أمام الناس — وأمام زملائنا المجتمعين — هادئين مطمئنين .. فإذا فرغ أحدنا من ذلك بعد يوم أو أكثر وعاد إلى مسكنه لعله يهدأ أو يسترخي طارده شعور الهارب الذى لايعرف هدوءا ولا أمنا ؟

وفى هذين الاجتماعين اللذين عقدهما مكتب الارشاد تداول المجتمعون فى أمور منها اختفاء رئيسهم وسياسة الجماعة وا لمعارضة كلها من الحكومة القائمة والموقف من جهة الاعتقالات التى استشرت فى صفوف الاخوان حتى جاوز عدد المعتقلين فى أول سبتمبر سنة ١٩٥٢ الخمسمائة شخص والناس لايعلمون ثم بحثوا ما يمكن أن يقوموا به من أعمال لإجبار الحكومة على إشراك الشعب فى رسم السياسة وتوجيهها وتسليم مقاليد الأمور إلى من يختاره الشعب من حكام .

وكان موقف الأستاذ الهضيبي من التساؤل عن سبب اختفائه واضحا لالف فيه ولاغموض فهو قد اختفى لأن الحكومة جادة فى اعتقاله برغم أنها تنكر ذلك فى الجرائد كل صباح وهو يؤثر أن لايعتقل الآن خشية أن يثير اعتقاله

حماس شباب يرتكب حماقة لايرضاها .. هذا من ناحية .. ومن ناحية أخرى فإنه حتى لو ظهر يريد أن يعتزل الموقف لأنه يعلم يقينا أن الحكومة لاترغب فى التفاهم معه ، وهويريد — برغم رأيه الخاص — أن يترك ميدان التفاهم حتى لايكون عقبة فى تحقيق رغبة قد يتفق زملاؤه عليها فى غير وجوده وقد أقره المكتب على الاختفاء — ورفض فكرة اعتزاله أو التفاهم مع الحكومة — ولم يعترض على اختفائه غير عضوين أدليا برأيهما المخالف صراحة وخلاصته أن اختفاء رئيس الجماعة يوحى ولو خطأ بأن ورائه تدبيرا عنيفا وهذا ظن فيه خطر لامبرر له . ورأى هذا العضوان أن الأستاذ الهضيبى يجب أن يعود إلى المركز العام للجماعة ولو عقب انعقاد الجمعية التأسيسية الجديدة التى يرجى أن تكون أكثر انسجاما وتوحدا فى الفهم والاتجاه .. وقد كان رأيهما محل اعتبار ووعد الأستاذ الهضيبى بتنفيذه .

أما موجة الاعتقالات المتزايدة ، والتى لم يكن قد نشر عنها شئ إطلاقا فقد كانت فى الواقع سبب فزع للأعضاء حين ناقشوها ، ولكن سبب الفزع لم يكن واحدا فقد كان البعض يخشى ما ينجم عن اتساع نطاق الاعتقالات من سخط قد يدعو بعض الاخوان إلى التصرف منفردا بما يضر مصالح الأمة ويشوه استقامة فكرة المعارضة فى حين كان يفزع البعض الآخر — للأسف — بصورة أن تعلو موجة الاعتقالات حتى تدركه فى مأمنه ... وبعد المناقشة الهادئة وبعد أن علم المكتب أن أغلب الأفراد يرفضون تسليم أنفسهم والعودة إلى السجون بغير ذنب . بعد ذلك لم يستطيع المكتب أن يتخذ قرارا ، فترك لكل فرد أن يواجه الاعتقال بالتسليم أو الاختفاء وأبلغ كل من اختار الاختفاء وجوب عدم الاقدام على أى عمل فردى شاذ نعلم سلفاً أنه غير مأمون العواقب .

وحين نوقشت مسألة الموقف من الحكومة عموما . وما يمكن أن نقوم به وحدنا ومتعاونين مع غيرنا من أعمال لتغيير الوضع القائم ومنع استمرار الحكم العسكرى المفروض على شعب مصر حين نوقشت هذه المواضيع كان من المحزن حقا أن ينطوى على [illegible] كل من يرى مهادنة الحكومة إيثارا للسلامة أو عن اقتناع أصحاب

هذا الرأى على أنفسهم فلم يجهروا برأيهم فى الاجتماعات الرسمية وان قالوه فى أحاديثهم مع الأفراد فى الخارج .. ولذلك ظلت صور المقاومة هي وحدها مدار المناقشة .

ومن الإنصاف اليوم أن أقول أن واحدا من أعضاء المكتب أو من الاخوان المسئولين عن التنفيذ لم يقترح القيام بعمل فردى عنيف حتى أن الإجراء العنيف الوحيد الذى عرضه أحدهم هو اختطاف بعض رجال البوليس الحربى والمباحث العامة وأخذهم كرهائن مقابل من اعتقل من الاخوان ... فهذا الاجراء يشل حركة الدولة ويسقط هيبتها ويجعل زملاء الرهائن أكرم معاملة للمعتقلين منا وأكثر تحرزاً فى تنفيذ أوامر القبض بالجملة وقد أقر هذا الرأى أول الأمر وأعدت له وسائل تنفيذه ثم أرجى بعض الوقت ثم منع دوران عجلة الحوادث بعد ذلك العودة إليه .

ولعل أوضح ما عرض فى تلك الأيام من آراء رأى بالقيام باعتصام سلمى يضم الاخوان وغيرهم من أفراد الشعب ومن رجال السياسة معهم من نسائهم وأطفالهم من يشاء يرابطون جميعا أمام قصر الجمهورية (قصر عابدين) حتى تنزل الحكومة عند رأيهم أو تبيدهم بالرصاص وعندئذ سيعلم الناس ويعلم العالم أجمع حقيقة الحكم فى مصر وإن كان المؤكد أن الجيش سيعصى أمر إطلاق النار على قوم عزل سالمين وعصيان الجيش أول مراحل الثورة الشعبية الموفقة وبهذا ستنطلق الشرارة التى تحرق النظـام الظالم القائم . . . وبرغم مابدأ على صاحب هذا الإقتراح من حماس فى عرض فكرته التى فكر فيها طويلا فإن حماسه لم يلق من أغلبية زملائه أذناً صاغية وإن كان من أوحى اقتراحه بالفكرة التى استقر عليها الرأى فيما بعد متأخراً .

وإنى اليوم – فى وحدتى مع تأملاتى – أتمنى لو أن المكتب اتفق على هذا الرأى أو على أى رأى آخر ، بدلا من أن يخرج من اجتماعاته دون قرار واضح فى هذه المسألة بالذات وهى أخطر المسائل . . كل ماعداها فرع لها ولكن يبدوا أن أعضاء المكتب لم يكن لديهم من الشجاعة ما يواجهون به نقطة الفصل فى الأمور

أولعله ليس لديهم من الثقة فى سائر اخوانهم مايمكنهم من إصدار قرار جرىء وعلى أى حال ، فإن الطاقة الثورية عند أغلبهم كانت لم تزل طاقة صبر على الظالم لا طاقة مبادأة لإنهاء الظالم .

وكان سكوت المجتمعين فى المرتين عن إصدار قرار شيئاً مؤلماً للنفس حقاً داعيا إلى الأسف والسخط وسوء الظن . أحسست بذلك ولكننى لم أيأس . . . ويئس غيرى فأسلم نفسه للدولة فأودع السجن معتقلا فتها . . . فحكوماً عليه بالأشغال الشاقة دون أن يرتكب شيئاً . وإنى لازلت أذكر أولئك الذين أيأسهم الأسف والسخط وسوء الظن فاستسلموا فأحزن عليهم أشد الحزن ولكن الحزن لم يفقدنى الأمل فى نجاتهم يوماً قريباً .

وبينما نحن فى هذه الدوامة التى لا ترحم أعصابنا إذ قام شك لدينا بأن المنزل الذى يقيم فيه الأستاذ الهضيبى قد كشف أمره وعرف من جانب الحكومة أو أنه أصبح على الأقل موضوع مراقبة وقد تكشف أمره . وعند قيام أول بادرة شك يجب علينا أن لاننتظر لنتحقق .

كان المنزل الذى يقيم فيه رئيس الجماعة هو الدور الأرضى فى إحدى العمارات الكبيرة فى مصر الجديدة وبينما كان أحد زملائنا يغادر باب المسكن يوماً ، إذ لمح ضابطا من السلم فرفع نظره ليتبينه فإذا به أحد ضباط المخابرات الحربية وأحد المسئولين شخصياً عن القبض علينا . فارتد زميلنا لفوره إلى داخل المسكن كمن نسى شيئاً وعاد ليحضره . . ثم خرج بعد قليل دون أن يشعر أحداً فى المسكن بما رأى وفى حديث عابر مع بواب العمارة عرف صلة الضابط بالمنزل أنه استأجر منذ أول شهر سبتمبر الشقة التى تعلونا مباشرة وهكذا شاءت الصدف أن يعيش الصائد فوق مخبأ صيده وكلاهما لايدرى . . . !

وجاء زميلنا يقص علينا ما رأى وما عرف .

ولم يمض وقت حتى جاء آخر . . جاء يروى لنا أنه كان يمر — منذ ساعات قلائل أمام منزل الأستاذ الهضيبى ليراقب الحالة كما يفعل كل يوم فإذا به قد تبين رجل استشعر أنه من رجال البوليس السرى . فظل يراوغه حتى فر منه وجاءنا

وهو لا يدرى أن كان يتبعه من عند البيت أم قبل ذلك ، ولكنه يشك فى الأمر ويرجونا أن نضع شكه موضع الاعتبار .

وهكذا اجتمع لدينا موجبان للشك ، فلم نضيع وقتاً فى أى منهما بل عزمنا على نقل رئيس الجماعة من مكانه، ولكن إلى أين . . ؟ هذه هى المشكلة فاننا أحسسنا بغير سبب أن بيوتنا هى الأخرى محل شك . والشكوك إن بدأت تراود النفس تضخمت وشملت كل ما حولنا .

وخرجت وحدى أهيم على وجهى مكلفاً بأن أبحث عن منزل أستأجره خلال ساعات وهنا تدخل القدر ليهيىء لنا ــ وحده دون اجتهاد منا ــ مسكناً آخر .

زرت صديقاً أعرف أن لأحد أقاربه عمارة قيل لى أن فيها بعض مساكن خالية وإذا بالصديق قد حزم حقائبه استعداداً لسفر بعد ساعة إلى خارج القطر حيث يقضى عدة شهور . وصديقى لا تربطه بالسياسة صلة ولكنه رآنى مضطرباً ولم أخف عنه أننى هارب فإذا به يترك لى مفتاح مسكنه لاختفى فيه ما شئت من وقت فترة غيابه ثم أترك المفتاح فى صندوق البريد وكانت أعجب مصادفة فبيته أبعد ما يمكن عن الشبهات ولم أر مبرراً لأن أطلعه على شخصية من سيقيم فى منزله بعد سفره .

وما أن غابت الشمس حتى كنا عند الأستاذ الهضيبى نطلب منه أن يغادر معنا المنزل فوراً لأنه موضع شك وسارت بنا السيارة فى شوارع القاهرة من أقصى حى مصر الجديدة إلى حى آخر بعيد .. وكلنا تصور له الأوهام أن كل عابر فى الطريق ينظر إلينا ، حتى دخلنا منزل الصديق فتنفست الصعداء وانى لا زلت أتصور فرحة صاحبى حين رأى ما بدا على وجهى من علامات الارتياح حين أعطانى مفتاح شقته وأرجو أن يكون قد عاد من سفره ليجد مفتاح الشقة حيث طلب منى أن أضعه .

وفى هذا المنزل الصغير المعتم بنوافذه التى لم تفتح عدة أيام بقى الأستاذ الهضيبى ومعه بعض الزملاء حتى غادره بعد أيام إلى الاسكندرية .

وآن لإقامتى فى القاهرة أن تنتهى فسافرت صباح اليوم التالى قبيل منتصف سبتمبر إلى الاسكندرية لأستأجر هناك بيتاً أقيم فيه مع عائلتى على أن يكون من الاتساع بحيث يصلح لإقامة الاستاذ الهضيبى وأسرته معنا إذا شاء ذلك .

الدكتور صبري في الإسكندرية ..

سافرنا إلى الاسكندرية يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٩٥٤م ثلاثة أشخاص وانضم إلينا هناك رابع .. ورحنا نبحث عن منزلين، وجدنا واحداً بالمندرة لأحد إخواننا ووجدنا ثانياً لى فى سموحة . وفى هذا المنزل الأخير بشارع سانت جينى قابلتنا سيدة أجنبية هى صاحبة البيت وسألتنا :

ــ من المستأجر ؟

فأشار إلى صاحبنا الرابع قائلا :

ــ الدكتور حسن

وقاطعته خشية أن يذكر اسمى كاملا ، فقدمت نفسي بقولى :

حسن صبرى .

وهكذا استؤجر المنزل باسم « الدكتور حسن صبرى » كان فيلا من دور واحد بها ست غرف وصالة وجراج وحديقة . . . وبعد يومين كنت أقيم فيه مع عائلتى ثم لحق بنا الهضيبى ثم أسرته . . وقام معنا اثنان من الأخوان أحدهم كمرافق للمرشد والآخر كان يقوم بدور البواب فأحسن أداء دوره إلى حد أن البوليس حين قبض عليه فى المنزل أطلق سراحه ولم يشتبه فيه وبدأت ــ فى النصف الثانى من شهر سبتمبر ــ حياتنا الجديدة فى الاسكندرية مختبئين عن الدولة وعن أغلب اخواننا . . وفى هذا البيت ظل الاستاذ الهضيبى مقيماً حتى قبض عليه فيه بعد شهر ونصف شهر .

وقد قلت اجتماعات الأستاذ الهضيبى بالأعضاء إلى حد بعيد أثناء اقامتنا بالاسكندرية ولكنها لم تنقطع فقد تم عدد من الاجتماعات مع بعض الأفراد كل على حدة وفى هذه الأثناء أقرت الهيئة التأسيسية القانون الجديد للاخوان فأنهت أعمالها ودعت إلى انتخابات جديدة فى الجماعة . وأجريت الانتخابات وأبلغت لنا نتيجتها

فى الاسكندرية يوم السبت ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٥٤م وحدد يوم الخميس التالى ٢٩ أكتوبر لانعقاد الهيئة التأسيسية الجديدة التى سيحضرها الأستاذ الهضيبى شخصياً على أن تخرج الهيئة بعد الاجتماع . ومع أفراد الجماعة — فى مظاهرة سلمية يحميها بعض الأفراد المسلحين . ويسير فى المظاهرة بعض كبار الساسة فى الأمة وكنا على اتفاق معهم فى ذلك وكان المفروض أن هذه المظاهرة بما يحميها من أفراد مسلحين — ستكون نقطة الانطلاق تسعى لإسقاط الدكتاتورية العسكرية ولتسليم مقاليد الحكم لحكومة مؤقتة تجرى انتخابات عامة . . وكان كل منا يعرف دوره فى هذه المظاهرة ولكن الأحـــداث سبقت هذا التقدير الذى رسمناه .

وكان أخطر ما حصلنا عليه فى هذه الفترة هو ذلك التقرير السرى الذى أعدته إدارتا المخابرات الحربية والمباحث العامة بالاستعانة ببعض الضباط القدامى فى البوليس السياسى ورفعوه إلى رئيس الحكومة ووزير الداخلية وضمنوه الأسلوب الذى يرون اتباعه مع جماعة الأخوان المسلمين وقد استطعنا أن نحصل على صورة رسمية لهذا التقرير السرى بما عليه من توقيعات ولكن هل استطعنا أن نستفيد منه فى رسم سياستنا وتوجيه تصرفاتنا والتعجيل باتخاذ ما نرى من إجراءات . . ؟ لا أظن ذلك .

يبدأ التقرير — كالمعتاد — فى كل تقرير يتحدث عن الأخوان باستعراض الحوادث القديمة التى نسبت إلى بعض أفراد الجماعة . وأشهد هذه المرة بأنه يكاد أن يكون التقرير الوحيد الذى لم ينسب إلى الاخوان واقعة لم يفعلوها .

ثم يوضح التقرير استنتاجاته من قضايا سيارة الجيب والأوكار (وهى قضايا قديمة اتهم فيها بعض الأخوان بمحاولة قلب نظام الحكم عام ١٩٤٨م) . .

وينتهى إلى القول بأن وجه الخطر فى هذه الجماعة — فضلا عن تنظيماتها — ايمان عدد كبير من اعضائها بأنهم على حق فى مقاومة كل حكم لا يقوم على الإسلام

كما يفهمون هم . الأمر الذى يجعل من العسير التأثير فيهم بوسائل الفصل من الوظائف والسجن المحدود المدة لأنهم يعتبرون كل هذه المتاعب إيذاء فى سبيل الله سيزول قريباً ولهم عليه أجر .. وعلى ذلك فالأمر يحتاج ــ فى نظر أصحاب التقرير ــ إلى اجراء أكثر صرامة وقسوة لا تراعى فيه القوانين ولا مبادىء العدالة فى المحاكمات . . ولو احتاج الأمر إلى افتعال الوقائع ونسبها إلى أفراد من الأخوان . .

ويقترح أصحاب التقرير ــ على سبيل التفصيل ــ أن يعتقل عدد كبير جداً من أعضاء جماعة الأخوان لمدد طويلة جداً . أو أن تقام لهم محاكمات سريعة يقضى عليهم فيها بالسجن مدداً طويلة ومدى الحياة بغض النظر عن حقيقة التهم المنسوبة إليهم وعن ثبوتها أو عدم ثبوتها طبقا لاجراءات المحاكمات العادية فيكفى للادانة مثلا أن تقول تحريات البوليس ولو دون دليل أن الفرد المطلوب محاكمته يعتبر خطراً على الأمن لأنه يؤمن بصلاحية فكرة الأخوان المسلمين . ثم يوضع هؤلاء المعتقلون ــ أو المحكوم عليهم ــ فى سجون خاصة أو معسكرات دائمة للاعتقال وتسد أمامهم أبواب الأمل فى الإفراج عنهم مما يترتب عليه ضيق أهلهم ثم ضيقهم بهذه الحال . هكذا تنزع من رؤوسهم أفكارهم الخاطئة . . وإلا فهم باقون إلى الموت . . أى ــ بعبارة أخرى ــ أن الإبادة هى الوسيلة الوحيدة لاتقاء خطر هذه الجماعة وأفـــرادها . .

وتكلم التقرير عن الاسلوب المعنوى فأوحى بتلقين من سيفرج عنهم قواعد تتلاءم مع الحكم القائم وبمحاولة تحطيم قيمة القيادة فى الجماعة وتأويل تصرفاتهم مما يفيد فى براءة الأعضاء من ضلال أتباعهم وأوصى بأن من يفرج عنه يجب أن يوضع تحت رقابة شديدة وأن يمنح بعض الامتيازات المادية التى تحبب له حياة التلاءم مع الحكومة وتدفع غيرهم على محاكاتهم .

وكان هذا التقرير ــ الواقع فى تسع صفحات ــ مؤرخاً يوم ١١ ــ ٨ ــ ١٩٤٥ أى قبل أن ينسب إلى واحد من الأخوان أى تصرف يمكن أن تعتبره الحكومة مخالفاً للقانون وفى ذات الوقت الذى كان يؤكد فيه جمـــال عبد الناصر لنا أن لا ضرر من عودتنا إلى الوطن الذى كنا بعيدين عنه وقتذاك .

ويبدو أن جمال عبد الناصر وزملاءه اقتنعوا بفكرة هذا التقرير وتبنوه كما وضح هذا التلفيق فى التهم ومن تلك المحاكمات الصورية السريعة والأحكام الطويلة الأمد التى صدرت بغض النظر عن حقيقة التهم المنسوبة إلى المتهمين وهذا التعذيب الذى كان مبعثه الرغبة فى الإيذاء لا الحصول على دليل فضلا عن حرص الحكومة على إثارة الشك حول تصرف كل ذى مسئولية فى الجماعة ورشوة من يخرج عن وحدتها إلى حين ، ثم امتهان كرامته بعد ذلك .

وفى يوم من الأيام الأولى من أكتوبر سنة ١٩٥٤ سلمنا المرشد — كالمعتاد — توجيهاته مكتوبة لتوصيلها إلى القاهرة وكانت خطاباً مغلقاً طلب تسليمه للمرحوم عبد القادر عودة شخصياً وعلى انفراد وحين سلم إليه الخطاب وفتحه أمامنا تبين انه يحوى استقالة الأستاذ الهضيبى من الإرشاد العام والاكتفاء ببقائه عضواً فى الهيئة وكان مع الاستقالة رسالة خاصة منه للاستاذ عودة رحمه الله يطلب منه فيها تقديم الاستقالة إلى مكتب الارشاد فى الوقت الذى يراه مناسباً رغبة من المرشد فى إفساح المجال أمام الهيئة لاختيار من هو أقدر منه على حمل تبعات القيادة وحتى تتجه الهيئة الاتجاه الذى تراه دون أن يكون لوجوده على رأسها تأثير فى ذلك فهو يعلم يقيناً نظرة الحكومة وأنها مصرة على العسف والإبادة . . وهو ليس من طبيعته المداهنة ولا يريد أن يحمل أعضاء الجماعة فوق ما يريدون ولست أدرى إلى متى احتفظ المرحوم عبد القادر عودة بهذه الاستقالة ولكنى أعلم أنه لم يقدمها لأنه لم يرى الوقت مناسباً بعد .

ومن ذلك التاريخ لاحظت أن الاستاذ الهضيبى اعتبر نفسه فى حكم المستقيل من الرئاسة فعلا وترك الأمر نهائياً لمكتب الارشاد برئاسة نائبه الاستاذ عودة وقد أكد لى أنه على عزم أن يحضر اجتماع الهيئة التأسيسية الجديدة يوم ٢٩ أكتوبر ليقدم إليها حسابه عما مضى وليعلن إليها استقالته مصرا عليها مهما كانت الظروف وأنا أعرفه صلباً عنيداً فيما يراه حقاً ولذلك كنت واثقاً أنه سيفعل ذلك ولكن كان المفهوم أنه سيسير فى المظاهرة السلمية التى ستخرج عقب اجتماع الهيئة لتنادى بحقوق الشعب.

بدأت السحب تتكاثف فى سماء العلاقات بين الحكومة والقوى الشعبية المعارضة منذرة بأوخم العواقب وبدأت الحكومة ــ جادة ــ تنفذ خطوات ذلك التقرير السرى الذى سبق أن أشرت إليه فراحت تفصل الموظفين والطلبة من الأخوان بالجملة وتزج بهم فى السجون تحت ستار الاعتقال وتفتيش البيوت ــ أى بيوت ــ بغير حساب متبعة فى التفتيش إجراءات إرهابية لم نشهد لها مثيلا من قبل وبدأت تثير الحملات الصحفية على الأخوان كهيئة وكأفراد ثم بدأ داخل السجن تعذيب المقبوض عليهم بغير مبرر وردت هذه الاجراءات التعسفية إلى الأذهان فكرة اختطاف بعض ضباط المخابرات العسكريــة والبوليس على أن يخف الضغط بعض الشىء . . ولكن الفكرة طرحت جانباً ــ كما طرحت أى فكرة محددة غير فكرة المظاهرة السلمية يوم ٢٩ أكتوبــر .

اعتزلت القيادة . . واختلف أعضاء مكتب الارشاد فى كل خطوة وكف المكتب التنفيذى عن الانعقاد وتستر أعضاء الجهاز السرى على أنفسهم وأفكارهم . فتبلبلت الخواطر وكان على كل صاحب رأى واضح أن يعتزل أو يسلم نفسه للاعتقال اعتزل الكثيرون حتى أقرب الناس إلينا وعشت أنا مع المرشد فى بيت واحــد ، واحد ، أبعد ما أكون حقيقة المعركة فى انتظار يوم المظاهرة فبدأت ــ لأول مرة ــ أرى أفراد عائلتى حولى وأحس بهم وأعلم من أمرهم ما لم أكن أعلمه .

أما زوجتى فكانت على علم كامل وفهم دقيق لكل آرائى ولما نحن فيه من هرب من وجه الدولة ومن تمسك بمعنى الوفاء وإيمان بالحرية . . وبأننا سنظل كذلك مهما كانت النتائج ولهذا استقامت تصرفاتها وأضحت فى هذا العمر الذى اشتركنا فيه بمشاعرنا وأسلوبنا فى الحياة ولكن وجه العيب والأسى أيضاً كان هؤلاء الأطفال الصغار الذين وجدوا أنفسهم فجأة وسط جو غريب ، من العسير عليهم إدراكه إلا إذا انطبعت فى قلوبهم معان مدمرة من الحقد والبغض للدولة . . وللناس الأمر الذى لا أريد بحال أن ينشأ أولادى عليه .

كنت أغيب طويلا فى أعمال الأسف والتفكير والعجب فى ذات الوقت كلما تأملت وجوههم وما عليها من تعبيرات وتصرفاتهم وما تشير إليه من انطباعات

جاءتهم من أسلوب حياتنا برغم حرصنا على أن نتجنب الحديث أمامهم عن معانى الاضطهاد والهرب والمخاطر التى نتعرض لها بالقبض علينا واليقين من أن موقف الحكومة منا موقف خصم وقاض فى نفس الوقت .

لا زلت أذكر أمانى الرقيقة العذبة . . وفاطمة الطيبة القلب المؤثرة على نفسها دائماً وأمال ذات الذكاء اللامع الذى سبقت به عصرها . . ومحمد وهو فى الثانية من عمره فى تصرفاته ونظراته وأحاديثه اللاهية الساهية عن كل شىء إلا حين يعرض الأمر لسلامته وسلامة أبيه وأهله .

لن أنسى أبداً ما كان منه وهو يسافر مع أمه فى القطار فداعبه ضابط يجلس قريباً منه واستجاب الطفل للمداعبة حتى ظن كل منهما أنه ابن للآخر . . وسأله الضابط :

ـ ما اسمك ؟

ـ محمد . . قالها ببساطة

واسترسل الضابط يسأل :

ـ محمـــد إيـــه ؟

وعندئذ تنبه الطفل ، الذى هو فى الثانية من عمره إلى حقيقة وضعه كهارب من الدولة وإلى باب الخطر المفتوح أمامه فارتسمت على وجهه وفى عينيه نظرتا الشك والعتاب وهو يقول لمحدثه :

ـ انت بتلعب معى أنا . . مش مع بابا . . أنا اسمى محمد . . محمد وبس !

هذه الواقعة ـ على بساطتها ـ لم تغادر ذهنى أبداً . . فهى تصور بشاعة الشك الذى سيؤدى حتما إلى البغض الذى لا تؤمن عواقبه المدمرة .

هؤلاء الأطفال الأربعة كانوا شغلى الشاغل فى أيامنا الأخيرة بالاسكندرية انهم كانوا يقيمون معى فى ذات البيت منذ استأجرته منزل الدكتور حسن صبرى وكانوا ينادون المرشد بقولهم جدى مع ما يترتب على هذا النداء من نداءات لسائر

أفراد أسرته . وكان هو حفياً بهم من أول الأمر ، رقيقاً معهم حين كنت أنا مشغولا عنهم تماماً لا أكاد أحس وجودهم فلما انقضت المشاغل وصرت مجرد معتزل متفرج يرقب الحوادث ولا يتدخل فيها وينتظر يوم ٢٩ أكتوبر أصبح هؤلاء الأطفال كل همى . . إلى متى سيظل وضعهم هكذا ؟ لقد بدأت الدراسة ولم يذهب منهم أحد إلى المدرسة فمتى أبعث بهم إليها ؟ إلى أى مدى ستعمق فى قلوبهم الغضة معانى الشك والحرص فى الحــركة والحديث والتصرف خشية أن يفتضح أمــرهم . . ؟

هذه المعانى التى تقتل طفولتهم وتجعلهم وأكبرهم فى السابعة من عمره شيوخ الروح ينوءون بحمل الهموم . . حاولت بعض الشىء أن أفسح أمامهم مجال الحياة العادية فى حدود الممكن . . فكنت أخرج بهم وأأذن لهم بالاستحمام فى البحر والتردد على السوق .

كنا نتأهب بعد أيام للسفر إلى القاهرة لحضور الجمعية التأسيسية وتنفيــذ فكرة المظاهرة الشعبية وبعد ظهر يوم ٢٥ أكتوبر اعتقل اثنان منا يقيمان قريباً وهما على اتصال بنا ويعلمان مقر المرشد . . وصلنى نبأ القبض عليهما فوراً فأصبح على أن أتصرف فى تهيئة مكان آخر للمرشد ثم لنا وأصبح علينا أن نتحرك ثانية لنؤخر اعتقال المرشد حتى يوم اجتماع الهيئة التأسيسية وسير المظاهرة الشعبية .

عرضت عليه إما أن يسافر فوراً إلى القاهرة إذ لا يزال ذلك البيت الصغير المعتم الذى أقام فيه أياماً قبل سفره إلى الاسكندرية لا يزال هذا البيت معنا بمفتاحه ولم ينكشف أمره وإما البقاء لحين التأكد من أوضاع القاهرة ومراجعة المرحوم عبد القادر عودة الذى أصبح يرأس مكتب الارشاد نيابة عنه المرحوم يوسف طلعت رئيس الجهاز السرى . . فآثر البقاء على أن أسافر وحدى لبحث الأمور أولا ثم أرجع إليه أنا أو غيرى .

وسافرت مساء ذات اليوم بالقطار إلى القاهرة ودعت أهلى وداع من لا يدرى متى سيلتقى بهم ثانية لا لأنى كنت أشك فى أى شىء ولكن لأن يوم ٢٩ أكتوبر

كان قد قرب وكان المفروض أن نشترك جميعاً فى أحداثه سافرت تاركاً المرشد وأهله وأهلى فى ذلك البيت الذى لا يصلح للهرب منه بحال إذا دوهم كما حاولنا تغييره ولكن المرشد كان يرفض لأنه لا ينوى الهرب إذا هوجم البيت كما كان يرفض فكرة الدفاع عنه بالقوة كان يرفض كل عنف مهما كانت صورته لذلك لم يكن فى البيت سلاح على الإطلاق إلا ذلك المسدس الذى كنت أحمله أنا دون علم أحد . . والذى أخذته معى حين سافرت .

وصلت القاهرة وكان المرحوم عبد القادر عودة قد حددت إقامته فى منزله وأحاط به البوليس يمنع الاتصال به . . وكان الكثير ممن يمكننى الاتصال بهم قد اعتقل وكان المرحوم يوسف طلعت رئيس الجهاز السرى فى دوامة من مشاعره ومشاغله لا يعرف لها قراراً وكان كل من لم يعتقل فى هدوء تام ينتظر يوم ٢٩ أكتوبر وما ينتظرهم فيه . . وكان المفروض أن القوة المسلحة التى ستحمى المظاهرة المحدد لها مساء اليوم — بعد أربعة أيام — على أتم استعداد .

قابلت المرحوم يوسف طلعت . . ثم ذهبت لزيارة الأستاذ عبد القادر عودة فى منزله تحت سمع البوليس ونظره فدخل إليه فى صورة بائع لبن بجلبابه الأبيض يحمل بعض « سلاطين الزبادى » فما شك فيه أحد وما اعترضه رجال البوليس وانتظرته بعيداً عن البيت حتى خرج وسرنا معاً إلى بيت كنا نتخذه مقراً للقائنا .

اتفقنا مبدئياً على كيف ينقل المرشد من الاسكندرية وعلى أن يحضره من هناك صديق لى بعد غد أين يقيم فى القاهرة انتظاراً لاجتماع الهيئة وسير المظاهرة لا بأس إذا اعتقل على باب المركز العام وإن كنا نشك فى إمكان ذلك .

انقضى يوم الثلاثاء ٢٦ أكتوبر بطيئاً كما تمر غيره من الأيام . . قضيته فى المنزل لم أخرج وكنت أجلس وحدى فى المساء أقرأ كتاباً وكان فى المنزل جهاز راديو لم أفكر فى إدارته حتى دخل أحد زملائنا وأدار مفتاح الراديو ليسمع خطاب عبد الناصر فى الاسكندرية وإذا بالراديو ينقل إلينا نبأ تلك الرصاصات الثمانية الطائشة التى قيل أنها أطلقت على عبد الناصر وهو يلقى خطابه فى ميدان المنشية .

وكانت مفاجأة . . المرشد فى الاسكندرية . . ولا أحد يعلم كيف حدث هذا . . ولا كيف ستسير الأمور بعـــده ! !

وجاء الصديق الذى كان سيسافر غداً ليحضر المرشد من الاسكندرية . . ففتح الباب بمفتاحه الذى يحمله وكان قد سمع فى بيته ما سمعت أنا منذ قليل فجلس صامتاً فى مواجهتى وكانت جملة مشاعر قاسية تجتاح نفوسنا مشاعر من المفاجأة والحيرة والأسى والتصديق والكذب بل والاشمئزاز . . وأخيراً عبر عنها ذلك الصديق بقوله :

– إن أموراً شاذة – لا أدرى مصدرها – تجرى وراء ظهورنا فى ظلام فتورطنا وتدفعنا إلى أسوأ مصير وتفسد علينا كل خطط المقاومة الصحيحة . .

– لعل الحادث مفتعل للتنكيل بنا ؟

– لا أدرى وإن كان كذلك فإنه لن يتكشف إلا متأخراً .

– الكل يدرى أن هذا الأسلوب الساذج المجنون ليس أسلوبنا . . ثم إننا متفقون جميعاً على أن لا نفكر فى هذا العمل .

– لست أدرى قد يكون الحادث مفتعلا . وقد يكون فى المسرح مجنون أو أكثر يتصرفون حسب هواهم . . وعلى كل فالأمر قد حدث وسنتحمل جميعاً تبعاته غير معذورين من أحد .

– ولكن الوضع لم يتغير فأنت توافقنى على أن الحكومة كانت مقدمة على التنكيل بنا وإبادتنا فالأمر لم يختلف فى حقيقته وإن اختلف مظهر الباعث .

– وللمظهر أكبر الأثر فى هذه القضية بالذات ليت جمال عبد الناصر بدأ بالتنكيل أما الآن فسنسمع كيف نتهم بكل عمل عنيف وقع فى الماضى حتى تلك الأعمال التى تعلم وأعلم أنا أنها من فعل جمال عبد الناصر ومن معه . . لقد أعطيناهم علينا الحجة وسيحسنون استغلالها .

ـ فقلت فى ضيق نحن لم نعطهم أى حجة لقد بدأونا هم بالتنكيل وما حدث الليلة .

ـ إن صح ليس إلا تصرفاً فردياً من مجنون .

ـ فقاطعنى مجنون منا على كل حال . .

وسكتنا طويلا كان كل منا يفكر فيما صارت إليه الأمور وفيما سنواجه به الوضع الجديد وفيما يمكن أن يتم بشأن المرشد المقيم حالياً بالاسكندرية فى منزل يمكن أن يعرف مكانه فى أى لحظة .

وعدنا إلى الحديث فى أمورنا العاجلة فاتفقنا على أن نعدل عن إحضار المرشد غداً وعلى أن يقوم الصديق بتنظيم التجائه إلى إحدى السفارات بعد غد وأوصانى أن أبقى فى المنزل لا أغادره ليلا ولا نهاراً حتى ننتهى من وضع المرشد أولا ثم ننصرف إلى تحديد أوضاعنا .

وعدنا إلى الصمت ثانية حتى قطعه علينا جرس الباب معلناً فى أسلوب رنينه مجىء المرحوم يوسف طلعت جاء يسألنا الأخبار فقد سمع هو الآخر ما أذاعه الراديو ففوجىء به وجاء يطلب مزيداً من إيضاح ولم يكن لدينا ما نقوله وطلبنا منه هو البيان فهو رئيس الجهاز السرى المسئول عنه . ولكنه أكد لنا أن لا علم له بشىء وأنه لم يصدر أمراً ولم يأذن بالقتل الفردى وكيف يعقل أن يقدم على شىء من ذلك وهو يعلم أن المرشد بالأسكندرية وأن اجتماع الهيئة التأسيسية بعد غد وأنه ستعقبها مظاهرة سيقوم الجهاز السرى برئاسته بحمايتها أثناء سيرها هذه هى الخطة الوحيدة الموضوعة موضع التنفيذ أما محاولة الاغتيال الفردى فهو واثق أن لا صلة للاخوان بها . . وخرج على أن يعود ظهر الغد بما يجد لديه من أخبار .

ومع الصباح علمنا أن الذى اطلق النار هو المرحوم محمود عبد اللطيف وأنه اعترف بأن محرضه هو المرحوم هنداوى دوير المحامى بامبابه وأنا أعرف محمود عبد اللطيف منذ كان يعمل فى معركة قناة السويس عام ١٩٥١ وأعلم أنه انضم

إلى الجهاز السرى أيضاً وأعرف مهارته فى إصابة الهدف بالمسدس على نحو غير طبيعى ثم أنا أعرف الأستاذ هنداوى دوير ولكنى ما كنت أتصور أنه رئيس مسئول بالجهاز السرى لأنه رحمه الله عصبى المزاج سريع الانفعال بحيث لا يصح وضعه كمسئول فى أى نظام سرى .

وجاءنا المرحوم يوسف طلعت مع الظهر والنار تشتعل فى قلب القاهرة بالمركز العام للاخوان المسلمين أشعلتها مظاهرة يقودها ثلاثة ضباط ويحميها البوليس .

جاء يوسف ليؤكد أن الأستاذ إبراهيم الطيب المحامى والمسئول عن الجهاز السرى فى القاهرة كلها لم يكلف الأستاذ هنداوى بالإقدام على اغتيـــال جمال عبد الناصر أو غيره اغتيالا فردياً . . وأنه يفهم كيف يمكن أن يكون الحادث قد وقع على هذه الصورة وكانت مفاجأة له حين علمنا باعتراف محمود عبد اللطيف على هنداوى دوير واشتدت به المفاجأة حين علم أن المرحوم هنداوى بدأ يتكلم وهكذا انقضى يوم الأربعـــاء فى مفاجأة ترد إلينا أولا بأول عن سير التحقيق .

استقر رأينا على اختيار السفارة التى يلجأ إليها الأستاذ الهضيبى وسافر صديقنا إلى الاسكندرية صباح الخميس ولكنه عاد وحده لأن المرشد أبى الحضور وأصر على مواجهة الموقف والقبض عليه ومحاكمته أيا كان الحكم الذى سيصدر عليه إنه لم يرض بما حدث وهو يعلم أن التنكيل بالجميع سواء أكان الحادث حقيقياً أو مفتعلا ولذلك فهو لا يريد أن يترك التنكيل يصيب غيره دونه . . لقد استقر رأيه على مواجهة الموقف الجديد كما هو مهما كانت النتائج .

عاد صديقنا لينقل إلينا هذا القرار ولكن يوسف طلعت كان يصر معنا على وجوب أن يلجأ المرشد إلى سفارة من السفارات لنواجه نحن الأوضاع بعد ذلك غير خائفين على وضع القائد فعاد صديقنا إلى الاسكندرية صباح السبت ٣٠ أكتوبر وعاد مع الظهر ليبلغنا نبأ القبض على المرشد فى منزل « حسن صبرى » أى منزلى صباح ذات اليوم . وعلم يوسف بالخبر قبل أن تذيعه الحكومة فى اذاعة المساء وأصبح واجباً علينا أن نتصرف . . وبسرعة .

كان يوسف طلعت — رحمه الله — يؤمن بأن حادث المنشية حادث مفتعل لم يحدث على هذا النحو وإن قام بجانب من أدواره أشخاص فى الجهاز السرى . وكان يستمد إيمانه هذا كما تصورت من أنه لم يكلف أحد بالاقدام عليه وأن المرحوم إبراهيم الطيب الذى يليه فى الرئاسة لم يأمر به أيضاً . وكنت أنا أظن أن الضيق والاضطراب والحماس وعدم الثقة فى بعض الأشخاص دفع واحداً أو أكثر إلى الإقدام على الحادث دون تكليف أو إذن به ، فلم يقدروا ما يترتب على ذلك من إحباط وتضييع للخطة الموضوعة موضوع التنفيذ العام . . إنى واثق أن يوسف طلعت غير مسئول عن هذا الحادث . ولكنه لم يكن يقف عند كونه غير مسئول عن الحادث بل كان إيمانه يصل إلى أن الحادث ملفق . . إن المسافة بين مطلق النار وموقف عبد الناصر والميل الشديد فى الاتجاه ووقوف المجنى عليه وراء حاجز وذهاب محاول القتل وحده دون شريك يسنده بمسدس أو قنبلة ثم عدم إصابة الهدف من شخص نعرفه جميعاً ونعرف مهارته الفائقة ونعرف عدم إقدامه على إطلاق النار بغير تأكد من الإصابة كل ذلك يوحى بأن الحادث غير معقول . . كان يوسف يتساءل دائماً عن تفسير لأن يرسل هنداوى دوير شخصاً واحداً هو يستطيع أن يرسل من عنده عشرة أشخاص . . ولأن يرسل مسدساً واحداً بدلا من عدة مسدسات وعدة قنابل . . لقد ظل إيمان يوسف طلعت بأن الحادث ملفق يشغل ذهنى منذ ذلك الحين إلى اليوم . . وقد سمعت بعد ذلك من موظف عاين مكان الحادث رسمياً أن الحائط المواجه لإطلاق النار ليس به أى أثر للرصاص وأنه يعتقد أن المسدس الذى سمعت طلقاته كان محشواً بالبارود فقط دون رصاص . . وأن عبد الناصر كان يعلم سلفاً لحظة الإطلاق وأن قصة الرجل الذى قيل أنه عثر على المسدس وذهب به سيراً على الأقدام من الاسكندرية إلى القاهرة هى قصة من تأليف البوليس . .

سمعت كل هذا . . وسمعت أكثر منه . . ومع ذلك ظل هذا الحادث كله فى ذهنى غامضاً أتمنى أن يجلوه المستقبل يوماً .

تركنا — يوسف وأنا — الحديث عن حادث الاسكندرية إذ استوى عندنا يومئذ أكان ملفقاً أم صحيحاً . وبدأت أسأله سؤالى التقليدى الذى أردده عليه منذ وقع ذلك

الحادث وماذا تنوون بعد ذلك . . ؟ كنت أسأله هذا السؤال بوصفه رئيس الجهاز السرى المسئول عنه وعما يضم من أشخاص وما يملك من سلاح ولكنى لم أجد عنده جواباً واضحاً عن ذلك لا بسبب قله الرجال والاستعداد ولكن لانه كان يتخوف من أمرين يعوقانه عن التصرف :

هما التدخل الأجنبى إذا ثارت قلاقل فى مصر ، والتشفى ممن داخل السجون بقتلهم إذا أقدمنا على أى مقاومة سافرة للوضع العسكرى القائم كان هذا التخوف بشقيه يسيطر على ذهن يوسف طلعت إلى أبعد الحدود حتى أعطانى صورة يائسة عن نية رفاقه . . ! !

لم أكن أعرف عن رفاقه شيئاً كثيراً لأنى لم أتدرج يوماً ما فى تنظيم سرى لا فى الأخوان ولا فى غيرها من الهيئات وإن كنت على اتصال باغلب تلك التنظيمات السرية التى عرفتها مصر فى العشر سنوات الأخيرة . كنت مع ذلك شاعراً بمسئوليتى كواحد من الأخوان وكمصرى يعرف نوايا عبد الناصر وأسلوبه ويحس بما نحن مقدمون عليه معشر الشعب من اهدار كامل لحريتنا كل ذلك أوجب على أن أناقش هذا الأمر ، أمر المقاومة مع يوسف ولو لقيت غيره لناقشته فيه عسى أن يستقر الوضع على صورة واضحة من الاستسلام أو المقاومة . . دون تردد يضيع علينا الفرص ويضعنا فى أسوأ الظروف .

صحيح أنى شخصياً لم أكن أنوى تسليم نفسى حتى لو قدر الجميع ذلك كنت أوثر أن لا أسعى بقدمى إلى من كان صديقاً لنا وللشعب فغدر وأصبح أسوأ عدو وأظلم حاكم كنت — عن نفسى — بين واحد من أمرين : إما أن يقرر الجهاز السرى المقاومة السافرة فأشترك معه فيها وإن لم أكن أحد أفراده أو أن يقرر التسليم فأهرب وحدى من وجه الحكومة الظالمة ساعياً إلى حريتى الفردية .

قلت ليوسف طلعت — رحمه الله — فى وضوح اختطوا خطة من اثنتين : استسلموا . . ولن أكون معكم أو أعلنوا مقاومة عامة سافرة وليكن ضحاياها من الطرفين ما يكون . . وأنا عند ئذ معكم أرضى وأتمنى أن أكون أول الضحايا ولكنى لم أر منه اتجاها واضحاً إلا اختيار الاجتماعات ولعله كان يعبر عن

انطباعات زملائه حين تكلم عن استمرار التنظيم واصدار المنشورات ومواصلة الاجتماعات دون أن نسلم أنفسنا ودون أن نلجأ بسفور إلى المقاومة العنيفة العامة .

فقلت له : ثم يقبض علينا فى بيوتنا لنقاتل داخل السجون كمجرمين . . ؟

قال : وماذا بيدنا أن نفعل لنمنع ذلك . . ؟

قلت : نقاوم ونموت فى بيوتنا . . وفى الشارع وفى الحقول إذا شقت عليك المعركة فى القاهرة فانقلها إلى الريف وليقبضوا علينا جثثاً هامدة فارقتها الحياة .

قال : لا زلت أخشى هذا الأسلوب العام . . وعلى كل حال ، سأراجع زملائى ثم ألقاك .

وضرب لى موعداً بعد أيام فى منزل حدده . . وانصرف عنا على أن لا نعود إلى البقاء فى هذا المنزل الذى نحن فيه . لا زلت أذكر كيف قبض علينا الواحد بعد الآخر ولم يقاوم غير واحد ممن معه ، فاستطاع الهرب ولم يترك للبوليس من يقبض عليه غير جثة واحدة وأفزع رجال البوليس وجعلهم يترددون طويلا قبل تفتيش البيوت . لو وقفنا جميعاً هذه الوقفة وزدنا عليها المهاجمة لتغير وجه المعركة فى تقديرى وإن خالفنى فى ذلك الكثيرون . . ! !

انصرف يوسف ، وانصرفنا بعده واحداً تلو الآخر بحث كل منا عن مكان يأويه لأن صديقنا قرر أن نترك هذا المنزل إذ يحس — مجرد إحساس — بأنه أوشك أن ينكشف .

ودعنى صديقى عند باب البيت وخرجت بعد منتصف الليل وحدى أحمـل حقيبتى الصغيرة فسعيت إلى بيت ذلك الرجل الطيب حيث يقيم هو وزوجته فطرقت الباب الذى فتح لتلقانى أذرع مفتوحة وعيون دامعة انهم كانوا ينتظرون أى طارق غيرى ومع ذلك رحبوا بى وقبلوا ايوائى . . وفى الصباح صح إحساس صديقى واكتشف رجال المباحث بيتنا الصغير وجعلوا منه فخاً يتصيدون به الوافدين عليه وأملوا أن أكون واحداً منهم . . ولكنى لم أعد إلى ذلك البيت أبداً كنت فى منزل ذلك الرجل الطيب وزوجته فى قلب القاهرة حيث بقيت أسبوعاً لم أخرج إلا مرة واحدة لعلى التقى بيوسف طلعت وأعلم منه ما انتوى عليه هو والجهاز السرى من وسائل المقاومة لنقف ضد طغيان حاكم .

صرت وحدى .. ضد الدولة

أغلق دونى بـــاب ذلك البيت الذى أويت إليه بعد منتصف الليـــل يوم السبت ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٥٤ وأفردت لى غرفة خاصة قل أن أغادرها وكان صاحبا البيت يبيتان معى فى البيت يوماً ، ويبيتان خارجه يوماً آخر فيغلقان على باب البيت كأن لا أحد فيه بعد أن يهيأ لى ما يلزمنى من طعام .

وقام صاحب البيت بابلاغ بعض الأصدقاء القدماء بمكانى فزارنى « عطية » وأصحابه وعرضوا على ما أشاء من عون . . فاكتفيت بأن يكونوا على صله بى إلى حين ، وأن يحضروا لى « بـــدر » ليكون على بينة بكل جديد ننتظره . .

وكان بجوار البيت فرع من فروع جماعة الأخوان احتله بعض المرتزقة من أعضاء هيئة التحرير الذين أطلقهم الحكام يرهبون الشعب بمدافعهم الرشاشة التى يحملونها ويطلقونها فى الشوارع بغير مبرر . . لو أن هؤلاء الناس وجدوا أمامهم بعض الأخوان يردون عليهم بالمثل لفروا هاربين ولما بقى لهم ولأمثالهم أثر على المسرح .كنت أجلس ، وحدى أسمع طلقات النار ، وصاح هؤلاء الغوغاء ذلك الصياح الفارغ الذى ملأوا به الجو حين خلا لهم كنت أجلس صابراً فى انتظار لقائى بيوسف وإعلان المقاومة العامة لنلقن هؤلاء المرتزقة الذين جمعهم عبد الناصر حوله درساً لن ينسوه . . !

وما درى أحد من هؤلاء أنى أجلس بجوارهم أرقبهم من وراء النافذة .

وفى تلك الأيام اعتقلت الحكومة أبى الذى يقدر الجميع خدماته للأمـــة اعتقلته بغير سبب ، قد جاوز الستين من عمره اعتقلته كوسيلة غير كريمة لجأ إليها عبد الناصر لبرغمنى على تسليم نفسى لجلادى فكانت وسيلة حقيرة لا تصدر إلا من مثل رجال الحكم القائم فى مصر . . وخاب تدبير عبد الناصر من أساسه فلم أعلم بالقبض على أبى لأن صاحب البيت وأصدقائى أخفوا عنى الخبر .

ولما كان يوم الخميس ٤ نوفمبر قمت بمحاولتى الاخيرة للاتصال باعضاء الجهاز السرى أو بيوسف طلعت بالذات عسى أن يكونوا قد قرروا أمراً أسير معهم فيه . فخرجت بعد الغروب مودعاً أهل البيت الذى أوانى متوجها إلى المنزل الذى وصفه لى يوسف طلعت وحدد لى طريقة الطرق على بابه وكان المكان شقة فى الدور الرابع من عمارة كبيرة . وما أن خطوت خطوات قليلة على سلم العمارة حتى قابلنى البواب هابطاً ليقول لى فى صوت غريب : إلى أين . . ؟

فعجبت من السؤال ولكنى أجبت متصنعاً الهدوء : زيارة . . ؟! !

فقال لى بصوت خفيض كمن يهمس . . : إذا كنت طالع شقة الأخوان فى الدور الرابع فارجع أحسن لك . . مسكوها العصر والبوليس مختبىء فيها . . !

ودرت حول نفسى أهبط السلم محاولا الاحتفاظ بهدوئى وأنا أغمغم متشكر متشكر جداً وتصورت ابتسامة البواب النوبى الأسمر خلفى وهو يودعنى بقوله : مع السلامة روح الله ربنا معاك . . وهكذا أنقذنى هذا البواب الذى لا أعرفه من خطر كنت على خطوات منه .

لماذا فعل البواب ذلك . . ؟ لا أعلم . . ولكن الأيام علمتنى فيما بعد أن أمثال هذا البواب كثير فى ذلك الشعب الطيب . إنهم يفعلون ذلك كوسيلتهم الوحيدة فى المساهمة فى معركة الحرية ضد حكومة طاغية ظالمة يشعرون بظلمها وطغيانها ويودون المشاركة فى حرب ضدها ولو بالأسلوب الذى يستطيعونه .

وبعد ذلك . . ها قد نجوت هذه المرة ولكن ، إلى أين أذهب لقد تركت البيت الذى أوانى أهله منذ أيام . . تركتهم الليلة مودعاً إياهم نهائياً إذ تصورت أن ألقى يوسفاً أو أحد زملائه فأبقى معهم لنخوض معركة سافرة ولكن الخيط الوحيـــد الذى كان يمكن أن يصلنى بهم قد انقطع الليلة . ولم يسعفنى عقلى المضطرب بحل وأنا أقف أمام العمارة التى ينتظر فيها البوليس فاستوقفت أول سيارة تاكسى مرت بى وقفزت بها وأنا أقول للسائق دون تدبير أو تفكير « سينما الكرنك من فضلك . . »

فني السينما سأبقى ساعتين وحيداً في هدوء يمكنني أن أفكر أثناءهما وأن أرسم لنفسي طريقاً .

وما أن ألقيت جسدي المكدود المضطرب على الكرسي المخصص لي في السينما وأرحت رأسي لحظة بين كفي غير آبه بتلك الصور التي تتراءى أمامي على الشاشة إذ كان العرض قد بدأحتى قدم شخصان ليجلسان عن يساري . . وأشعل أحدهما عود ثقاب ليدخن سيجارة والتفت نحوهما عن غير قصد . . فأذا بهما حسن التهامي ضابط المخابرات الحربية الذي أعرفه منذ سنوات ومعه زميل له أعرفه ولا أتذكر اسمه . . ! !

لو قلت اليوم — وقد انقضت على تلك اللحظة أعوام — أني لم أفزع ولم أضطرب حين رأيت جاري الثقيلين على النفس ، لظن من يسمعني أنني أدعي لنفسي شجاعة خارقة ليست في ، ولا محل لها من هارب يترقب الشر من كل جانب . . ولكني في الواقع لم أفزع ولم أضطرب لا عن شجاعة ادعيها لنفسي ولكن لأنه صاحبني شعور بأن الكيل قد فاض وأن الفزع لم يعد له محل واستقر في ذهني وقلبي معنى قول الله « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » . . ومن ثم بقيت في مكاني هادئاً — حقيقة لا تصنعاً — وعيناي مسلطتان على شاشة العرض وإن لم أعمل منها شيئاً وذهني مشغول بالتفكير ، وكان تفكيراً هادئاً لم أنعم بمثله منذ وقت ليس بالقصير . .

بدأت أحدد أن الظروف وضعتني الآن وحدي . . وحدي تماماً . . فلا أستطيع أن أعتمد على أحد من الاخوان فأنا فرد ضاع من الجيش وعليه أن يتصرف وحده . . أنا الآن وحدي ضد الدولة كلها .

والبلد واقع تحت إرهاب قاس لم يسبق له أن شاهد مثله . وعين الحكومة ساهرة ترقب كل حركة والاخوان يسقطون في الفخاخ الواحد بعد الآخر دون أن يفعلوا شيئاً والمحاكمات تعد لهم لتلقي بهم في السجون لآماد طويلة حسب الخطة التي رسمها التقرير السري الذي سبق أن وقع في أيدينا وأنا لم أعد مكلفاً من قبل الاخوان بأمر محدد كما كنت من قبل فعلي إذاً أن أسعى إلى حريتي الفردية إذا كان الجميع

قد قرروا عدم المقاومة أو ما دام قد بدا لى منهم ذلك إلى الآن وأنا لست ملزماً بأن أجارى أحداً فى تسليم نفسى وهكذا أحسست كيف أصبحت وحدى ضد الدولة . . إنى أحارب الآن وحدى فى سبيل حريتى الفردية .

وإذا كانت حريتى الفردية قد أصبحت محور تصرفاتى والغرض من هربى من الدولة القائمة فعلى أن لا أفكر حالياً فى الاتصال من جديد بأحد من الاخوان إذ يبدو أن أساليب التعذيب الوحشية داخل باستيل القرن العشرين ـ السجن الحربى بالقاهرة ـ قد مكنت تلامذة هملـــر من استنطاق كل من يقبض عليه . أو أكثر منهم بالحق أو بالباطل فلا محل من ناحية أن أعرض نفسى لخطر أن يرشد عنى من يقبض عليه ولا من ناحية أخرى أن أكون أنا دالا على غيرى أو مقيماً الحجة على نفسى إذا قبض على . . وهب أنى استطعت أن أصمد للتعذيب فلم أتكلم وأنا لا أدعى هذه القدرة فانى لن استطيع أن أسكن أمام هؤلاء الحكام ولا أكشف لهم عن مخازيهم فى ماضيهم وحاضرهم ولن يصبروا هم على مواجهتهم بهذه المخازى بل سينتقمون ويسرفون فى انتقامهم حتى بوسائلهم الحقيرة .

وجب على إذاً أن أواجه الهرب وحدى دون اعتماد على تنظيمات الأخوان المسلمين ويكفى أن يكون اتصالى ـ عند الضرورة ـ ببعض أصدقائى القدماء من غير الأخوان ، فهؤلاء أو أغلبهم لا يعلم عنهم جمال عبد الناصر شيئاً ، وقد لا يلتفت هو أو رجاله إلى تعقب آثارى عندهم وبهذا أضمن قدر المستطاع أن أحتفظ بالقسط الذى حصلته فعلا من حريتى الفردية كانسان خارج قضبان السجن إلى أن أستطيع مرة أخرى أن أسهم فى معركة الحرية . . حرية الجميع .

ولكن حريتى ـ ومساهمتى فى معركة الحرية ـ لا يمكن استكمالها على صورة مطمئنة ومثمرة إلا خارج حدود مصر فى البداية والخروج من مصر اليوم من أصعب الأمور بكل يكاد ـ فى حدود إمكانياتى ـ أن يكون مستحيلا فالمطارات والموانىء والطرق وجميع المنافذ تكاد تكون مسدودة تماماً . . وكل وسيلة سبق أن اتبعناها فى الخروج من مصر أو فى اخراج غيرنا قد أصبحت موضع رقابة . حتى بوغازات

الصيد أبلغني بدر بالأمس أنها وضعت تحت رقابة شديدة لا تسمح لأحد بالمرور عبرها فعلى إذاً أن أبقى فى مصر حتى تخف مع الزمن قبضة الحكومة الحديدية على بعض منافذ الخروج . . فالتراخي بعد وقت ما . . شيمة كل رقابة شديدة مفروضة تقوم عليها أجهزة عن غير اقتناع حقيقي . فأين أبقى فى مصر إلى ذلك الحين . . ؟

إن القاهرة لم تعد بالمكان الملائم لى . . وكذلك الاسكندرية . . بل كل المدن الكبيرة تقريباً لأن معارفى فيها قلة ، يعرف جمال عبد الناصر صلتى بهم .. فضلا عن أن نشاط البوليس زايد فى هذه المدن بوصفها المكان التقليدى للاخوان الهاربين وعلى هذا الأساس قررت الخروج من القاهرة . وبدأت — على وجه الترجيح — أحدد مكاناً يمكن الالتجاء إليه . ولكن كان على قبل ذلك أن أحاول الاتصال بأصحاب هذه الأماكن لأتفق معهم قبل السفر إليهم وهكذا وجدتنى مضطراً إلى مقابلة أصدقائى الذين ظلوا على صلة بى فى الأيام السابقة فعلى أن أعود مرة أخرى إلى منزل ذلك الرجل الكريم وزوجته حيث كنت منذ ساعات وودعتهما فمن هناك يمكن أن أتصل بأصدقائى لأنظم أمر سفرى من القاهرة وتنبهت عندئذ فقط أن مفتاح البيت لا يزال فى جيبى نسيت أن أعطيه لأصحابه حين غادرتهم .

وما أن أشرف الفيلم المعروض على نهايته حتى قمت من مكانى كما يفعل كثير من الناس عندنا ، وتوجهت إلى باب الخروج دون أن أعير جارى الثقيلين التفاتاً وركبت الأوتوبيس إلى المنزل وكان صاحباه قد ناما ففتحت الباب ودخلت بهدوء إلى حجرتى واستغرقت فى نوم هادئ عميق شأن من انتهت متاعبه وفعلا لقد كنت أحس أن متاعبى انتهت كلما فكرت فى أسلوب حلها بكل هدوء وبكل إخلاص ولذلك طالما نصحت بدراً . كلما عرضت له مشكلة مرهقة أن يطرحها على نفسه طرحاً محايداً يسمح له بالتفكير الهادئ المخلص وعندئذ ستزول المشكلة ويمكنه الوصول فيها إلى رأى موفق أو رأى مريح للاعصاب على الأقل .

واستيقظت فى الصباح على صيحة اختلط فيها الفرح بالمفاجأة صدرت من

صاحب البيت حين دخل الغرفة فوجدنى نائماً فى فراشى كأهدأ ما أكون وأبلغته رغبتى أن أقابل بدراً وعطية اليوم لأمر هام . . فما سألنى مزيد من إيضاح .

وفى عصر ذات اليوم ، زارنى بدر وعطية وكان بيننا حديث قصير انتهى إلى الاتفاق على أسلوب انتقالى من القاهرة وعلى نظام للاتصال المستمر بيننا وعلى اغتنام فرصة الخروج من مصر حين تسنح . تم الاتفاق على أن يسافر بدر صباحاً لمقابلة صديق رشحناه للاقامة عنده فى بلده وكان أنيس قد سبق إلى هناك فعلا . . وطلبت من بدر أن يعرض الأمر بصراحة تامة على صديقى ذاك فإذا وافق على إيوائى أبلغنا فوراً لأسافر فى ذات اليوم وإن اعتذر فعلينا أن نطرق باباً آخر يحقق لى الإقامة خارج القاهرة محافظاً على حريتى الحالية بعيداً عن السجن وعما فى السجن من عذاب أنباؤه تصلنا بالتفصيل .

وفى مساء الغد ، طلب منى عطية أن أسافر فى أول قطار يترك القاهـــرة بعد قليل إلى بلد غير التى قدرت وأبلغنى أنى سأجد مختاراً فى القطار وأن أنيساً سيقابلنى هناك . وأبدى لى دهشته من أن قرار السفر جاء متأخر ومن بلد غير الذى سافر إليه بدر . . وقد أقنعه بسفرى أن أنيساً هو الذى أبلغنى به شخصياً وأنيس أعرف منا — ومن بدر — بأين ألجأ . وظننت لفورى أن صاحبى اعتذر عن إيوائى وأن أنيساً دبر لى بلداً آخر وشخصاً آخـــر .

وودعت عطية وأصحابه . . وودعتنى صاحبة البيت عند القطار وما أن ركبت القطار حتى لقيت مختاراً الذى همس فى أذنى أنه لا يدرى ماذا أعد أنيس لنا ثم جلس غير قريب منى ، مدعياً عدم معرفته بى ، وهو يراقبنى من بعيد وهكـــذا تركت مصر وأنا أحمل لأصحاب بيت القاهرة أجمل الذكرى أويانى وأعانانى سبعة أيام فى أحلك الظروف وأقساها .

وتحرك القطار وأنا لا أعلم إلى أين أنا ذاهب . . كل ما أدريه أنى سأهبط فى محطة معينة وأنى سأجد أنيساً بها . . وهكذا غادرت القاهرة مساء السبت ٦ نوفمبر سنة ١٩٥٤م إلى وضع مجهول لا أدرى طريقى فيه .

لص .. أم قط ؟

حين غادرت القاهرة بالقطار مساء السبت ٦ نوفمبر حاولت أن أحدث بعض التغيير البسيط فى مظهرى أو فى أسلوب مظهرى بمعنى أدق لأن الجرائد كانت قد نشرت فى الصباح أمراً بالقبض على وعلى ثلاثة من زملائى الهاربين إذ اعتبرتنا من الخطورة بمكان ونشرت مع أمر القبض صوراً فوتوغرافية لنا لتسهيل مهمـــة القبض علينا صحيح أن الصورة التى نشرت كانت لا يمكن أن تعين شخصاً لا يعرفنى من قبل على التعرف على شخصيتى إذ كانت إحدى الصور « مهزوزة » والثانية قديمة ترجع إلى أكثر من عشر سنوات مضت . ولكنى رأيت من الأحوط أن أن أرتدى معطفاً وطربوشاً وأضع على عينى نظارتى الطبية التى لا أستعملها إلا فى القراءة الطويلة فلم يسبق لأحد أن رآنى بها . ثم انى كنت قد اتخذت لنفسى منذ أكثر من شهرين شارباً يغطى شفتى العليا وهكذا أقنعت نفسى أنى قد « تنكرت » ولكننى فوجئت فى القطار — حين نظرت إلى نفسى فى مرآة دورة المياه — أنى لا أشبه نفسى حقيقة ولكنى أصبحت شديد الشبه بأحد زملائى المطلوب القبض عليهم معى والمنشورة صورته بجوار صورتى فى الجرائد وهو المرحوم إبراهيم الطيب . وقد أثار هذا الشبه الجديد خشيتى وقلقى حين لاحظت أن أحد الركاب الجالسين أمامى أخذ يطيل النظر إلى وإلى الجريدة التى فى يده وقد فتحها على صور المطلوب القبض عليهم وقدم لى يده بسيجارة تقبلتها شاكراً ورددت له مثلها من جيبى بعد قليل لأدفع عن نفسى الشبهات لأن المشهور عن أعضاء هيئتنا أنهم لا يدخنون .

وكنت قد قطعت تذكرتى فى القطار إلى محطة تلى البلد الذى أنوى النزول فيه بعدة محطات وكان الرجل الذى يواجهنى ويطيل النظر إلى سينزل — حسب تذكرته — فى المحطة التى قطعت تذكرتى إليها . . وظللت ضيقاً بجلوسى حتى مر الأمر بسلام ووصلت حيث أريد . ولست أدرى إلى الآن هل كان ذلك الشخص ينوى الإبلاغ

فى محطة النزول ، أم الخوف والقلق استبدا بى فصورا لى ما آثار شكوكى فى الرجل ونظراته ولكنى أحس يقيناً أن الرجل كان يخفى فى نفسه أمراً . . يخفى فى نفسه رغبة لا أدرى إن كانت رغبة فى القبض على أو رغبة فى إبداء شهامة بمساعدتى أو التستر على . . . ؟

وما أن وقف القطار بالبلدة التى أقصدها حتى غادرته فجأة فاقترب منى أنيس على الرصيف ليهمس فى أذنى وسط الزحام « سر أنت مع ثابت . . ولتتركنى مع مختار » . . « وسرت مع ثابت صامتاً لا أدرى إلى أين . . ولا أدرى صلة ثابت بموضوع هربى ولا بهذا البلد الذى أنا فيه . . وبعد عدة منعطفات فى شوارع وأزقة أفقدتنى القدرة على تصور اتجاهى وصلنا بيتاً فدخلناه وأغلق ثابت بابه دوننا وصعدنا غرفة بالطابق الأول ولم يزد ثابت بعد ذلك عن أن رحب بى فى بيته ..

وجاء أنيس بعد ساعة فعلمت منه أن بدراً حين قابل صاحبى الذى كنت أنوى الالتجاء إليه قبل ذلك ولكنه نصح بأن من الأنسب أن نقيم عند « ثابت » الذى كان قد نقل منذ أسابيع قليلة إلى بلد آخر وسافر إليه الجميع وإذا به يسألهم عن أخبارى ليطمئن مما شجعهم على أن يسألوه إن كان يقبل إيوائى فرحب بذلك كل الترحيب مهما كانت النتائج وعجل ثابت بإرسال أهله إلى القاهرة واعداً إياهم أن يلحق بهم بعد أيام وجلس ينتظرنى وقد خلا بيته للقائى إلا منه .

أنا أعرف ثابت منذ زمن طويل وأقدره ولكنى ما كنت أتصور أن أجد منه كل هذه التضحيات التى قام بها من أجلى لقد كان كريماً معى ، شهماً فى كل تصرفاته جريئاً فى كل خطوة خطاها ذكى القلب حاضر البديهة فى كل مأزق لقد ظل ثابت على اتصال دائم بى طوال إقامتى فى مصر ، وزارنى فى كل مكان عشت فيه تقريباً وكان الصلة بينى وبين بدر وأصحابه حيثما ذهبت .

وحين كنت عند ثابت بلغت جهود الحكومة أقصاها للقبض على . لقد كان مما يثير الفزع والاشمئزاز فى نفوس الناس ذلك المنظر المتكرر لحملات التفتيش

الواسعة التي اتخذت للبحث عني وعن زميلي قائد اللواء الجوي عبد المنعم عبد الرؤوف فقد كان قد قبض على كل من اعتبره عبد الناصر بالغ الخطورة ولم يبق هارباً غيرنا . وكان من العسير على أحد أن يقتلع من ذهن عبد الناصر أني واللواء عبد المنعم عبد الرؤوف نختبيء معاً في مكان واحد . كانت هذه الفكرة تسيطر عليه إذ كان اللواء عبد الرؤوف يخاف مني لأنه يعتبره بالنسبة له عنصراً منافساً خطيراً داخل صفوف الجيش لما يمتاز به من شجاعة في الإقدام على ما يؤمن بسلامته من الأعمال ولتعلق كثير من الضباط به . ولذلك نسب له ما قام به في معركة فلسطين التي يفخر بمجرد أنه حضرها . . ونسب له أنه أحد مؤسسي لجنة الضباط الأحرار ونسب له أنه هو الذي حاصر قصر رأس التين بالاسكندرية عندما كان فيه الملك السابق فاروق . . نسب له كل ما قام به من أعمال في تاريخ خدمته بالجيش وقبض عليه وقدمه للمحاكمة العسكرية منذ أوائل سنة ١٩٥٤، ولكنه استطاع الهرب من السجن في مايو من نفس السنة . وظل مختبئاً في القاهرة فترة طويلة أزعجت عبد الناصر وحكومته حتى تمكن من مغادرة القطر .

وما زلت أذكر يوم قابلت جمال عبد الناصر في بيته في يونيه سنة ١٩٥٤ وهي آخر مقابلاتي معه وكان معه اللواء عامر فلم يستطيعا إخفاء انزعاجهما من هرب اللواء عبدالرؤوف أثناء محاكمته العسكرية ولمحا باتهامي بأني إن أكن قد شاركت في تهريبه فإني أعلم مكانه إذ كنت أحد محاميه في تلك المحاكمة وكم غاظهما يومئذ أن أقول لهما إن اشاعة تملأ البلد بأن الحكومة هي التي هربته لأنه من غير المعقول أن يهرب شخص أعزل تحرسه سيارتان حربيتان بهما ستة جنود بالمدافع الرشاشة .

وقد كان عبد الناصر مخطئاً في اعتقاده هذا وربطه بيني وبين اللواء عبد الرؤوف في الاختفاء وأدى خطؤه هذا إلى افلات كل منا من قبضة بوليسه ورجال مخابراته .

لقد انقطعت عنى أخبار اللواء عبد الرؤوف منذ انقطع الخيط بينى وبين المرحوم يوسف طلعت فى القاهرة واختط كل منا خطة فى الهرب وحده ولكن الدولة ظلت تبحث عنا معاً فأخطأها التوفيق .

كانت تقوم حملة قوامها أكثر من مائة جندى بالسلاح لتفتيش أى بيت تظن الدولة أننى أختبىء به ، فتزعج أهله وجيرانه بصورة تشير إلى أى مدى فزع القائمين بالتفتيش وكانوا يخرجون فى كل مرة بلا شىء تاركين وراءهم أثاثاً مكسراً واشمئزازاً واحتقاراً يملأنفوس أصحاب البيت الذى فتشوه والجيران. لقد كانوا عن خوف أو غيظ يكسرون أثاث البيت وكأنما البحث عن أشخاص يكون بتحطيم الكراسى والمناضد والدواليب وتمزيق المراتب .

واشتد الغيظ بالحكومة حين لم يقبض على ، فلجأت إلى الضغط على أهلى مرة أخرى فاعتقلت أخى الأكبر بعد أبى لتغلق بذلك مكتب المحاماه الذى نعمل فيه معاً . ثم أرسلت كبيراً من رجالها ليقابل زوجتى التى اضطرت بعد أن تركتها فى الاسكندرية أن تذهب إلى أقاربها فى الريف لتقيم مع أولادها قابلها ذلك الشخص الذى أرسلته الدولة ليقنعها أن تتصل بى وتزين لى أن أسلم نفسى لجلادى . وأكد لها بلسان الناصرية الكاذبة أن لا ضرر من القبض على إطلاقاً لأن الأمر لن يعدو اعتقالا لمدة أيام ثم يفـــرج عنى كما أقسم لها بأن البوليس سيكف عن مراقبتها فوراً لتتمكن فى أمان من الاتصال بى ، ولكن زوجتى لم تكن تثق فى العهود الناصرية بعد أن جربتها معى ورأت نتائجها فأجابت رسول الدولة بأنها لا تعرف مكانى ولو أنها كانت تعرفه لنصحتنى أن لا أسلم نفسى أبداً . عندئذ هددها هى بالاعتقال إن لم استسلم مادام اعتقال أبى وأخى لم يفيدا فى اقناعى . فأجابته فى هدوء بأن يعد فى السجن قبل اعتقالها أماكن لأطفالها الأربعة أيضاً .

ووضح لزوجتى أن الطيش قد يصل بالدولة إلى اعتقالها فعلا فغادرت منزل أهلها وهربت هى الأخرى بطفلها الأصغر . . وطال هربها حتى أيقنت الدولة

أنى أفلت وظنت أنى تركت مصر فعادت لتواصل الحياة مع أطفالها لتنتظر الجديد عن أخبارى والدولة لا تبحث عنى إلا عند الأقارب ومن فى حكمهم .

وكان اتجاه الدولة هذا سبباً آخر لخطئها فى البحث عنى . لقد كانت تبحث عنى فى بيوت الأخوان أو بيوت من يمتون لى بصلة قرابة قريبة أو بعيدة ولذلك فشلوا فى بحثهم دائما ، كانوا دائماً أبعد ما يكونون عن مكانى بل لعلى لم أدخل بلداً فتشوا منزلا فيه بحثاً عنى ، كنت دائماً بعيداً عن أقاربى وعن زملائى لأن البعد عنهم هو سبيل الأمان . . ولو تذكر عبد الناصر أحاديثى القديمة معه لعرف أنه يبحث فى الطريق الخاطىء ولكن جمال عبد الناصر ينسى كل شىء إلا العبارة الصريحة التى تمسه شخصياً ، فهو يذكرها ليحاول فى المستقبل أن ينتقم من قائلهـا .

لقد نسى عبد الناصر كل مقومات الحديث الذى دار بينى وبينه فى بيتى فى أكتوبر سنة ١٩٥٢م بعد الثورة بثلاثة شهور بحضور زميله عبد الحكيم عامر . إنه نسى الحديث الذى دار بيننا ولم يعد يذكر إلا أنى اتهمته فى نهايته بالنزعة الدكتاتـورية .

كان مجلس الضباط الذين ظهروا على المسرح بعد انقلاب يوليو سنة ١٩٥٢ قد قرروا فى شهر سبتمبر أن يتقدموا خطوة أخرى نحو اغتصاب السلطة . فرأوا أن يبدأوا بتنحية الرئيس على ماهر عن الحكم ليضعوا بدلا منه اللواء محمـد نجيب الذين كانوا يعتبرونه إلى ذلك الوقت مثلا لهم ولم يفكر واحداً منهم أن يدخل الوزارة فى تلك الأيام إذ كان الكثير من الثائرين المخلصين لا يزال فى صفوف الجيش وكلهم يرفض استغلال الثورة لمجد شخصى ويصر على أن يظل الجيش بعيداً عن مسرح السياسة والحكم وأن يعود إلى ثكناته بمجرد إجراء الانتخابات العامة . ومن الغريب أن الحجة الظاهرة التى اختارها مجلس الضباط ليعلنوها على الشعب والجيش تبريراً لنقل الحكم من يد الرئيس ماهر إلى يد اللواء نجيب هى أن الأول لم يعجل بإعادة الحياة النيابية للبلاد وأنه يرهق الشعب بالضرائب غير المباشرة على الدخان . . وإذا بالذين حلوا اليوم محله يلغون الحياة النيابية نهائياً ويسرفون

فى الضرائب غير المباشرة على كل المواد الاستهلاكية بصورة أرهقت أفراد الشعب إلى أقصى الحدود .

وفى يوم ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٤ شكلت وزارة اللواء نجيب التى لم يدخلها الأخوان مما أثار ثائرة عبد الناصر وجعله يكذب فى كل ما نشره من بيانات عن اجتماعاتنا معه فى ذلك اليوم وخشى الضباط أن يواجهوا البلد برئيس وزراء عسكرى ولو كان محبوباً مثل اللواء محمد نجيب فأرادوا أن يشغلوا الناس بشىء جديد فألقوا القبض ليلة تأليف الوزارة الجديدة على ثلاثة وسبعين سياسياً من رجال الأحزاب المختلفة وجعلوا من مبنى المدرسة الثانوية العسكرية معتقلا لهم .

وجاء البكباشى عبد الناصر يصحبه الصاغ - اللواء فيما بعد - عبد الحكيم عامر والصاغ صلاح سالم والصاغ كمال الدين حسين إلى منزلى فى ليلة من أوائل أكتوبر سنة ١٩٥٤م ليتناولوا العشاء ويتفاهموا مع بعض زملائى فى تشكيل لجنة وضع مشروع الدستور وفى الوقت المناسب لإعلان الجمهورية وفى إجراء الانتخابات العامة لبرلمان جديد يصدر الدستور الذى كانت الهيئات الشعبية كلها تصر على وجوب الإسراع بإصداره وكان يؤيدها فى ذلك عدد كبير من رجال الجيش وقتذاك ولكن البكباشى عبد الناصر استطاع بمهارته فى الخداع أن يفرق بين هذه القوى ويضربها بعضها ببعض ليخلوا له الجو إلا من المنافقين والضعفاء الذين يعينونه فى تحقيق ما يريد .

وخطر لى - بمناسبة الحديث عن الدستور الجديد - أن أسأل عبد الناصر متى سيفرج عن المعتقلين السياسيين فى المدرسة العسكرية وبينت له أنه من غير المعقول أن يقوم حكم فى وضع مستقر على أساس اعتقال الخصوم . وطلبت منه أن يفرج فوراً عمن لا تهمة توجه إليه وأن يقدم للمحاكمة العادية من قامت ضده اتهامات ما . أن يبقى أشخاص من المواطنين معتقلين فحسب دون سند فهو أمر لا نقبله ونظر إلى عبد الناصر يومئذ متسائلا :

— ما الذى يعنيك من أمرهم وكلهم من خصومكم السياسيين (وهو يشير إلى ما بين تلك الأحزاب القديمة وبين الأخوان من منافسة سياسية) .

— أنا لا تعنيني الخصومة السياسية هنا ، فالاعتقال ليس بسبيل إقناع الخصوم بصحة رأيك .

— ولكنى أعجب من دفاعك عن أصحاب الآراء المناقضة لرأيك وكأنهم أصدقاؤك .

— هم فعلا أصدقائى لأنه يكفينى فى أصدقائى أن يخدم كل منا حرية الآخر فى الاعتقاد المخالف والتعبير عن اعتقاده فمادام صاحبى يؤمن بحقى فى حرية الرأى وحرية الدفاع عن رأيى فهو عندى بمنزلة تجعلنى أدافع عنه كما أدافع عن نفسى .

— هل أفهم من ذلك أن لك أصدقاء من كل الاتجاهات السياسية ؟

— نعم حتى من بين رجالك المقربين :

— فأنت خطر على أمن الدولـــة .

— اعتقلنى إن شئت فى الثانوية العسكرية :

— أنت تستكثر ثلاثة وسبعين سريراً فى الثانوية العسكرية ليت لى فيها اثنين وعشرين مليون سرير . لهذا الشعب كله .

ولم أستطع احتمال هذا القول ولا كدعابة فهاجمته هجوماً شديداً وأفهمتـــه بأنه يريد أن يصبح مشروعاً فاشلا لدكتاتور صغير . . وتحمل منى هو كل هـــذا الهجوم ولم يجد ما يدافع به عن نفسه إلا أن استعان بعبد الحكيم عامر لإقناعى بأنه ما كان يقصد غير المزاح ولكنى لم أخف منه أن مجرد المزاح فى هذه النظرة إلى الشعب ينذر بخطر شديد . وقبلت يومئذ اعتذاره بأنه يمزح ، قبلته على مضض وإذا بالأيام تؤكد أنه كان يهيىء نفسه ليمثل دوراً من أدوار الطغاة الذين وضعوا شعوبهم فى معسكر اعتقال كبير يقال له الوطن ليبقوا هم فى الحكم وليكتبوا لأنفسهم تاريخاً ولو فى صفحات الشر والعار ونكسات البشرية إلى الوراء .

لم ينتبه عبد الناصر وأعوانه لما قلته له قديماً – بحق – من أن لى أصدقاء من كل اتجاه سياسى وفكرى ودينى لأنى أؤمن بحقهم فى حرية الاعتقاد المخالف وأدافع عن حقهم هذا بمثل الحماس الذى أدافع به عن حقى أنا . ولعل جميع من أعانونى فى تلك الأيام قبلوا التعرض لأشد الأخطار من أجلى، كانوا من هذا الصنف من الأصدقاء ، كانوا يخالفوننى فى الرأى وكانوا يختلفون فيما بينهم كذلك .

كان بدر وحده هو الذى يتفق معى فى بعض رأيى وبتحفظات ، أما عطية وأصحابه وأنيس ومختار وثابت وغيرهم ممن تعاونوا معاً لتيسير نجاى فقد كان لكل منهم اتجاه آخر ورأى آخر . كنا نختلف فى كل شىء إذا تناقشنا لأن خلافنا يصل إلى أعماق ما نعتقده من آراء ولكن قسطاً معيناً كان يربطنا بأوثق رباط ، هو إيماننا جميعاً بحقنا فى أن نختلف فى الرأى متفقين فى حقنا على أن نعيش أحراراً كما نحب كرامة الإنسان ونكره سلطان الظلام .

كان هذا الإيمان بالحرية يزيدنا تماسكاً وسيزداد دائماً كلما تصورنا بشاعة ما قاله عبد الناصر لبعضنا يوماً من أنه يريد بعد عامين أن يجلس على مكتب به زران كهربائيان إذا ضغط على أحدهما قام الشعب كله وإذا ضغط على الآخر جلس الشعب كله دون أن يخرج على هذا الإجماع أحد . . وأنه لذلك يريد أن يخلى البلد خلال هذين العامين من كل العصاة وقال له صديق يومئذ على مسمع منى فى ثورة : إن هذا حال الأراجوزات لا الشعوب إنك لن تخلى البلد من العصاة بل ستخليه من الأحرار لتحكم قطيعاً من أغنام أو عبيد ولكن ثق يا جمال أن عهد العبودية لن يعود . .

سيعجب عبد الناصر وأعوانه وسيذكرون كلامنا القديم حين يعلمون أنى كنت أقيم فى منزل ثابت وكان هو يشترك مع البوليس بإرشادهم عن الأماكن المحتمل أن أكون فيها كان يدفعهم دائماً مستغلاً معرفته بما فى أذهانهم إلى بيوت بعض المتصلين بالأخوان المسلمين وباللواء عبد الرؤوف أو الأقارب ولو بعدت صلة قرابتهم بى . وتسير أجهزة المخابرات الحربية والمباحث العامة وراء أرشاداته فتفتش وتفتش ثم لا تجـــدنى لأنى قريب منها أجلس فى بيت ثابت أنتظر منه أنباء ما قامت به الدولة من حملات التفتيش .

كان ثابت يحيا فى بيته حياته العادية له ضيوفه وسهراته ومواعيده غير الطبيعية فى الخروج والعودة وله مشاغله العديدة وكنت أنا أرابط طوال الوقت فى حجرة واحدة أغلقتها على نفسى من الداخل وكثيراً ما أغلقها ثابت من الخارج أيضاً بقفل يحمل مفتاحه فى جيبه ولكنى كنت أجلس معه بعض الأوقات حين لا يكون عنده ضيوف بالمرة وهو أمر نادر أوحين يأتى إلى بدراً أو مختاراً أو أنيس من القاهرة لزيارتى .

وشاءت ظروف ثابت وأعماله أن يسافر عن البلدة مرتين استمرت إحداهما أسبوعاً كاملا على غير انتظار بقيته فى البيت وحدى . . حريصاً على أن لا أحدث حركة فى ليل أونهار وأن لا أشعل عود ثقاب إذا أظلمت الدنيا حتى لايرى الضوء أحد الجيران وهكذا انقطعت عن التدخين رغم أننى من غروب الشمس إلى شروقها كنت أقضى نهارا أقرأ أى شىء يقع فى يدى حتى أتيت على كل ما يمكن أن يقرأ فى بيت ثابت وهو قليل بالنسبة لمن لا عمل له إلا أن يقرأ فإن غربت الشمس وصليت استلقيت على فراشى التمس النوم فإذا تأخر شغلت نفسى بالتسبيح لأطرد التفكير حتى يجىء النوم ، وكان جارى النشيط غبريال كفيلا بأن يوقظنى مع الفجر حين يعلو صوته يسب زوجته فإذا ردت سبابه استعان بالجيران جميعاً عداى طبعاً ليشهدهم على كسلها وإهمالها ووقاحتها . . وتمنى لو كان مسلماً ليطلقها من فوره ويتزوج غيرها غداً . وحين أنهيت كل ما فى البيت من كتب أصبح هذا الجار النشيط وزوجته وجاراته وسيلة تسليتى الوحيدة أستمع إلى أحاديثهم من الصباح إلى المساء وهم لا يكفون عن الجدل والشجار إلا ليذكروا الماضى القريب والبعيد والأيام البيض والسود ثم إذا بهم يغنون ويصفقون ليعود بعد ذلك الجدل والشجار وقد أوحى إلى هؤلاء القوم الظرفاء الذين لم يعلموا أنى عشت لهم جاراً — بأكثر من مسرحية قصيرة كتبتها وتركتها عند ثابت لا أدرى ماذا فعل بها . أغلب الظن أنها لم تعجبه فمزقها .

وكان عندى من الطعام الأصيل الخبز والجبن والزبد لا أزيد عليه إلا حين يأكل

معى صاحب البيت أو حين يذكرنى بعض أصدقائى بهدية من طعام وجاء يوم فرغ فيه الخبز من البيت فى سفرة لثابت لم يكن ينتظر أن تطول فأكلت الجبن وحده وهو لا يشبع ثم عرفت مكان الكشك وهو طعام يصنع على هيئة أقراص جافة من معجون القمح غير الناضج واللبن ولم أكن قد جربته نيئاً من قبل ولكن اتخذته غذاء وكان القليل جداً منه يشبع فإذا أضفت إليه فى جوفى شربة ماء انتفش وتخمر وملأ بطنى غازاً فلا أستطيع أن أكف عن البيت الساكن جشائى .

وحدث ذات ليلة أن ثار كل الجيران فى الزقاق الضيق وتجمعوا أمام البيت واختلفوا فريقين كل منهما يقسم أنه محق فيما يرى فالبعض يرى أن لصاً داخل بيت ثابت ليسرق مما فيه والبعض الآخر يرى أن قطاً ولج البيت وراح يعبث بمحتوياته . . وراح الفريقان يبحثان عن مفتاح يفتحون به البيت لاقتحامه وأحاطوا المنزل من كل جانب حتى لا يفلت اللص من أيديهم ثم أرسلوا إلى جار يعمل شاويشاً فى المباحث ليقضى بينهم فى خلافهم وليعمل ما يراه صواباً فهــذا الأمر من اختصاصه الرسمى .

وكان كل هذا الهرج لأنى شعرت بالجوع بعد الغروب وقمت أفتح دولابا لأحضر شيئاً من طعام كان ثابت قد وضعه فيه قبل خروجه عصر ذلك اليوم . وما إن فتحت باب الدولاب حتى انبعث صوت من احتكاك مفاصله الصدئة عالياً طويلا . . ى . . ى . . ى . . فأعدت الباب للفور . . فانبعث ذات الصوت ثانية مسرعاً قصيراً . . زى . وعجب من سمع الصوت من الجيران فى هدأة الليل فالبيت لا أحد فيه . خرج ثابت أمام الجيران وأهله مسافرون منذ أيام كما يعلم الجميع وكثر الصخب حول البيت وعلا الدق على الباب وكتمت أنا أنفاسى وجلست على الأرض حيث كنت بجوار الدولاب لا أستطيع حراكاً خشية أن أحدث صوتاً جديداً ستسمعه الآذان الصاغية مهما خفت .

وتصورت جاويش المباحث فى الشارع وسط الجميع وقد راح يحك رأسه ويفتل شاربه ويفكر فى اقتحام البيت ليقبض على اللص الذى لم يرع حرمة جواره

ورحت أتخيل فى أسي بالغ منظرى أمامه إذا دخل البيت فوجدنى فيه . . ماذا أقول له ومامصير ثابت؟ ماذا أفعل؟ هل أحاول الهرب بالقفز من السطوح؟ وماسيكون الأمر لو قبض على المرابطون حول البيت من كل مكان. ؟

ولكن تصوراتى لم تطل إذ سمعت صوت الحاويش أو كنت قد سمعته من قبل بين المترددين على منزل ثابت فينضم إلى رأى القائلين بأن فى البيت قطاً لا خطر منه فيحسم بذلك الخلاف ويذهب كل إلى حال سبيله ورضيت هذه المرة سعيداً أن أوصف بمجرد قط لا خطر فيه وبدأت أتنفس وأسعى إلى فراشي لأنام بغير عشاء .

ومرت الأيام بطيئة وكان أصدقائى يبحثون تدبير مكان آخر لى أكون فيه أكثر أمناً وأكثر حرية فالإقامة فى غرفة واحدة مغلقة مهما اتسعت حال لا يمكن أن يستمر طويلا ثم إن أهل ثابت لا يمكن أن يتركوا لى المنزل طويلا فالأنباء عن إمكان سفرى إلى الخارج لم تكن مشجعة كان أصدقائى يزوروننى بين حين وآخر ولكنى لم أسمع منهم جديداً عن المكان المفروض أن أنتقل إليه .

وزارنى مختار الصامت الهادى يوماً . : فسألته :

— هل تعلم أين يختبىء المجرمون العاديون . . ؟

— نعم . .

— اعتبرنى مجرماً عادياً وابحث لى عن مخبأ على هذا الأساس . . وإلا فلن تجد لموقفى مخرجـــاً ؟ .

— هذا ما فعلنا ولكننا نجد حرجاً فى مفاتحتك فى هذا الأمر . . لأننا لم نستطيع اعتبارك مجرماً عادياً ولكن ما دمت أنت تقر ذلك . فاعلم أنى قد تفاهمت فعـــلا مع «فلان» الذى طالما آوى بعض المجرمين العاديين فنصح بأن تسافر مع شخص من أعوانه إلى مكان بعيد جداً لتعيش هناك كمجرم عادى هارب وعلى الوضع الذى سيقدمك به إلى القوم الذين ستلجأ إليهم هناك . فهل لديك مانع من ذلك إلى أن تتيسر ظروف السفر إلى الخارج . ؟

ولم يكن لدى أى مانع من ذلك . . فأنا فى نظر الدولة مجرم وعلى أن أسعى إلى بقائى هارباً أو كما يفعل أى مجرم عادى .

اتبع جـرة الذئب ...!

جاء اليوم المحدد لسفرى إلى مكان آخر أعيش فيه كمجرم عادى هارب لا يعرف من أعيش معهم حقيقة شخصيتى وكان ثابت ــ الذى أصر على أن يصحبنى فى هذه النقلة الجديدة متغيباً ــ عن البلدة فى بعض أعماله، وعاد مع الغروب فطلب منى الاستعداد للسفر فوراً وبعد قليل كنا فى سيارة مع مختار الذى سلمنى رسالة من بدر وصرة أرسلها إلى لم أعرف وقتئذ ما بها ثم تركنا لأسافر مع ثابت ومحمــود الذى سيقدمنى إلى قوم آخرين فى بلد لم أعرفها بعد :

وأدار ثابت راديوسيارته وكان يذاع تسجيل من تلك التسجيلات التى قيل أنها تمثل محاكمات الأخوان أمام محكمة رأسها جمال سالم الذى كان نائباً لعبد الناصر إلى ذلك الوقت ولم أكن قد تتبعت بعض هذه المحاكمات إذ يبدو أن أصحابى حرصوا على حرمانى من معرفتها لأظل فى حالة معنوية قوية وانبعث من الراديو حين أداره ثابت صوت أعرفه، أجل إنه صوته لكن كيف ذلك . . ؟ هل يمكن ؟ هل قبض عليه . . ؟ ويقينى بين الشك واليقين حتى قال المذيع صراحة إنه هو . . إنه المرحوم يوسف طلعت رئيس الجهاز السرى ، قبض عليه وعلى أعوانه . . قبض عليهم دون أى مقاومة حقيقية .

وأحسست أن عينى غامتا وأن الليل يزداد أمامى ظلاماً وغرقت فى التفكير الحزين على هؤلاء الزملاء الذين سيقدمون إلى المشانق دون ما جريمة ارتكبوها . إن يوسف طلعت الذى أشفق على البلاد من احتلال أجنبى جديد قد يأتى ليفض نزاعاً مسلحاً بيننا وبين عبد الناصر أدى به هذا الإشفاق إلى عدم المقاومة العنيفة وكان يستطيعها ، إنه يحاكم اليوم وتكال له التهم ويحاول مثل جمــال سالم أن يشهر به وأن يسقط هيبته فى نفوس الناس . ولكن الجميع اعترفوا أن تلك المهزلة التى كانت تمثل على صورة محاكمة لم تستطع أن تحطم كبرياء أمثال يوسف طلعت وإبراهيم

الطيب وعبد القادر عودة وغيرهم منذ كانوا شجعاناً فى مواجهة خصومهم الجالسين أمامهم مجلس القضاة وظلوا شجعاناً حتى حين خطوا على سلم المشنقة لقد أعطوا وزملاءهم العالم درساً فى الشجاعة لن ينساه وستخلده الأيام كما خلدت من قبل مواقف الشهداء .

كان كل مستمع إلى صوت يوسف طلعت وأمثاله يستشعر مدى قوتهم وإيمانهم ويحس أن المحكمة كانت أمامهم مجرد أقزام يتطاولون على عمالقة ، ولو علم المستمعون كيف عملت هذه التسجيلات وأين تمت ، لاستطاعوا أن يتصوروها على حقيقتها ، تلك الحقيقة التى عرفوا بعضها من خلال ذلك التزييف الذى عرض على أسماعهم أن تلك الميكرفونات التى نصبت فى قاعة المحكمة كانت مجرد مظهر لا يمثل حقيقة. أما التسجيلات التى أذيعت على الناس فقد كانت تتم فى السجن الحربى تحت عذاب السياط والكى بالنار ونهش الكلاب والضغط على الرؤوس بالسلاسل وغير ذلك من أساليب العذاب التى تنكرها حتى محاكم التفتيش التى وصمها التاريخ بالإجرام والوحشية فى السجن الحربى كانت تتم هذه التسجيلات ثم يدخل فيها المونتاج كل تعديل وحذف ممكنين لتظهر أمام الناس شخصية المتهمين ضعيفة متخاذلة وقد لاحظ البعض منذ سمعوا التسجيلات لأول مرة أن الجلسة كما يقال كانت تستغرق ساعتين لنسمعها كأنها كاملة فى التسجيل فى نصف ساعة وبرغم هذا التزييف برزت شخصية البعض قوية واضحة وشخصية القضاة الذين لوثوا اسم القضاء ضعيفه متخاذلة تلجأ إلى الصياح والكلام الفارغ لتغطى عجزها .

منذ علمت ممن ساهم فى تلك المهازل ثم عذبه ضميره بتزييف التسجيلات الإذاعية وبما وقع من تعذيب داخل السجن حرمت على نفسى أن أتهم واحداً ممن بدا ضعيفاً أمام المحاكمة بالتخاذل فنحن لا ندرى ظروفه ولا حقيقة ما قاله ، ولكن ذلك سيتضح للعالم يوماً (١) .

---

(١) لعل بعض الزملاء يعيننى يوماً فى كتابة ما دار فى السجون خلال هذه الفترة من تاريخ مصر لأن هذه القصة ليست مجال تفصيل ذلك .

إذا وقع فى يد خصوم جبناء ، هذا الجيل المؤمن الذى دوخ الجيوش فى فلسطين وفى أرض قناة السويس والذى حمى الانقلاب العسكرى المصرى فى بدايته أيام كان ضعيفاً أحوج ما يكون إلى من يحميه وقع هذا الجيل فى يد خصوم جبناء لو واجهوه فى معركة سافرة لعرف كل طرف قدره .

وربما بدا على ما اجتاحنى من ألم وأسف وتفكير ، فساد الجميع صمت طويل بعد أن أسكت ثابت الراديو وطال الصمت حتى قطعه ثابت بصوته المرح ودعاباته التى لم يتخل عنها فى أى وقت منذ عرفته ولما كنت لا أدرى إلى تلك اللحظة أى بلد يراد لى أن أعيش فيه ، سألت : إلى أين ؟ فأجاب محمود : إلى بـــلدة ؟ إذ توجد بجوارها قرية صغيرة على حافة الوادى يسكنها بعض البدو طالمـــا أووا مجرمين هاربين من الحكومة :: بشرط الاطمئنان إلى حسن سلوكهم .

ولم أفهم معنى اشتراط حسن السلوك فى مجرم هارب ، حتى علمت فيما بعد أن للمجرمين قواعدهم فى السلوك التى لا تخلو من معانى الشرف والرجولة والنصرة وإن انحرفت عن غاياتها السليمة ، عرفت ذلك فيما بعد ، وكان على بسبب تلك القواعد تبعات أعفتنى ظروفى من بعضها .

واقترح من معنا أن أغير اسمى ، وأن أختار من الآن اسماً جديداً نتفق عليه وأقدم به إلى من أنا ذاهب إليهم لأن ذلك آمن وأضمن فى نجاتى فأجاب ثابت دون أن يقصد اسباغ اسم جديد على فقال : ناجى إن شاء الله . .

وهكذا صار اسمى « ناجى » . . والشيخ ناجى . وعم ناجى عرفت بذلك بين الناس منذ تلك الليلة إلى أن تركت مصر كلها .

وخلعت بدلتى أثناء الرحلة وفتح ثابت الصرة التى أرسلها إلى بدر وسلمنى من بين محتوياتها جلباباً أرتديه حتى يتمشى مظهرى مع من سأعيش معهم ومع شخصيتى الجديدة كم كان هذا الجلباب طويلا وكم تعثرت فيه أثناء سيرى فاعارنى « حامـــد » غيره إلى أن اشتريت جلبابين فيما بعد ، ولكن جلاليب بدر لم تكن غير ذى فائدة

فإني واجهت بها الموقف الأول ، وبقيت أرتديها فى الصحراء لأنها أجلب للدفء من تلك التى اشتريتها أنا فيما بعـــد .

ووصلنا بلدة . . . حيث تقف معلومات من معنا عن الطريق إلى القرية التى نقصدها فوقفنا ، وجلسنا فى مقهى صغير نشرب الشاى إلى أن ذهب محمود إلى أحد سكان البلدة ليصحبنا ويدلنا على بقية الطريق . واستأنفنا السير بعد ساعة وكان الليل قد قارب أن ينتصف فتحسس رفيقنا الجديد صرة الملابس ثم ارتفع صوته فى سكون الليل بعد أن صلى على النبي ودعانا أن نصلى عليه :

ـ اسمعوا يا جماعة . . انتم طبعاً أقارب أو أصحاب . . وأنا الغر يب فيكم ولكن اسألوا عنى تعرفونى أنا لا أطمع فى مكسب ولكن يكفى أن آخذ تموينى بسعر الجملة .

فأجاب محمـــود :

ـ ده شيء مؤكد ، إذا وصلت البضاعة هنا فلك نصيبك هدية . وإذا نزلت المحطة التالية فحقك محفوظ فى مرة أخرى .

ولم أفهم شيئاً من هذا الحوار . . وأثرت أن أسكت فلا أسأل أحد إيضاحاً

وضاق الطريق بالسيارة عند كوبرى محطم فوقفنا . . وهبط محمود وزميلنا الجديد . وبقينا .

ـ ثابت وأنا فى السيارة ننظر وضحك ثابت ضحكته الحلوة الرنانة وهو يقول :

ـ أفهمت ما قال الرجل . . ؟

ـ لا . .

ـ إنه يظننا تجار مخدرات ، ويطالب بنصيبه من الصفقة . آه لو علم الحقيقة إذ لولى هارباً منا رعباً . .

وعلا نباح كلاب حتى كاد أن يغطى على صوت رفاقنا وهم يصيحون فى جوف الليل : يا شيخ أحمـــد . . يا حامد . . يا شيخ أحمـــد . . ثم انقطع النداء ، وهدأت الكلاب . وظهر بعد قليل على الدرب شرق الكوبرى المحطم ذبالة سراج يتراقص نورها . وقدم محمود ومعه شابان آخران – عرفتهما فيما بعد أنهما حامد وعليان أولاد الشيخ أحمد – فصحبونا فى طريق موحل إلى بناء قائم قام أمامه عش صغير من البوص وجلسنا . . وبدأوا يوقـــدون النار ويغلون الشاى ودار حديث قصير حول حرص الحكومة على القبض على الأفراد الهاربين وأوضح الشيخ ما تلقـــاه اليوم من تعليمات فى المركز بالإبلاغ فوراً عن أى غريب يقدم القرية خشية أن يكون أحد الهاربين وسألنى الشيخ رأيى فبلعت ريقى بصعوبة وأنا أتمتم : طبعاً . . طبعاً . . هذا واجب . .

وانصرف ثابت ، وتـــرك معى محموداً ودعانا صاحب البيت حـــين أوغل الليل – إلى القدوم داخل البيت ، وسار أمامنا . ولم أر شيئاً على ضوء الذبالة الخافت ، الذى انطفأ لفراغ الزيت بمجرد أن عرفت مكانى فى الفراش وكانت ليلة لن أنساها نمنا ثلاثة على ما يشبه سرير ونام الشيخ أحمد – صاحب الدار – والشيخ حسين المطالب بنصيبه من المخدرات على الأرض بجوارنا .

ولم يغمض لى جفن حتى الصباح . وظل صاحب البيت ساهراً هو الآخـــر فقد كنت أسمع سعاله وحركاته بين السيجارة والأخرى يشعلها ، أما أنا فما سعلت وما تحركت وما أشعلت سيجارة ظللت ساكناً أرقب الصباح وما يأتى به من جديد إن الرجل لم يسأل بعد من أنا لأنى لم آكل عنده طعاماً كما علمت عن سلوك هؤلاء الناس فماذا سيكون الوضع غداً حين آكل ثم يسأل ؟ لعل الشيخ حسين نقل إليه ما فهمه من أننا تجار مخدرات . ولكنه سيعلم قطعاً أننا لسنا كذلك .

وسيسمع القصة المخترعة التى سيرويها له محمود . ولكن هل سيصدق أم سيستنتج الحقيقة ؟ وطفقت أفكر فيما قاله الشيخ عن الاجتماع الذى عقد فى المركز وضم كل شيوخ القرى التابعة وحضره ضابط من المخابرات الحربية أوصاهم

بالإبلاغ عن كل غريب يطرق القرية بغض النظر عن شخصيته وإلا تعرضوا لأشد العقاب » وبهذا يمكن للدولة أن تقبض على كل ما يأوى إلى الريف ، وظل الضابط يسيء إلى سمعة الإخوان وسمعة كل هيئة شعبية معارضة للحكومة ويمجد لهم فى شخصية عبد الناصر ويصور قوة الحكومة وحزمها ولا شك عندى أن هذا الاجتماع تكرر فى كل المراكز إذا وصلت أنباؤنا واتخذت إجراءات مطاردتنا حتى إلى تلك القرية النائية التى لم أكن أعلم لها وجوداً على خريطة القطر المصرى. هب أن الرجل رفض إيوائى ، أو لم يصدق الأكذوبة التى سيقصها عليه محمود غداً . . ماذا سيكون عليه الوضع ؟ ليس فى القطر أبعد من هنا عن عين الدولة التى تطاردنى إن مشكلة الخارجين على الحكومة فى حبدها ضيق الوادى وانبساط أرضه وانعـــدام أماكن التجمع والاختفاء فيه . . أما الصحارى فلا أظن أن فيها — وهى قاحلة — من مقومات الحياة ما يمكن لقوم أن يعيشوا فيها طويلا ولعل هذا العنصر الجغرافى له صلة بقلة الثورات فى مصر . وباضطرار المصريين وهم محصورون فى الوادى لقبول الظلم فترة طويلة تمكنهم من التجمع بين الناس حين تغفل عنهم عين الدولة .

وبعد ليل طال حتى كاد أن يخمد أنفاسى أخرجنا من الغرفة المظلمة التى نمنا فيها فطالعنا الصباح بفجر بارد . وتحلقنا حول نار أوقدت فى العشة القائمة أمام البيت . وعلى ضوء المصباح بدأت أتبين بعض ما حولى .

يفتح باب البيت المبنى من اللبن (الطوب الأخضر) إلى جهة الشرق حيث يمر الداخل إليه على يساره مباشرة الغرفة التى قضينا الليل فيها بغير نوافذ ولا أبواب إلا فتحة صغيرة ندخل منها . وأمام البيت فى الركن الجنوبى من واجهته تقوم تلك العشة الصغيرة من بوص الذرة لا تتسع لأكثر من أربعة أشخاص يحيطون بالنار وحول المكان أرض زراعية لا يزال أغلبها أسود اللون محروثاً فى انتظار زراعة لم تتم . وعلى بعد خطوات منا تبدأ الصحراء الصفراء حيث يقوم غير بعيد — فى تقدير النظر — جبل قاتم لا يزال يحجب عنا الشمس التى ربما قاربت الشروق . وتلفت حولى أبحث عن مساكن القرية فما وجدت غير كوخ صغير علمت أنه لأرملة توفى عنها

زوجها فآنست جوار الشيخ أملا فى نصرته وعطفه ، أما البلدة ذاتها فعلمت أنها تبعد عنا أكثر من كيلو متر إلى الجنوب الشرقى ، وآثر الشيخ أحمد ـ صاحب الدار ـ أن يسكن بعائلته بعيداً عنها لأمور لم أكتشفها إلا بعد حين .

وأخرجت البهائم من البيت ـ كما أخرجنا نحن من قبل ـ فربطت غير بعيد عنا أمام كومة صغيرة من البرسيم الأخضر وأكوام كبيرة من البوص اليابس . . وراحت تأكل منها مطمئنة وجيء لنا بالطعام وكنت جائعاً فلم أستطع أن آكل منه ما يكفى إذ كان ملتهبا فأحرق فمى وحلقى ومعدتى أيضاً ثم جيء بالشاى وانتحى صاحب البيت لحظات بمحمـــود الذى جاء بى إلى هنا ليقص عليه قصتى المخترعة : ناجى « الذى هو أنا » رجل من أبناء جيرتنا . حدث خلاف بين عائلته وعائلة أخرى على زراعة . وفى الليل قتل رجل من العائلة الأخرى فى الحقل بمقذوف نارى . واتهم بقتله ناجى واثنان من أقاربه . فآثر أهل ناجى أن ينزل البلدة موقتاً إلى أن ينتهى التحقيق ويتضح تصرف النيابة فيه . والقتيل به إصابة واحدة والمتهمون ثلاثة ، والقتل وقع ليلا ، ولا شهود عليه فدليل الاتهام مزعزع .

إذاً ، لا مخدرات فى الموضوع فانصرف الشيخ حسين الذى كان يطمع فى نصيبه مما نجلب من مخدرات وجاء صاحب البيت يطمئنى أن مثل هذه القضايا التى اتهمت فيها لا تثبت عادة على المتهمين وأن مصيرها البراءة وروى لى أنه هو كثيراً ما اتهم فى أمثالها ثم برأته المحكمة برغم كثرة الشهود فما بالى أنا ولا شهود على . وراح يقص على قصصاً مفصلا كنت أسمع أثناءه بعض زملائى السابقين فى النيابة مشفوعة بأقذر سباب لأنهم حبسوه احتياطياً وقدموه للمحاكمة . . ولكن المحكمة كانت تبرئه دائماً .

وبدا لى أن الرجل مقتنع بالقصة التى اخترعناها له . وكنت قلقاً من هذه الناحية إذ كان قد فاجأنا فى الصباح بعد الفطور بقوله : أنا مستعد أن آوى القاتل والسارق وشيخ المنصر وتاجر المخـــدرات . . المهم أننا لا نقبل واحداً من طائفة الإخوان . . وخفق قلبى فى صدرى وانبعث صوتى مضطرباً : طبعاً . . طبعاً . . دول أعداء

الحكومة . . » فصدق الرجل على قولى وأضاف : صحيح . . وغير هذا . فنحن رجال عبد الناصر بدون استثناء . . « وقلت فى سرى يا رب استر . . »

أما الآن ، فالرجل يطمئن على مصير قضية قتل الرجل ليلا فى الحقل فهو مقتنع وهو يقرر قبوله إيوائى ما دمت سارقاً أو قاتلا أو قاطع طريق أو تاجر مخدرات وأنا الآن فى نظره لا أخرج عن ذلك . وهمست لنفسى : كادت أن تسد الأبواب أمامى ثم سترها الله . . وصدق الرجل قصة قتيل الليل بالحقل . . »

ثم عرض محمود وأبناء الشيخ أن نذهب إلى القرية لنقضى بعض الوقت مع شبابها ولكن الشيخ رفض فى إصرار مشيراً علينا بالذهاب إلى بلدة أخرى بعيدة وكان فى صوته من العزم ما ألزمنا أن نستجيب لأمره ، لم أفهم ساعتئذ مقصده ، علمت بعد حين أن الرجل لا يريد أن ندخل القرية التى فيها قومه ، لأنه لم تنطل عليه خدعتنا ، وإنما جارانا فيها موقتاً على نية أن يصرفنا عنه بالحسنى .

ولما عدنا من نزهتنا ظهراً وجدنا الشيخ أحمد قد أحضر أكبر أبنائه حسان الذى يقيم مع زوجته فى الغربة . وأعدا لنا حجرة فى أعلى البيت ، نصعد إليها بسلم متهدم ضيق يتعرض الصاعد فيه والهابط منه للسقوط فى كل خطوة وهناك بأعلى البيت فى تلك الغرفة المنعزلة تناولنا غذائنا وردد الشيخ أثناء الغذاء على مسامعنا أنه يقبل إيواء القاتل والسارق وقاطع الطريق وتاجر المخدرات ولكنه لا يقبل بحال إيواء واحد من الإخوان الذين هم أعداء عبد الناصر الرجل القوى الحاكم والذى يعتبره الشيخ وأهله وبلدتهم أنفسهم من أتباعه المخلصين .

وأفقدنى حديث الشيخ المعاد شهيتى للطعام وأنا أشد ما أكون جوعاً وانتهزت فرصة عرضت لأهمس فى أذن محمود الذى أحضرنى واخترع قصة القتيل ليلا :

ــ إما أن نخبر الرجل بالحقيقة ، وإما أن ننصرف ، فأسلوب الرجل واضح فى أنه يقصد صرفنا عنه .

ولكن محمود أمهلني قليلا ، وطلب مني أن أعتمد عليه وأترك له التصرف في هذا الأمر بالأسلوب المناسب ، فعزمت في نفسي . على مخالفته والتصرف وحدي بوضوح عند أول فرصة تعرض . وتبين لي أن محموداً نفسه لا يعرف من أمري شيئاً كثيراً ، وأنه يمتثل لأمر رئيسه الذي بعثه بي في هذه المهمة . وانتحى محمود والشيخ مرة أخرى ودار بينهما همس اشترك فيه أحياناً بعض أولاد الشيخ : وحاولت جهدي أن أنصت إلى ما يقولون ، فالأمر ولاشك يعنيني ويحدد مصيري . ولكني لم أسمع إلا غمغمة غير واضحة حتى ندت من محمود عبارة استطعت أن أتبينها بوضوح وإن لم أحدد مقصودها وعلى من تقال : سمعت — محموداً يقول : إن خفتم على أنفسكم منه فاقتلوه . . والأرض واسعة تبتلع كل أثره .

وبعد قليل صرف الشيخ كل من كان معنا في الغرفة بلباقة أشهد له بها ظننت معها أنهم على اتفاق سابق أن يتركونا وحدنا . وجلس الشيخ وصب لي ولنفسه كوب شاي أسود ونظر إلي في ثبات وهو يقول :

— اسمع يابني . . أنت لست من جيرة محمود . . ولست من سكان الريف إطلاقاً ولم تتهم في حادث قتل في الحقل . . لا مظهرك ، ولا لغتك ولا أسلوبك في الحديث والطعام ولا تعثرك في جلبابك الواسع الذي ترتديه لأول مرة على ماأظن ولا الصرة المزخرفة التي تحملها وما فيها من أدوية وملابس . . لاشيء من هذا كله يسندك في زعمك . أغلب الظن أنك واحد من الإخوان فإن كنت كذلك فأبلغني من أول الأمر ، ولا تحرجني أكثر من ذلك فالدولة أقوى من أن تقف في طريقها .

وكان في صوت الرجل صدق وإخلاص فوجدتني أقول له ببساطة وفي صدق وإخلاص أيضاً .

— يا عم أحمد . . . أسمعت عن اسم « حسن العشماوي » :

— نعم سمعت . . وأنه مجرم . . مجرم خطير ذكروه لنا بالاسم فى اجتماع المركز أمس .

— أنا حسن العشماوى نفسه . . وأنا متهم فى القضايا الحالية . . ومطلوب القبض على ليحكم بإعدامى وإعدام كل من يأوينى أو يساعدنى على الهرب . . . هذه هى الحقيقة كاملة والتى لا يعلمها محمود الذى جاء بى إليك . . أصارحك بها الآن لترى رأيك وتتصرف على نور ، قبل أن تتورط فى شىء ثم يظن أحدنا أن الآخر يخدعه فإذا قبلت إيوائى على هذا الوضع فأجرك عند الله ولن أستطيع لجميلك وفاء . . وإذا رددتنى فأنت مشكور ويكفى أنك لم تسلمنى للحكومة .

ووضع الرجل كوب الشاى على الأرض التى نجلس عليها ، وترك الغرفة صامتاً مقطب الجبين ، انصرف عنى دون كلمة . . انصرف لا أدرى إلى أين . .

ومر الزمن بطيئاً كاد أن يتوقف كنت أستنبىء الساعة عن الدقائق عسى أن تمر فتماطلنى ولا تأذن إلا للثوانى أن تخطر متثاقلة لا تريد أن تمضى . كذبت الساعة أكثر من مرة ولكن أذنى أكدت لى أنها تدور . وجال بخاطرى كل سوء ولم أستطع أن أفسر شيئاً مما أسمع تفسيره المعقول فهبوب الريح وصفعة الباب ونباح الكلب وهمس المارين فى الطريق أو الجالسين أسفل الدار . كل ذلك كان يعنى عندى شيئاً واحداً . . وهو السبيل إلى ظلمة السجن . وأيقنت أن الأمر قد انتهى وأن القضاء قد ضم . ولم يعد لى من مواجهة عذاب السجن مهرب .

وعدت الساعة فى حساب الزمن عشرة دقائق . . عشرة دقائق فقط لست أدرى فى كم من الساعات مرت . وانبعث أنين السلم المتداعى تحت أقدام لعلها عشرات الأقدام أو مئات . . إذ قد تم كل شىء . وبهذه السرعة ، ونسيت أنى كنت من لحظة أستثقل بطء الزمن .

ودخل الرجل الغرفة . . دخل وحده . . فتعلقت عيناى بوجهه فإذا به مستبشر مبتسم ما رأيته كذلك منذ قدمت ولم يمهلنى حتى أستوضحه إذ قال جذلان الصوت مع النبرات :

ـ أهلا بك وسهلا بابنى . أنت نزيلنا وضيفنا ما شئت من وقت . وأقسم بالله أن لن أسلمك حتى أموت أنا وأولادى الثلاثة دونك .

وجلس على الأرض بجوارى يرشف الشاى الذى كان قد برد من طول انتظاره . .

لن أستطيع أن أصور شعورى عندئذ لم يزد لسانى عن أن قال : الحمد لله أما عيناى فقد حجبتهما بشال عمامتى لأخفى ما انساب منهما من دموع أهى دموع فرح أم دموع شكر أم دموع إعجاب أم دموع فرج بعد ضيق . . ؟ لا أدرى ، واحترم الشيخ دمعى الصامت ، فشاركنى بدمعة واحدة ندت برغمه من جفنيه الجامدين فأزالها بظهر كفه فى صمت .

وعلمت فيما بعد أن الرجل تركنى ليستشير زوجته وأولاده لأنهم هم الذين سيحملون العبء كما يقول إذ قد كبر سنه . وكان سؤاله لهم فى صورة عنيفة قاسية .

ـ هذا الرجل الذى بأعلى البيت نار تحرق . . فهل أنتم على استعداد أن تمسكوه ولو أحرقكم ؟ أما أنا ، فقد كبرت سنى ، وسأمسك الرجل إن خشيتم على شبابكم منه وسأتصرف به بعيداً عنكم حتى يقضى الله فينا أمره . . فأنا به معجب هذا يكفينى .

وقبل الأبناء الثلاثة أن يشاركوا أباهم العبء وكم كان الشيخ سعيداً وهو يردد لى فى إعجاب ما قالته زوجته ـ وهى أول من أجاب ـ حين استشارهم لقد جربنا الضيق وخبرناه والله ما جاء بمثل هذا الرجل إلى مثلنا إلا الضيق الشديد فلا تسد بابك فى وجهه فما كان لك أن تترك رجلا قصدك فى ضيق أبداً . لقد جربنا اللص والقاتل . فلنجرب مرة أن نأوى رجلا شريفاً يصلى .

ولما سمع الشيخ منها هذا الكلام أحس أنها تشاركه مشاعره وآراءه فى شجاعة. سعد كل السعادة فدخل على الغرفة والبشر يطفح من وجهه .

ولم يعد بعد ذلك محل لبقاء محمود الذى قادنى إلى هذا المكان — أو هكذا رأى الشيخ أحمد — فصرفه فى صبيحـــة اليوم التالى . ثم تركنى مع أولاده فى البيت يوماً ، وسافر لحضور مجلس عرفى لفض نزاع عائلى فى بلد قريب ، بعد أن أن أوصانى أن لا أبرح البيت ولا أقابل أحد من أهل البلدة ولما عاد من سفره جلس ينصحنى أن لا أقيم فى الريف ، فاحتمال التفتيش فيه قائم دائماً وأنه أصبح على أن أواجه المشقة القادمة مهما بلغت وإن لم أعتدها من قبل فللحرية ثمنها الغالى وأكد وجوب شعورى بأنى لست مجرما عادياً وإن اتبعت أسلوب المجرم العادى فى الهرب بل أنا خصم دولة .. دولة قوية يرهبها الناس تبحث عنى وعن أمثالى فى كل مكان لتستأصلنا . وتطرق من ذلك إلى الصحراء ذكر مشقة الإقامة فى الصحراء حيث اتخذها بعض المجرمين العاديين ملجأ هناك فى الصحراء حيث الأرض فرشنا وحيث الصخر وسادتنا والسماء المكشوفة بيتنا . . هناك فى الصحراء حيث لا ناس ولا ماء ولا طعام ولا خضرة ذلك اللون الذى أصبح جزءا من أعصابنا معشر سكان الوادى وختم الرجل حديثه الطويل متسائلا :

— هل تعلم لماذا يقيم الذئب فى الصحراء . . . ؟

— لا

— يابنى . . إن الذئب هجر الوادى وخيره وخضرته وسكن الصحراء لأن أصحاب الوادى له أعداء . وأنت يابنى خاصمت رجال الدولة فكلهم لك عدو . . . وهم اليوم أصحاب الوادى . . فاتبع جرة الذئب إلى الصحراء فهى مأمنك الوحيد .

وكان ما أراد الشيخ . . قبلته رضى النفس هادئاً لعلمى أنه يريد الخير والأمن والسلامة لنفسه ولأهله ولى ولو أنى مارضيته لفعلته فليس لى فى هذا الأمر خيار وقد صرت وحدى عند هؤلاء القوم بعيداً عن كل من أعرف من الناس .

ولما أصبح يوم ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٥٤ غدا الركب الصغير منذ الشروق يحث السير متعقباً قرص الشمس فى الصحراء . . حتى حلت هذه البقعة لأقيم فيها مع الذئاب زمناً كان أضعاف ما قدرت . . . وما قدر غيرى .

سلوك المجرمين .. وفلسفة الذئاب ...!!

الشيخ أحمد – الرجل الذى أوانى – رجل يزيد عمره عن الستين عاماً ولكن بكم من السنوات بعشرة . ؟ بعشرين .. ؟ هذا مالا يدريه هو ولا يدريه غيره فهو من قوم لا يتقيدون فى سجلات المواليد ولا فى سجلات الوفيات ولا يعنيهم من أمر سنهم إلا أنهم قادرون على الحياة والكفاح فى سبيلها وهو طويل القامة عريض المنكبين مفتول العضلات وجهه القريب إلى البياض من وجوه كل من رأيت فى هذه البلاد تطالعك فوق حاجبه الأيسر ندبة عميقة لجرح قديم قدم حياته نفسها ولم يحدثنى يوماً عن تلك الندبة ومن أين جاءته ولعلها أثر من آثار الشباب البعيدوما فيه من عراك بالعصى والسكاكين وللشيخ لحية بيضاء مستديرة تتسق مع وجهه كل الاتساق قد اتخذها أخيراً لنفسه كدليل براءة فى آخر قضية مثل فيها أمام محكمة الجنايات بتهمة القتل .

وللشيخ ماض عريق فى الإجرام لا ينكره ولكنه تاب عن الجريمة منذ سنوات والتوبة عن الجريمة تعنى التوبة عن البدء بها لا عن اللجوء إليها أياً كان نوعها للانتقام وقد قدم الشيخ إلى محكمة الجنايات أربع مرات فى جرائم لاتقل خطورة عن القتل والسطو المسلح وخطف الأشخاص واتهم فى عشرات الجنايات الأخرى ولكن الإتهام وقف عند التحقيق ولم تبلغ فيه الأدلة مبلغ الكفاية للمحاكمة وهو لم يحكم عليه فى جريمة أبداً ولكنه دخل السجن متهما وبقى فيه شهوراً على ذمة التحقيق أو المحاكمة وهو يكره السجن . لا لأن الحياة فيه أسوأ من الحياة خارجه ولكن لأنه يعشق الحرية لذاتها فهو كالطير يحب حريته مهما كثر حوله الصائدون ويكره القفص وإن أمن فيه على حياته وضمن قوته . أو هو كما يقول كالذئب يعشق حريته وإن كان كل الناس له أعداء . . . وكان للشيخ كثير من الأعداء يتمنى كل منهم أن يصرعه ليثأر لنفسه من قتيل قديم أرداه رصاص

الشيخ أيام إجرامه أو أيام قوته ولهذا لم يأمن الرجل سكناه فى القرية واتخذ لمنزله مكاناً بعيداً على الحافة بين الزراعة والصحراء .

وللشيخ ماض وحاضر فى إيواء المجرمين من كل نوع . وبهذا الماضى والحاضر ذكرته زوجته حين تحمست لإيوائى فليس إيوائى بأشق عليه من إيواء رؤساء العصابات الذين كانت تطاردهم الدولة شهوراً بحشود من رجال أمنها ثم إن إيواء رجل شريف يصلى (كما تقـول زوجته) فيه نوع من التجديد أحب الشيخ أن يختم به حياته . وعلى هذا الأساس من تجربة نوع جديد من الإيواء . – فى اعتقادى – بدأ إيوائى وإن تطورت النظرة إلى بعد ذلك . والشيخ لا يعتبر إيواء المجرمين . – أياً كانوا – جريمة أو خروجاً على القوانين ، بـل يعتبره شهامة ونخوه يلزمه بها مجرد إعجابه بمن يلجأ إليه . وهو يفخر دائماً بأنه لم يسقط فى يـد الحكومة شخص أواه – مادام عنده – وإنما سقط حين غادره بإرادته أومطروداً لأنه أخل بحسن السلوك الواجب عليه .

والشيخ يدخن كثيراً ، ويحب من أنواع المخدرات الأفيون ويكره غيره ويأكل قليلا ولا ينام الليل أبداً وإن عينه لا تستطيع أن تغمض مادامت الشمس غائبة عن السماء كما قال لى : فإن أشرقت استطاع أن ينام قليلا وقد علمته ذلك مهنته القديمة حين كان يعمل لصاً يسطو على الناس ويقطع الطريق ليلا وظل كذلك بعد توبته يحمى نفسه وبيته حين ظل خصومه يطاردونه عسى أن يأخذوا منه بثأر قتيل من ذويهم .

وللشيخ زوجة لا يمكن أن تعرف سنها فهى فى الثلاثين أو الأربعين أو أكثر من ذلك أو أقل كثيراً . وإن كان لها ابن جاوز الثلاثين بعدة سنين وهى عنيفة عنيـدة عنف زوجها ولكنها – رغـم قساوتها – تكره السرقة كمورد للرزق فهى متدينة فى حدود فهمها المتواضع للدين ، تؤمن بالخرافات وبحقها فى قتل من يحاول سرقة شئ منها .

كم أطلقت النار على من حاول السرقة من البيت ليلا حين يغيب زوجها

وأولادها وكانت لا تغفل عن إخفاء السلاح إذا طلع النهار وإخراجه من مخبئه إذا أقبل الليل . . وكان الناظر إليها يحس حبها للسلاح وهى تحمله كما تحمل أم طفلها وكانت الزوجة تطيع زوجها وتخشاه ولكنها لاتخف رأيها المخالف لرأيه إذا استشارها ومن الغريب أن تجد فى مثل هذه الأوساط بمصر رجلا يستشير زوجته وكثيراً ما يأخذ برأيها . وكانت تلك المرأة كثيرة الأحلام على نحو غير طبيعى فهى لا تكاد تغمض عينها فى ليل أو نهار حتى ترى أحلاماً وهى تهتم بأحلامها وبتفسيرها اهتماماً بالغاً وتحدد الكثير من تصرفاتها على ضوء ماتفهم من الأحلام التى رأتها .

وللزوجة من الأولاد الذكور ستة أبناء – ثلاثة رجال وثلاثة أطفال ولها من الإناث خمس بنات بقى فى البيت منهن طفلتان وتزوجت الباقيات وبرغم هذا العدد الوافر لم يستطيع الشيخ الجامد المشاعر كما يبدوا أن يمنع أساه بل دموعه كلما تذكر طفله الذى مات منذ سنوات بمقذوف نارى أطلقه على نفسه لأن أخاه ضربه أمام الناس فشعر الطفل أن كرامته مست وأن لا رد لها إلا بالقتل ولم يرد أن يقتل أخاه فقتل نفسه . وقد ورث الإبن الأكبر من أبيه المقدرة على الحديث والمرح وأخذ الثانى كل ما فى أبيه من قسوة وإقدام ولم يأخذ الثالث إلا خفة الحركة فى المسروقات ليلا وبدأت تتكون فى الصغار ملامح الشبه بأبيهم ولكنها لم تحدد بعد وقد ظل هؤلاء الأبناء والبنات أولاد عمى طوال إقامتى فى مصر . وظل الأطفال الصغار منهم فى حكم أولادى على أن أرعاهم وأن أزورهم كل حين حتى بعد أن تركت الصحراء وتركت البلد نهائياً وعشت وحدى بعيداً عنهم .

وللشيخ إبن لعله جاوز المائة من عمره . ولا يزال يعيش فى أحسن صحة وله إخوة كثيرون لم أرهم إلا مصادفة فيما بعد ، وكنت قد تركت الصحراء وتركت الريف فلم يعرفوا عنى إلا أنى صديق لأحد أولاد الشيخ تعرف بى أثناء مرضه ومهما كان فى هؤلاء الأخوة من صفات الشيخ فقد ظل الشيخ فى حياته وبعد موته نموذجاً فريداً لم ألق فى محيطه من يدانيه .

وللشيخ من أولاد عمومته الكثيرين ، ابن عم إسمه فرحات . كان أحد أفراد عصابته منذ كان غلاماً صغيراً . واعتزل الشيخ السرقة واشتد ساعد فرحات وظل يعمل لصاً أغلب إقامتى عندهم وفرحات موضع ثقة الشيخ ولذلك اختاره دليلا لركبنا الصغير يوم سرنا إلى الصحراء وترك له اختيار المكان الذى سأقيم فيه وإن لم يرض هو عن المكان كل الرضى حين جاء لزيارتى يوماً .

وكان لهذه العائلة قديماً مورد هام هو السرقات . وكانت السرقات تدر عليهم ربحاً طائلا يمثل نصيب الشيخ وهو رئيس العصابة فى المسروقات وفى « الحلـــوان » الذى يقبضه إذا رد بعض المسروقات لأصحابها وفى الإتاوة التى يفرضونها على الناس ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم من الاعتداء ولكن الشيخ ترك السطو وملحقاته ولم يعد مورد رزق للعائلة بل صار الأبناء يدبرون منه ما يواجهون به مصروفاتهم الشخصية ، والأم تعلم ذلك فتثور والأب يعلم فيبتسم ثقة منه أن هذه سنة الحياة وأنهم سيقلعون عن السطو يوماً كما أقلع هو . وبقى لهذه العائلة الكبيرة موردان للرزق بعد انقطاع الأب عن السطو . أما المورد الأول فهو الزراعة وهى زراعة لا تكفى للقيام بأود عائلة ، فدان ونصف استأجرها الشيخ وأضافها إلى فدان يملكه ولا يدرى أحد بسند ملكيته له . ولكن أحداً من الناس لا يستطيع أن ينازعه فى ملكيته ولا المالك الأصيل وهذه الأرض كلها لا تكفى الأسرة خبزاً والبهائم علفاً ، أما المورد الثانى فهو « الحراسات » وهى تكاد أن تكون تطوراً من الإتاوة القديمة . فالشيخ يقوم بمجرد اسمه وخشية الناس منه بحراسة ما يقرب من مائة فـــدان ويتقاضى على هذه الحراسة أجراً مجزياً ولكنه لا يترك بيته يوماً ليعرف حدود تلك الأراضى التى يحرسها إنه لايخرج إلى الأرض إلا عند المحصول ليقبض أجر حراسته ، لأن اسمه وحده هو الذى يحرس الأرض . . وغيره من المجرمين يراعون ذلك .

ويعتبرون من قواعـــد حسن السلوك عندهم أن لا يعتدوا بالسرقة على أرض يحرسها الشيخ أحمـــد .

كان الشيخ أحمد يحدثنى عن حياة الجريمة وسلوك المجرمين ويذكر زملاء

ماضيه وأساليبهم وأسماء من أوى من الناس . وأشهد أنه كان يذكر فى بعض الأحيان أسماء معروفة لكل مصرى . إذ شغلت الرأى العام طويلا وشغلت أجهزة الحكومة أشهراً فى طلب القبض على أصحابها ، إنهم رؤساء العصابات المشهورة التى أخلت بالأمن وفرضت سلطانها على مناطق واسعة ، لجأوا فى وقت من الأوقـات إلى هذا الشيخ الذى ألجأ إليه الآن . وقد اتبع أكثر هؤلاء الذين أواهم الشيخ قواعد حسن السلوك . فظلوا عنده حتى أرادوا السفر عنه فأذن لهم. أما من خالف منهم تلك القواعد فقد لقى جزاءه المقرر دون رحمة . والعقوبة عندهم تتراوح بين التوبيخ العام والطرد والقتل. أما تسليم الآوى إلى البوليس والوشاية به لديه ، فليسا من الثغرات المسموح بها عندهم لأنها خسة يرفضها حتى أشد الناس إجراماً وأما طرد اللاجىء فلابد أن يكون ذلك بعد إخطاره وإتاحة الفرصة له أن يدافع عن نفسه ولا يجوز القتل إلا فى حالات الضرورة القصوى أما التوبيخ العام فقليلا ما يلجأون إليه إذ يغلب أن يرفضه المجرم الآوى فيصبح جزاءه القتل أو الطرد ، وإذا قتل المجرم الهارب عند من أواه فإن جثته لا يعثر عليها أحد إذ لا يلتزم قاتله فى هذه الحالة بتسليم جثته إلى أهله أو وضعها مكان مطروق كما يجب على القاتل فى الظروف العادية أن يفعل فالقاتل فى الظروف العادية لا يجوز له أن يخفى الجثة ويمثل بها أو يمنع وصولها إلى أهل القتيل وإلا طولب بالثأر مرتين — مرة للقتل ومرة للجثة فيحق لأهل القتيل أن يقتلوا من أهل القاتل شخصين وكم حاولت أن أقارن بين هذه القواعـــد التى يلتزمهـــا مجرد مجرمين عاديين لم ينالوا قسطاً من ثقافة ولا تربية ولا مدنية وبين الضباط الذين يحكمون مصر ويتصدون لقيادة البلاد العربية اليوم . إن أكثر من ثلاثين شخصاً قتلوا أثناء تعذيبهم فى السجن الحربى فلم يزد الحكام عن أن ألقوا بهم تحت رمال الصحراء فى العباسية وأبلغوا أهلهم أنهم هاربـــون . . .

هل هربوا من السجن الحربى بزنزاناته المغلقة وأسواره العالية والمعسكرات المحيطة به . . أم أنهم هاربون منذ البداية مع أن أنباء القبض عليهم نشرت ؟ هذا ما لا يجيبون عليه ، لأنهم حكام لم يبلغوا بعد مراتب المجرمين .

ومن أهم ما يلتزم به المجرم الآوى أن لا يسرق فى البلدة التى يأوى إليها ولا فى القرى المجاورة لها . وليس له أن يصحب واحداً من أهل البلدة معه فى سرقة إلا إذا أذن له بذلك من آواه وهو بعد الإذن مسئول عن سلامة من اصطحبه فيؤخذ الثأر منه من قتل أو قبض عليه . ولمن آوى مجرماً نصيب مما يسرق مادام على علم بالسرقة وإن لم يشترك فيها ، وإذا أراد من آوى هارباً أو أراد أحد أقاربه المقربين أن يسرق أو يقتل أو ينتقم على أى صورة وجب على المجرم الذى يأويه أن يشاركه عمله هذا إذا طلب منه المشاركة . . وإلا اعتبر منكراً للجميل قد يكون القتل له عقاباً .

وكم حيرتنى قواعد السلوك هذه لدى المجرمين الهاربين وأوقعتنى فى المآزق إذ حدث ما خشيته وطلب منى أولاد الشيخ وابن عمه أن أشاركهم فى سرقاتهم أو غيرها من الجرائم ، ولكن الشيخ كان قد أعفانى من بعض قواعد السلوك لوضعى الخاص . فأعفانى على الأخص من التزام المشاركة فى أى عمل أرى أنه لا يتفق ونشأتى أو مبادئى ؟

وكم من مرة جاءنى بعض القوم فى مكمنى بالصحراء يطلبون منى أن أصحبهم إلى سرقة ينوون القيام بها ، أو أن أخفى لهم عندى شيئاً سرقوه حتى يعودوا بعد أيام لاسترداده وكان الطلب يؤذينى فلم أتردد مرة فى أن أجابهم بقرار الشيخ أحمد باعفائى من مثل هذه الأعمال فكانوا يصدعون بالأمر خشية من الشيخ فى حياته ووفاء لذكراه بعد موته ، بل استقر الإعفاء بعد وفاة الشيخ ، وأصبح أولاده لا يطلبون منى المشاركة فى أمر لا أرضاه حتى أنهم بدأوا يستمعون إلى ويتجهون نحو الامتناع عن احتراف السرقة .

ولم يخف الشيخ أحمد عني رغبته فى أن أخرج مرة للسرقة وأبدى استعداده أن يخرج معى على أن لا ننال – هو وأنا – نصيباً وبذلك لا نكون قد ارتكبنا إثماً . . ولكنى اعتذرت واستعنت عليه بزوجته فقبل عذرى وترك لى أن أقدم على ذلك مرة أخرى إذا شئت ونبهنى إلى قاعدة عامة يتبعها السارقون إن خرجوا فى جماعة هى أنه لا يجوز لأحدهم أن يذكر اسم زميل من زملائه فى مكان الجريمة بل ولا أى اسم على الاطلاق فإن أراد أحدهم أن يطلب من الآخر شيئاً ناداه باسم رمزى موحد فى كل الأحوال هو « مرزوق » ولذلك لا يسمع أحد فى مكان الجريمة غير هذا الاسم يتردد فى كل متحدث :

« اضرب يا مرزوق . . احذر يا مرزوق . . اهرب يا مرزوق . . وهكـــذا . وعقاب مخالفة هذه القاعدة هو القتل حتما لمن يذكر اسم واحد من زملائه أو اسما له وجود فى البلدة كلها . وبهذه الجريمة – ذكر اسم أحد الزملاء – قتل فرحات بعد وصولى بأيام مجرماً عاتياً كان يلجأ عند أخيه . وقد لاحظت أن اسم « مرزوق » لا يحمله أحد فى هذه الأقاليم كلها .

كان الشيخ أحمد لا يكره الجريمة بل يحبها وإن أقلع عنها وكانت قسوته وصرامته فى شئون الجريمة وسلوك رجالها لا تحدها حدود . وكنت إذا نظرت إليه – حين يصمت أو يمزح – لا أصدق أن هذا الرجل يخفى وراء مظهره البسيط – الحامد فى ذات الوقت – نفساً قديرة على القسوة والإسراف فيها . ولكن ، لم لا ، أليس مظهر الذئب أنه كلب أنيس ولكنه فى جوهره وحش ضار لا يؤمن .

كان الشيخ أحمد مولعاً بالذئب يتخذه لنفسه مثلا ، ويواجهنى فى كل أمر بمنطق الذئاب لينهى أى مناقشة أخالفه فيها . كان الذئب ومنطق الذئب هو القول الفصل فى كل الأمور حتى ضقت بالذئاب ومنطقها ذرعاً كم جرت بيننا مناقشات قصيرة كانت نتيجتها دائماً أن أسلم برأيه وبمنطق الذئب دون اقتناع فإنى لا أملك معه غير التسليم . فقد علمت منه يوماً – فى سقطة لسان – أن من الشروط التى ارتضاها من ذهب بى إليهم أن يقتلونى رمياً بالرصاص ويتركوا جثتى طعاماً

لجوارح الوحوش والطير إذا صرت يوماً ما مصدر خطر عليهم فى أى صورة دون ما حاجة إلى إخطارى قبل القتل . وهكذا فسرت لى الأيام تلك العبـــارة التى فاه بها محمود فى همسه مع الشيخ صبيحة حضورى فسمعتها وخشيتها ، صحيح أن الشيخ ألغى تمسكه بهذا الشرط كما قال وقبلنى – بعيوبى كلها – لاجئا فى وضع خاص . ولكنى كنت أخشى دائماً تنفيذ هذا الشرط يوماً وإن حرصت على اخفاء هذه الخشية خاصة بعـــد موت الشيخ وانفراد أولاده بأمرى وكان ثباتى فى مواجهة الأبناء بما يخالف آراءهم مبعث أمن لى . تسليم من جانبهم بما أريد ما دمت لا أأذيهم فى شيء أما الشيخ نفسه فاعترف أنى لم أجرؤ على مخالفته وكنت أعجز أمام منطق ذئابه .

كنت أبيت ليلة بمنزل الشيخ فمرضت مرضاً اشتد بى حتى رأيت الموت يكاد أن يختطفنى من بين القوم . ونقل النبأ إلى الشيخ فقال ببساطة : أعطوه قطعة أفيون مذابة فى قليل من الشاى . . وقيل لى ما أمر به الشيخ فرفضت وجاءنى الشيخ بنفسه ليقول لى :

– اسمع يا ابنى . . إذا كنت فيما مضى تتردد على الطبيب حين تشكو ألمـــاً فإنك اليوم لن ترى الطبيب أبداً . فقد قلت لك مراراً ولا أدرى متى تفهم أنك كالذئب تماماً . والذئب إذا مرض لا يذهب إلى الطبيب . إنه يبرأ من مرضه بما يأكل أو يموت بعلته .

– ولكنه لا يأكل أفيوناً ليبرأ من مرضه .

– لو عرف الذئب الأفيون لاستعمله . . ولكنه لا يعرفه .

– ولو عرف الذئب الطبيب لذهب إليه .

– لا . . فالذئب لا يأمن إنساناً ، ولو كان طبيباً .

وتجمعت على الخشية من المناقشة وشدة الألم واليأس من الشفاء فأخذت قطعة أفيون كما أشار فسكن ألمى . ثم تكفلت حياة الصحراء بذهاب هذا المرض عنى بقسوتها وجفافها وقلة الطعام فيها .

وأردت يوماً أن أذهب مع أولاده إلى السوق لأشترى ثوباً يناسبنى مقاسه فانفجر ضاحكاً وهو يقول : منذ متى يذهب الذئب إلى السوق . . ؟

إنها علامة من علامات القيامة عندنا . . ولم يفت زوجته أو أرملته أن تردد على هذا القول بعد عام حين استطعت أن أذهب إلى السوق ، وأن أعمل فيه لأكسب قوتى .

وطلبت ذات يوماً ورقاً وقلماً مما كان بدر قد أرسله لى وحبسه الشيخ عنى فقال لى :

ــ ما حاجتك إلى القلم والورق . . هل ستذهب ثانية إلى المدرسة ؟

ــ لا . . ولكنى أضيق بالوقت والوحدة فى الصحراء . . فلا أقل من أن أشغل نفسى بالكتابة .

ــ اشغل نفسك بالتعرف على ما حولك وبتنظيف سلاحك وإعداده دائماً لتدفع عن نفسك الأذى .

ــ أنا أفعل كل هذا . . ولكن الأيام أطول من أن أقضيها فى هذه الأمور وحدها .

ــ إن الكتابة وما يصاحبها من التفكير وتركيز النظر مشغلة تلهيك عن الحذر أما رأيت الذئب لا يأبه بورق ولا قلم ؟

ــ حرام يا شيخ أحمد أن تحسبنى ذئباً فى يوم وليلة . . أنا إنسان لا أستطيع أن ألتزم دائماً بمنطق وحش .

ــ لقد اخترت حريتك يا بنى . . ولا حرية اليوم إلا للذئاب . .

وهكذا ظل منطق الذئب يطاردنى ما عاش الشيخ فبقيت طوال حياته خلقاً ممسوخاً لا أنا إنسان يعيش حياة الإنسان ولا أنا مستطيع أن أنقلب ذئباً ولكنى مع ذلك اتبعت من منطق الذئاب ما استطعت اتباعه فأنا لا أقضى يومين فى مكان

واحد وأنا لا أستغرق فى نوم . . وأنا لا آأمن على نفسى فى مكان أحس فيه أمناً .
لقد ظل قول الشيخ يرن فى أذنى دوماً منين ما تأمن خاف حيث تشعر بالأمن لا تبق
واعلم أن الأمن من أول مراحل الخطر لذلك لأن الأمن موجب للغفلة فعليك بالخوف
دائماً لأنه موجود للحذر والحذر سلاحك الوحيد كالذئب تماماً لولا حذره البالغ
لانقرضت سلالته من زمن بعيد فالإنسان والحيوان كلاهما حريص على قتله
ولكن الحذر فى الصحراء الواسعة المجهولة لى كان أمراً شاقاً .

زارنى الشيخ مرة واحدة فى مكمنى بالصحراء زارنى ليطمئن على مقامى وعلى
صلاحية المكان الذى أقيم فيه وعلى أسلوب حياتى وليزودنى من علمه الوافر عن
حياة الصحـــراء وسلوك المجرمين الهاربين وليلقننى مزيداً من فلسفة الذئاب التى
يصر أن أكون لها قريباً ما دمت للدولة خصماً وما دمت حريصاً على حريتى .

كان ذلك عصر يوم ، وكنت أجلس وحدى غارقاً فى تأملات لا أنتظر زيارة
أحد حين نادانى من القمة القائمة جنوب مكمنى صوت عرفت فيه صوت الشيخ
أحمد . فقمت إليه مرحباً . . فعاتبنى أن ألقاه بغير سلاحى فى يدى ، سلاحى هو
روحى على حد قوله ولا يجوز لأحد أن يغفل عن روحه لحظة على أن أحمل السلاح
دائماً فى سيرى وجلوسى وطعامى وصلاتى بل وفى نومى . أنام والسلاح بين يدى
ولا أغفل عنه فإذا كان النوم فى ذاته غفلة فلأترك النوم نهائياً إن لم أستطع أن أصحو
منه كل بضع دقائق لأطمئن إلى ما حولى وإلى وجود سلاحى بين يدى . .

وقد جاء الشيخ إلى مكمنى دون دليل يرشده اكتفى بأن ذكر له فرحات أين
أنا . . تماماً كما تذكر لواحد منا عنواناً فى مدينة فتحدده باسم الشارع ورقم المبنى
فهم هكذا يتصورون الصحراء ودروبها ووديانها وهضابها إنهم يحددون سيرهم
فيها تبعاً لأسماء أطلقوها على كل درب ومنعطف وواد وجبل وهى فى عينى كلها
سواء . لو تركت بينها لما استطعت أن أحدد أين أنا وقد جربت ذلك مرة إذ
كنت بالوادى فى زيارة الشيخ وأهله وعدت مع الغروب إلى الصحراء ولاحظت
منذ أول الطريق أن فرحات وكان رفيقى فى الرحلة يشكو ألمــاً بساقه . لا أدرى

إن كان ألماً حقيقياً أم عذراً ادعاه لأنه على موعد مع زملائه ليذهبوا إلى سرقة وأعفيت رفيقي من مواصلة الرحلة معي واكتفيت منه بأن يرشدني إلى أول درب أسلكه لصعود الجبل . فإن صعدت فأنا كفيل أن أتم الطريق وحدي وحملت عنه ما كان يحمل لي من طعام وسرت صاعداً القمـــة . وما أن بلغتها حتى عرفت أني صعدت من غير الدرب الذي أسلكه عادة . وكانت السحب المتكاثفة تحجب القمر والنجوم فلم أر أمامي غير ظلام وصخور ودروب بيضاء عديدة كل منها يؤدي إلى مكان ولا أدري أنا أيها أسلك . . ورحت أستجمع ما في ذهني عن معالم الطريق وأضرب في كل درب مرة ثم أعود . حتى انتصف الليل وأنا في الصحراء تائه لا أدري كيف أعود إلى مكاني . وأعياني البحث فألقيت ما أحمل ونمت حيث أنا — أو رقدت إعياء ولن يغمض جفني — حتى كان الصباح . وما أن ظهر نور الصباح حتى وجدتني غير بعيد عن مكمني ولكن تشابه المناظر أمامي أفقدتني القدرة على الاهتـــداء .

إن الصحراء كالمحيط يحتاج مرتادها إلى « بوصلة » يحدد بها وجهته ومع ذلك فإن هؤلاء القوم يسيرون فيها كما نسير نحن في الطرقات ذات العلامات المحددة للاتجاه .

والشيخ حريصاً على أن يجعلني خبيراً بالصحراء خبرته . . وهي منبته ومسرح شبابه . وأنا عنها غريب أقف أمامها خائفاً خوف من لا يعرف السباحة أمـــام المحيط ، مساحات شاسعة من الصحراء القاحلة الصفراء . تحرك الرياح رمالها فتتغير معالمها كل بضعة أيام . وجبال راسخة متشابهة لا أميز بينها فكلها قاتم ثابت . أسمع منه ترجيع الصوت ، وصفير الريح ، ونعيق الغراب فإن أقبل الليل تصيح البوم أحياناً وتعوي الذئاب دائماً .

ولكن الرجل حريص على أن يلقني عن الصحراء دروساً .

لقد قضى معي ليلتين لم ينم خلالهما لحظة ونام في النهار ساعة . وبقيت أنا الليلتين ساهراً في صمت أرقبه فأعيتني مراقبته وما أعيته هو مراقبة المكان كله .

فهذا خطو ذئب على بعد مائة متر . . وهذا عدو ضبع بعيد . . وهذا ثعلب يخطو قريباً منا وهذا جناح طائر اسمه كذا . . وذلك مقذوف نارى يطلق فى بلدة تبعد عنا كثيراً . . ذاك مقذوف أصاب وذاك مقذوف أطلق فى الهواء كل هذا وأنا أسمع معه ، ولا ترى عينى شيئاً ولا أدرى كيف استطاع أن يحدد هذه الأصوات ومبعثها ومكانها وطبيعتها .

ورحنا فى النهار نجوس خلال الوديان ونصعد الجبال لأعرف كل ما حولى على مسيرة ساعتين بخطوه السريع الواسع فى كل اتجاه هذه ما أراده الشيخ وليس لى أن أعصى وكانت دروساً عملية قاسية فى الحذر وفى قص الأثر ومعرفة آثار الحيوان والإنسان كيف يكون أثر قدم رجل يحمل أثقالا وكيف يكون إذا سار متخففاً لا يحمل شيئاً . . إذا كان يعدو وإذا سار متمهلا . وهذا انطباع قـــدم ذئب وهذا لثعلب وهذا لكلب أما هذا فلضبع يهجم على فريسته وهنا كان ثعبان يسير ولعل جحره غير بعيد وهذا أثر حية سامة من النوع الذى يدفن نفسه فى الرمال فعلينا أن نحذرها . . كم كان عسيراً على أن أميز بين ما أسماه أثر فأر وما أسماه أثر عقرب فقد خيل إلى أن الخطوط التى أمامى على الرمل سواء ومع ذلك فعلى أن أبحث عن فارق بينهما لأحذر واحداً ولا أهتم بالآخر وجاء دور الدروس فى البراز وفى الفارق بين براز الإنسان والحيوان بل وكل حيوان على حدة من أنواع الحيوانات المختلفة يجب أن نحدده من شكل برازه الجاف وكان كل ما لقينا فى نظرى غير الخبير — شيئاً متشابهاً جافاً — لا يمكن أن يدل على أصله .

ووقف الشيخ فجأة لأنه رأى على الأرض ما لم ألاحظه أنا . لقد رأى ما وصفه بأنه خطو ضبع قد شبع فهو يسير آمناً إلى مخبئه واستدل من ذلك الأمر الذى لم أفهمه أن بالقرب من مضبعه أى مكمن ضبع يعيش فيه مع صغاره وأصر إلا أن نتعقب الأثر لنصل إلى المضبعة ونكشف عن أبنائها وعبثاً حاولت أن أثنيه عن عزمه فمالنا نحن وللضباع الضاربة فى الصحراء ما دامت بعيدة عن مأواى بعد الريف عنى ولكن الرجل يصر ، وأنا أسير خلفه وقد أرهقنى طول االسير وتجمدت ساقاى

من ضرب ريح الشتاء البارد فيها إذ كشفت عنهما حين شمرت جلبابي كي لا أتعثر فيه أثناء سيرى والبندقية وما معها من ذخيرة وافرة قد خلعت كتفي ؟ .

وسرنا ساعة أخرى نستقيم في سيرنا إذا استقام الأثر الذي نقصه وننعطف معه إذا انعطف والرجل ينظر في الأرض حتى لا يضل عن الأثر الذي يتبعه ولم يعفه حرصه على الأثر من الالتفات حوله حتى لا يتعرض لخطر آخر . وسرت أنا وراءه أجر ساقي جراً ولا أتبين أثراً ولا ألتفت إلى خطر . . وأخيراً وقد كاد حذائي أن يتمزق وما تمزقت قدم الشيخ العارية وقد كدت أسقط منه إعياءاً وأنا في سن أولاده وصلنا المضبعة واقترب منها الشيخ حذراً وسلاحه في يده وأوصاني أن أقف غير بعيد على استعداد أن أطلق النار . وحمدت الله فقد كانت المضبعة خالية هجرها الضبع وصغاره ولم نجد بداخلها غير آثارهم التي تدل عليهم .

وعدنا إلى مأواى بعد هذه الرحلة الطويلة التي استغرقت نهاراً بأكمله عدنا منهوكي القوى أو أنا الذى عدت كذلك أما هو فقد عاد نشيطاً أكثر مما كان دائماً وكأن هذه الرحلة التي أرهقتني جددت شبابه بما كان فيها من مشقة فردت إليه نشاطه وحيويته ، وبعد العشاء كنت في حالة لا علاج لها إلا أن أنام ولكن الرجل عنده بقية من حديث يريد أن يقولها قبل أن يغادرني في الصباح إلى بيته أو قبل أن يغادر الدنيا كلها ويتركني وحدى . . فقد مات بعد ذلك ولم أره غير مرة واحدة كان مشغولا فيها بأن أترك القطر عن طريق حاول أن ينظمه .

. صدرت أحكام الإعدام بالجملة على زملائي وتوالت علينا أنباء من قتلوا أثناء القبض عليهم وأبو التعذيب داخل السجن . . والكثير يخشى أن يجيء دورى لم يخف على الشيخ أحمد شيئاً من الأحكام التي صدرت أو الأنباء التي جاءت بل إنها حفزته إلى التفكير الجدى في محاولة إخراجي من مصر بعد أن تعلق كل منا بالآخر وتغيرت نظرته إلى . خرجت نظرته إلى عن كوني مجرد هارب لجأ إليه يأويه ويحميه إلى رمز لفكرة . . فكرة الحرية ومقاومة الطغيان فشعر أن عليه واجباً أن يحافظ على هذا الرمز ويبلغه مأمنى خارج القطر ليواصل رسالته وإني

أعرف أن هذا التطور فى التفكير حدث أسرع مما كان يمكن لخيال أن يتصوره لو تصورت حصوله يوماً . .

كان للشيخ صديق قديم يعيش بالقرب من حدود السودان وكان يعمل فى تهريب الناس والبضائع والماشية عبر الحدود وبرغم انقطاع الصلة بين ذلك المهرب وبين الشيخ منذ وقت طويل فقد رأى أن نسافر إليه لعله مستطيع تهريبى إلى السودان وكانت الخطة المتفق عليها أن يتولى المهرب اخراجنا ــ الشيخ أحمد وأنا ــ إلى السودان بحجة أننا سنعود ببعض الجمال يتولى هو إدخالها لنا فى العودة ثم اتخلف أنا هناك بالسودان ويعود الشيخ أحمد إلى مصر .

وفى مقهى صغير يطل على النيل جلسنا نتفاهم مع المهرب النوبى الطويل القامة المتوثب النظرات الذى يكسو جسمه الأبنوسى ويحيط شعره الأكرت بأقمشة ناصعة البياض وكان رجلا هادئاً يتكلم همساً فقد علمته مهنة التهريب خفض الصوت وهدوء الطبع . وقبل الرجل بترحيب أن يقوم بالتهريب ذهاباً وإياباً فهذه مهنته التى يعيش منها . وانتقل بنا فوراً إلى الحديث عن أتعابه فقال إنه يتقاضى عشرة جنيهات عن تهريب الشخص العادى عن طريق النيل . فإذا كان المراد تهريبه من الأخوان الذين تبحث عنهم الحكومة فإنه يتقاضى مائة جنيه لينقل الشخص عبر الصحراء هذا سعر عام بالنسبة للأخوان إلا أن يكونا أحد شخصين خطرين فإن الأتعاب المقررة للواحد منهما ألف جنيه وذكر اسم االشخصين ذوى السعر الغالى فإذا أنا واحد منهما والآخر هو زميلى اللواء عبد المنعم عبد الرؤوف وختم النوبى الهادىء حديثه موجهاً الكلام إلى الشيخ وهو يرقبنى بنظرته المتوثبة المرتابة :

ــ أما عنك يا شيخ أحمد فإنى أعرفك . . أما عن زميلك الآخر ، فأنت المسئول عنه ولن تخدعنى فيه لتنال سعراً مخفضاً أنا لا أعرف شخصية واحد من أصحاب السعر الغالى ولكنك لن تخدعنى فلكل شخص أتعابه وطرق حمايته أثناء النقل .

وجاهدت لأمنع اضطرابى أما الشيخ أحمد فأجاب هادئاً :

— لك العهد منى أن لا أخدعك وسنقابلك فى المساء لندبر الأمر كله .

ودفع النوبى الهادىء ثمن ما شربنا من شاى ، وانصرف عنا فقمنا لنجلس فى مقهى آخر حصينا كل ما أملك من مال وما يملك الشيخ أحمد فإذا بالمبلغ المطلوب لتهريبى يبلغ أضعاف ما معنا وحرت كيف نفعل فالمهرب النوبى سيفهم أننا عدلنا عن الصفقة ولكن الشيخ أحمد لم يعر هذا الامر اهتماماً .

ولم نقابل النوبى فى المساء بل عدنا إلى بيت الشيخ ، وقد سد أمامى الباب الأخير للهرب من مصر . وبدأ الشيخ — الذى لا يضيع وقتاً — يفكر أن أترك الصحراء لأنى — فى غفلتى الزائدة — لا أصلح لحياتها فى رأيه فقرر أن نسير فى الريف معاً هائمين على وجوهنا أمثل أنا دور الدرويش ويمثل هو دور تابعى وخادمى حتى يأذن الله لنا بفرج جـــديد . . وكان السير فى البلاد يقتضينا دابة نحمل عليها أنفسنا وزادنا فعدت أنا إلى الصحراء لأرجع بعد أسبوع وسافر الشيخ ليشترى جملا . وجاء الجمل وحده ومات الشيخ فى الطريق . . مات دون مرض أو شكوى .

لقد بقيت طويلا أعجب لهذا المهرب النوبى الذى يتاجر فى الناس وأسرار الناس ومع ذلك لم يبلغ عن أن الشيخ أحمد شخص يشتبه فيه وكان مستطيعاً بذلك أن يكبش على الأقل المكافأة المقررة لمن يقبض على . . ومع ذلك لم يفعل بل الأعجب من ذلك أنه ظل يعلم أين أنا ويسأل أولاد الشيخ كلما لقيهم بعد وفاة أبيهم عن أخبار « ضيفهم » والأولاد يجيبون أنى بخير ، حتى ضاقوا بسؤاله وكنت قد تركت بلدهم إلى بلد آخر فابلغوه أنى رحلت إلى حيث لا يعلمون ما الذى عاق هذا المهرب عن الإبلاغ عنى . . ؟

إن الاستناد إلى الشرف وسر المهنة وما إليهما أمر عسير الهضم فى مثل هذه المهنة ترى هل صدق الشيخ أحمد — حين أبديت له خشيتى من الرجل لما عدلنا عن السفر معه — قال « لن يبلغ عنا . . فالذئاب لا تأكل بعضها بعضا . . » .

مات الشيخ أحمــد فجأة وأنا بالصحراء ولم يترك عند أهله غير وصية واحدة : أن لا يفرطوا فى ضيفه أبداً . . وورثنى أولاد الشيخ دينــاً على التركة وكنت ديناً ثقيلا أول الأمر . . أرهقنى وأرهقهم فاضطررت للبقاء فى مأواى بالصحراء عاماً . . عاماً كاملا .

« عام ... فى حراسة عزرائيل ... ! »

أنا لم يسبق لى أن رأيت عزرائيل ، ولا أصدق أن واحداً غيرى رآه ولكن صورته فى أعصابنا منذ الطفولة أنه خلق قبيح يحمل منجله ويطوحه ليحصد أرواح الناس ، لم يغير من قبحه فى أعماقنا ما قالته لنا الأديان من أنه ملك كريم فظل قبيحاً لأنه يمثل الموت وخطره الداهم والمجهول الذى وراءه .

وقد ظل عزرائيل — أو خطر الموت — محيطاً بى طوال إقامتى فى الصحراء كنت أراه فى كل شىء كان كل ما حولى يعبر عنه ، ويمكن أن ينقله إلى ؛ فأنا فى مكان لا حياة فيه . . فإذا سعى فيه ذو حياة فإنما سعى حاملا الموت أو مصوراً إياه فالوحوش والأفاعى والعقارب هى الأحياء فى مثل هذا المكان المقفر وكلها تحمل الموت فى طياتها والبوم والغراب وإن لم يكونا ذوى خطر فإن نعيقها الكريه ينقل إلى نفسى المرهفة شعور الموت .

عشت مع عزرائيل عاماً كاملا فكنت أول الأمر أشفق منه على نفسى ويملأ الشعور به قلبى رعباً ثم أنست روحى به حين ألفته بطول الصحبة حتى شعرت أنى فى حراسته لا خوف على منه بل الخوف والخطر على من يحاول أن يفزعنى عن هذا المكان الذى طال فيه مقامى والموت واقف دونى لا يغادر مكانه كأنه جبل من تلك الجبال أو واد من تلك الوديان .

لم يترك الموت شخصاً يحاول أن يزحزحنى عن هذا المكان . . حتى الشيخ أحمد ذلك الرجل الطيب القاسى الذى أوانى — أيقنت أن الموت الذى يحرسنى هو الذى اختطف روحه لأنه أراد أن يخرجنى من هذا المكان لأهيم على وجهى معه فى البلاد . . والموت لا يرضى بانتقالى فأماته . .

كان ذلك فى يوم من أيام الإثنين وهو يوم السوق فى البلد المجاور وكان الرجل قد سافر منذ أمس ليشترى جملا . وكنت على موعد معه بأسفل الجبل عند الغروب

لنذهب معاً إلى بيته فنقضى ليلة نسير بعدها فى البلاد وكنت ضيقاً بهذا السير فى البلاد وبما يعرضنى له من لقيا الناس .

ولكن لم يكن لى أن أصر على اعتراضى أو أن أبدى شديد ضيقى وقبل الغروب بساعة غسلت وجهى . . بما بقى عندى من ماء وحملت ملابسى وسلاحى ويممت نحو الوادى لألقى الشيخ . وما أن خطوت خطوات قليلة على حذر حتى بدا لى فى الأفق شبح شخص يسعى نحوى فاختبأت وراء صخرة وجلست صامتاً أرقبه وسلاحى فى يدى على استعداد .

واقترب القادم حتى تبينته إنه فرحات ابن عم الشيخ يحمل قربة ماء وبعض الخبز وسلاحه وقمت ألقاه وأعجب من زيارته وهو لا شك يعلم أنى هابط إلى الوادى الآن . أما ما معه من ماء وخبز يدل على عدول الشيخ عن نزولى واستفسرت منه ما الخبر فلم يزد أول الأمر عن أن قال لى لا داعى للنزول إلى الريف اليوم . ولم يدر بخاطرى إلا أن حملات التفتيش التى تقوم بها الحكومة قد امتدت إلى هذه القرية النائية ولكنه أكد لى عدم صحة ظنى . . فلم أصدقه .

وجلس قليلا ثم أبلغنى أن الشيخ أحمد قد مات . .

سمعت الخبر من فرحات فما تكلمت بل قمت من مكانى وانتحيت جانباً فصليت لذلك الشيخ الطيب صلاة قصيرة مخلصة ثم عدت إلى جليسى وقد أيقنت أن الشيخ مات قتيلا وأحسست لأول مرة فى حياتى أنى على استعداد لأن أشارك فى الأخذ بثأره مع أنى لا أؤمن بالثأر أسلوباً فلعلها دفعة شعور قامت فى نفسى ثم هدأت .

— من قتلـــه . .

— لم يقتله أحد . . وإنما مات ميتة طبيعية .

— أصدقنى القول يا فرحات . . فإنى تركته منذ سبعة أيام معافى لا يشكو مرضاً

— أقسم بالله أنه مات ميتة طبيعية لقد كان عائداً من سفره اليوم وإذا به يحس فى البلدة المجاورة ألماً مفاجئاً فجلس فى مقهى كنت أجلس فيه . . ومات بيننا بعد دقائق . . أقسم لك أن أحداً لم يقتله .

وأراحنى أن لا ثأر ، ولا مشاركة فيه منى وبدأت أفكر أين سأذهب أنا فلابد لى من ترك العائلة التى مات كبيرها الذى أوانى وعاد فرحات إلى الريف وتركنى ليلا طويلا أفكر فى مصيرى حتى الصباح . صحيح أنه وجب على أن أرحل ولكن إلى أين ؟ من يبلغ أصدقائى الذين اطمأنوا إلى مقامى مع الشيخ بهذا النبأ الجديد ليدبروا لى مقاماً آخر ؟ صحيح أن موت الشيخ أراحنى من السير فى البلاد ومخاطره ولكنه أسلمنى إلى حيرة أخرى لا أدرى كيف أخرج منها .

وكان الصباح : فجاء طفل من أطفال الشيخ يحمل مزيداً من الخبز وينقل إلى رسالة من أمه ، لم يفهم هو معناها ولم أستطيع أنا أن أحدد كل مقصود منها . إنها تقول إنها تعرف من أنا وهى تستحلفنى أن لا أفكر فى تركهم حتى ألقاها بعد خمسة عشر يوماً : هى أيام الحداد وتقبل العزاء .

وساق القدر مختاراً وثابتاً فى اليوم التالى جاءا يستفسران عما تم فى موضوع السفر عن طريق السودان فوجدوا فى بيت الشيخ وضعاً غير عادى وعلما الخبر وادعيا أنهما جاءا للعزاء وما درى أحد غير أولاد الشيخ ما وراءهما وطلبا لقائى فقابلتهما على حافة الصحراء واتفقنا على أن أبقى حتى نهاية أيام الحداد والعزاء ، كما طلبت أرملة الشيخ ، على أن يدبرا لى أثناء ذلك مقاماً آخر .

وانقضت أيام الحداد وهبطت الريف أزور بيت الشيخ وأدخله لأول مرة وقد خلا منه وقابلتنى الزوجة وإذا بها تعلم حقيقة من أنا إذ أنبأها زوجها قبل سفره الأخير الذى اشترى فيه جملا وكأنه كان يحس أنه يودع الدنيا .

وأصرت المرأة على بقائى واستأذنتنى أن تبلغ ابنها حامد بشخصيتى لأنها اختارته بتوجيه أحلامها ليتولى أمرى بعد أبيه وجاء ثابت لينقلنى وقد نظم لى مكاناً

مؤقتاً ولكنه عدل حين رأى إصرار المرأة وصدقها فى طلب بقائى، فالوضع الحالى آمن لى من الوضع الذى نظمه لأنتقل إليه وكنت قد بدأت أألف حياة الوحدة فى الصحراء فعدت إليها لأبقى فيها . . وما علمت أن الموت اختطف الشيخ أحمد كى لا ينقلنى من هذا المكان بالصحراء الذى ربطنى به القدر وأصر أن أرتبط به شهوراً أخرى .

بقيت فى الصحراء بعد ذلك طويلا . . وبقى عزرائيل يضرب بمنجله حولى .

فى الصحراء الجرداء القاحلة التى لا حياة فيها – رزق يعرفه بعض الناس، ويسعون إليه، ويجدون مشقته أهون على نفوسهم من السرقة . وهؤلاء من القلة فى البلدة الذين لا يتخذون السرقة مهنة يكسبون منها . فى الصحراء ملح وشيح وروث خفاش يتخذونه سماداً . وفيها نوع من المخدرات يزرع حول العيون القليلة الموغلة فى البعد فتكون بمأمن عن عيون البوليس التى تبحث عن المخدرات فى الوادى .

والذاهبون لجلب هذا الرزق يسمونهم « الرحل » لأنهم يرحلون بدوابهم فى الصحراء أياماً ذاهبين آيبين ومعهم زادهم وماؤهم وكان الدرب الذى أختبىء فى أحد مخابئه خالياً من كل رزق من هذا النوع ولذلك اختاره لى فرحات على يسر الوصول إليه لأكون بمأمن من ارتياد الناس إياه .

و « سليمان » وابنه من رواد الصحراء الباحثين عن الرزق فيها . إذ كبر سن سليمان فهجر السرقة . وكان قد لقى فيها من العناء ما جعله حريصاً على أن يجنب ابنه اتخاذها عملا . فدربه على ارتياد الصحراء وحببها إليه حتى أصبح من بين شباب القرية لا تخفى عليه فى الصحراء خافية يعرف فيها كل درب وكل منحنى وكل موطن رزق وكل واد ينبت فيه الشيح وكل قمة تخفى الملح وكل مغارة يأوى إليها الخفاش وكل عين بعيدة يسير إليها طالبها أياماً ليقتطف من جـوارها ما سبق أن زرع من مخـدرات .

وكان سليمان لا يعتبر الصحراء مجرد مكان لعمله بل كان يعشقها فاتخذها متنزها يتنزه فيه ليروح عن نفسه إذا ضاق بالريف ، فإذا كان غيره يجد فى الحدائق والحقول راحة نفس تبعثها صورها الحية الخضراء فإنه كان يجد فى القفار الصامتة الميتة نفس الراحة وأكثر . كان إذا تحدث عن الصحراء طفح البشر من وجهه ولذلك فإن الناس لا تعجب إذا رأته حاملا سلاحه متوجها إلى الصحراء مع قليل من ماء وزاد . ليقضى يوماً أو أياماً . . يعود بعدها بغزال اصطاده أو بلا شيء . إن هى إلا نزهة قام بها فروح عن نفسه ثم عاد وقد يعرض له فى هذه النزهة أن يكتشف عيناً جديدة أو مغارة لم يكتشفها أحد قبله وفى هذا له رزق مضمون أن يعود إليها بعد ذلك مع ابنه وشركائهم ليأخذوا ما فيها .

وخرج سليمان يوماً يتنزه فى الصحراء كعادته ولعله كان ساهياً حين ساقته قدماه إلى ذلك الدرب الذى لا رزق فيه والذى أختبىء فى أحد مخابئه وكان يسير حذراً لا يسمع له خطواً كما علمته الأيام أن يفعل فلم أفطن له ولم أشعر به . . ولم يسر طويلا حتى رأى مغارة ورأى الخفاش راقداً فيها . . وجس المدخل بعصا فتساقط روث الخفاش غزيراً وأيقن الرجل أنه وقع على كنز ادخرته له الأيام حين كبر سنه إذاً ها هو يجد فى أيسر الدروب وأقربها رزقاً هيناً سهلا وقطع سليمان نزهته وعاد فرحاً بما وجد فأسر إلى ابنه بما اكتشف من ثروة وتواعدا مع شركائهما ليذهبوا صبيحة اليوم التالى بزادهم ومائهم ليبقوا بجوار المغارة أياماً يستخرجون ما فيها .

وكانت هذه المغارة التى عثر عليها سليمان لا تبعد عن مكمنى إلا مائتى متر تفصل بينى وبينها ربوة صغيرة لو اعتلاها لرآنى ولكنه لم يعتلها إذ عاد فرحاً بما وجد . وكم علوتها أنا وكم ذهبت إلى تلك المغارة أجلس بجوارها وما تصورت يوماً أن ستكون مبعث خطر على إذ قد يعرف الناس بسببها مكانى .

وفى اليوم التالى كنت أسمع حين تهب الريح من ناحية الربوة الصغيرة غرب مكمنى أصوات قوم يتحذقون ويتنادون ويضحكون وكان هذا جديراً أن يزعجنى

ويدفعني إلى البحث عن مصدر الصوت . . ولكني لم أفعل فقد ألفت أن أسمع أصواتاً لا أعرف مصدرها حتى كدت أؤمن بأن للأرواح صوتاً تشاركنا به حيث تعيش وإذا كانت المدينة بضوضائها تحجب عنا أصوات تلك الأرواح فإن الصحراء بسكونها الشامل جديرة بأن تترك لنا فرصة سماعها .

وانقضى يوم وجاء آخر وزادت الأصوات وعلت واختلطت بها أصوات حيوانات وكثر التنادى وانقلب الضحك عويلا ، أصوات نساء ورجال وحيوانات تنبعث بوضوح من وراء هذه الربوة الصغيرة التى لم أعلها منذ أيام بعد أن ألفت المكان وصرت قليل التجوال وحملت سلاحي فى يدى وارتقيت الربوة بحذر كي لا أزعج الأرواح بخطو قدمي . . وما أن أشرفت على أعلاها حتى رأيت عجباً رأيت عشرات الرجال والنساء . وعشرات الدواب تحمل قرب الماء . وعشرات الأطفال والكل محيط بتلك المغارة التى أعرفها والنساء تبكى وكذبت نظرى وفركت عيني ولكني صاح وما أرى أمامي حقيقة لا مجال للشك فيها . . وعدت برفق إلى مكمني فجمعت أوراقى المتناثرة وأخفيتها فى أماكن أمينة لا تراها عين من يرتقى الربوة القريبة وذهبت بسلاحي شرق مأواى ودرت حول القمة الجنوبية واختبأت أنتظر ما ستأتى به الساعات القادمة والدقائق . . فأنا لا أفهم سبب هذا الجمع . . وهذا البكاء وتلك الدواب وما تحمل من قرب الماء .

وظهر بعد حين شبح إنسان يدور حول القمة الجنوبية ويتلفت . . واقترب إنه فرحات مرة أخرى فقمت ألقاه وأعلم منه الأخبار وأهبط إلى الريف يومين إلى أن ينفض هذا الجمع ثم أعود إلى الصحراء .

حين انتهى سليمان وزملاءه من استخراج ما استخرجوه فى اليوم الأول من جوف المغارة من روث الخفاش باتوا ليلتهم عند بابها غير بعيدين مني ولما أصبح الصباح عاودوا عملهم ودخول هذه المغارات له طريقة خاصة . إذ يبقى واحد على الأقل خارجها ويدخل الباقون يحمل كل واحد منهم مصباحاً وقضيب حديد وجوالا وينتشرون فى طرقها المختلفة فيضيء الواحد منهم لنفسه المصباح ويكسر

أكوام الروث بقضيب الحديد ، ويملأ الجوال . . ثم يخرج . وهو لا يدخل المغارة طليقاً بل لابد أن يربط من وسطه بحبل طويل ، يبقى طرفه خارج المغارة فى يـــد الجالس هناك ينتظر حتى إذا انتهى من فى المغارة من ملء جواله تعقب الحبل المربوط فى وسطه ليدله على طريق الخروج . . وإلا ظل فى متاهات المغارة التى تمتد فى جوف الجبل مسافات طويله يتوه الخبير فى منحنياتها وظلمتها .

ودخل خمسة رجال وبقى خارج المغارة الرجل الكبير – سليمان وطفل صغير – أبوا عليه الدخول لكثرة الآبار فى الدروب المظلمة فخافوا عليه أن تنزلق قدمه فى إحداها ، بقى الرجل والطفل صباح اليوم الثانى يمسكان أطراف الحبال وينتظرون أوبة الرجال بالرزق الوفير . .

وفجأة سمعا صوت سقوط وضوضاء بالداخل وعلا غبار كثيف كريه الرائحة يخرج من فوهة المغارة وانقضت دقائق . . ثم هدأ الغبار . . ونادى الرجل والطفل رفاقهم فلم يسمعوا جواباً . وجذبوا أطراف الحبال فلم تنجذب وأيقن الرجل أن شيئاً غير عادى قد حدث ، فأرسل الطفل ينبىء أهل القرية ويطلب عوناً ، فجاءوا عشرات الرجال والنساء والأطفال بدوابهم وقرب الماء ، يحاولون أن يخرجوا من جوف المغارة من كانوا منذ حين أحياء يضربون فيها . ولكن المغارة سدت طرقاتها على بعد بضعة أمتار من بابها . . ولا سبيل إلى العثور على الرجال الخمسة الذين دخلوها فى الصباح . . ولا على جثثهم .

وفهمت أنا ، أن جانباً من المغارة قد انهار فسد على من فيها منافذ الخروج وبقوا بداخلها ليموتوا . . إن لم يكن قد ماتوا تحت الجرف المنهار .

أما الناس فى القرية فقد راحوا يقصون الأساطير عما حدث داخل المغارة وخارجها وانطلق الخيال الخصب الساذج يصور صوراً عن جن تسكن المغارة وشياطين تهيم فى الدرب المؤدى إليها . . وهكذا خشى الناس ذلك الدرب الذى نهايته طمعاً فى كشف جديد لمغارات لم تكتشف أمنت الناس بعد أن خافوا هذا الدرب ولكن أمنى هذا كلف الموت أن يحصد خمسة رجـــال .

كان للشيخ أحمد ابن عم آخر اسمه إبراهيم ولم يكونا على وفاق ولكن الأمور كانت تسير بينهما دون خلاف ظاهر لأن الكل يرهب الشيخ ولا يجسر على معالنته العداء، كان إبراهيم قصير القامة نحيل الجسم واسع العينين حاد الطبع. وكان طامعاً أن يرتفع اسمه فوق كل اسم فى البلدة وكان يعمل لصاً. وليس هذا العمل بمستغرب فقد قمت يوماً باحصاء فى البلدة فأسفر على أن ثلاثة وتسعين فى المائة من أفرادها القادرين على العمل يتخذون من السرقة عملهم الأصيل الذى يكسبون منه رزقهم.

ومات الشيخ أحمـــد وزال من القرية اسم من أسمائها التى عجز إبراهيم عن الارتفاع إلى مرتبته وورث أولاد الشيخ — فيما ورثوا — حراسة أبيهم الواسعة ولم يكن لهم اسمه المرهوب فاضطروا أن يسيروا خلال الأرض المكلفين بحراستها أكثر الليل يحرسونها حقيقة لا حكماً. وطمع إبراهيم فى أن يكون له نصيب فى هذه الحراسة العريضة المربحة إذ ليس اليوم أقدر منه على حمايتها فتحدث إلى أولاد الشيخ عسى أن يشاركهم فيها — تواضعاً منه — فأبوا وطلب من أصحاب الأرض وهم أهل بلاد مجاورة أن يحلوه فى بعض الأرض حارساً محل أولاد الشيخ فطلبوا منه أن يثبت أحقيته لذلك. وكانت أول مراحل الإثبات أن يمر فى هذه الأراضى ليلا حاملا سلاحه غير آبه بحراسها وأن يسرق بعض محصولها ليقيم الحجة على أولئك الحراس أنهم أضعف منه وأقل خطـــراً.

ولم تطق أرملة الشيخ وأولاده صبراً على ذلك. فخرج حامد وعليان إلى الرجل المعتدى على حراستهم فجردوه من سلاحه وأوسعوه ضرباً شديداً أقعده فى المستشفى أياماً. وكانت أزمة وكان تحقيق البوليس لا قيمة له لأن المجنى عليه لم يتهم أحداً فهو يحتفظ بحقه فى الثأر وكان تحقيق عائلى لم يسفر عن شىء فقد أيقن الجميع أن حامد ابن الشيخ أحمد ينوى أن يرث أباه فى اسمه ومكانته وإن كان لا يزال يافعاً فترك الناس الأمر معلقاً لكل من حامد وإبراهيم أن يتنافسا ليثبت أحدهما أحقيته فى المكانة والحراسة.. والغلبة بعد ذلك لمن تخلص من منافسه وكنت أنا أول المعرضين ليكونوا ضحية هذه المنافسة..

كانت قد شاعت فى القرية شائعة – لم أعلم كيف شاعت – بأن الشيخ أحمد يأوى واحد من أعداء الحكومة السياسيين . وكانت الشائعة تسرى همساً فالكل يخشى جانب الرجل . ومات الرجل القوى المرهوب . فسكنت الشائعة حيناً رفقاً بأولاده الذين فقدوا ركنا كانوا يستندون إليه . ثم شعر الناس بأن حامدا ابنه يحاول أن يرث أباه فى اسمه ومكانته فأثار ذلك غيرة البعض فعادت الشائعة تدور همساً . . ثم علانية .

وفى جلسة من جلسات الدكان . وهو مقهى القرية ومنتداها سأل سائل من الجالسين حامداً :

– هل صحيح أنكم تخفون هارباً من أعداء الحكومة وعبد الناصر . . ولماذا لم تقل ذلك لنعينك فى ذلك بعد وفاة أبيك ؟

ولم يلتفت حامد إلى عدوه وقريبه إبراهيم الذى كان يجلس غير بعيد يلعق آثار جراحه بل أجاب السائل فى هدوء وثبات :

– نعم . . لقد كان أبى رحمه الله يأوى هارباً من أعداء عبد الناصر أما نحن فلا قدرة لنا على احتمال ذلك . وقد أخذه أصحابه بعد موت أبى مباشرة .

وسكت السائل والمجيب . وانصرف الجميع إلى حديث آخر . فقد كان جواب حامد واضحاً يبدو معقولا فهو لم ينكر الواقعة ولكنه أوقف موجبات استمرارها وبينما كان القوم يتحدثون فى حديث آخر كان إبراهيم يستعيد لنفسه ما سمع ، ويبحث فى ثناياه عن تدبير يقضى به على حامد وأهله جميعاً . . ليخلوا له الجو .

أحس اللص العريق بحاسته السادسة – وللصوص حاسة أخرى – أن حامداً يكذب وأن الطريد الهارب من الدولة لا يزال فى حمايتهم . فإن مثل حامد بطموحه يأبى على نفسه العار الناجم عن رد طريد أواه أبوه وعلى هذا أيقن إبراهيم أن الطريد لا يزال موجوداً فقرر أن يبحث عنه ويسلمه للحكومة حياً أو

ميتاً فيلقى بحامد وأهله جميعاً فى السجن ويخلو له الحراسة والمكانة فى البلد كلها . . وينتقم لهذه الجراح التى لا تزال آثارها بادية فى وجهه ويديه يراها الناس فيرون فيها امتهان كرامته التى لا يردها إلا أشد انتقسام وأنا أول ضحايا هذا الانتقام .

أيقن إبراهيم أن أهل الشيخ لا يمكن أن يبقونى عندهم فى البيت ، فالبيت زواره كثيرون وفرص تفتيشه كبيرة . وأنهم لا يمكن أن يخفونى فى الزراعة التى يحرسونها فالوقت موسم محصول والحقل يسير فيه الآن كل الناس ليلا ونهاراً . . إذاً لابد أن يكون هذا الطريد عدو الحكومة الذى هو أنا فى الصحراء فلتكن هذه وجهته فى البحث عنى . وإبراهيم لص عريق ، وبدوى من الجبل القديم . . فهو خبير بالصحراء خبرة الشيخ أحمد عالم بدروبها ووديانها وهضابها أو مخابىء الناس والحيوان فيها . وإبراهيم بطل فى إطلاق النار لا يجارى . . إنه لا يخطىء الهدف أبداً ، كان الفائز « برأس العجل » دائماً فى كل عرس يقام فى البلـدة أو فيما يجاورها من البلاد . ذلك أن من أهم ما يقام فى الأفراح بتلك البلاد من المباريات هو مباراة الرماية يضعون هدفاً صغيراً « طلقة رصاص فارغة » على بعد معين ويقف المتبارون صفاً ويحاول كل منهم أن يصيب الهدف برصاصة واحدة من بندقيته فمن أصابه فله رأس العجل الذى يذبح فى العرس . وكان يندر أن يصيب الهدف أحد من الرصاصة الأولى فتعاد المباراة أما إبراهيم فكان يصيب الهدف إحدى عشرة مرة بإحدى عشرة رصاصة وهى كل ما تحويه بندقيته فكان إذا حضر عرساً ترك له الناس رأس العجل إلا أن يتخلى هو عن المباراة ليفسح المجال للناشئين .

وفى الصحراء القريبة من البلدة ثلاث دروب مشهورة يفضى كل منها إلى عشرات الدروب الصغيرة ومئات المخابىء لا يخف واحد منها على إبراهيم وأمثاله وكنت أنا أختبىء فى مخبأ من اليسير الوصول إليه ، يفضى إليه أسهل الدروب منالا ولهذا لم يكن الشيخ أحمد راضياً عن مقامى فيه قبل موته .

وأقسم إبراهيم لأهل البلدة ليحضرن الطريد الهارب من الصحراء وإن أدى ذلك إلى تعليق أسرة الشيخ أحمـد كلها على المشانق . . وعلم حامد بهذا القسم ، فجاءنى لفوره يقول :

ـــ إن إبراهيم أقسم ليأتين بك . . وأنه على ذلك لقادر فاحذر لنفسك ولنا .

ـــ وكيف أحذر إبراهيم . . وأنا أعلم من هو ؟

ـــ أقتله إن بدا على القمة . . ولا تدعه حتى يمسك سلاحه بيده أو يقترب منك فإنك لن تستطيع أمامه وقوفـــاً .

ـــ أقتله أنا . . لا . . إنى ما هربت بحريتى لأقتل الناس ، فأنا أبغض القتل أسلوباً .

ـــ إن لم تقتله فسيقتلك ويقتلنا . . ولعل مثلك ومثلنا أبغض إليك من قتله . .

ـــ ابق معى أنت إذاً لتقتله بنفسك إن شئت .

ـــ لو بقيت معك فسيقتل أهلى جميعاً ثم يقتلنا معاً .

ـــ محاولا التهرب . . أخشى أن أقتله فتطالبنى بثأره . . فهو ابن عم أبيك .

ـــ لا . . لقد وهبتك دمـــه .

وكففت عن المناقشة وضحكت فى أعماقى وأنا أتصور شخصاً يهبنى دم إنسان آخر . . كأنما هو يهدينى دجاجة أذبحها .

عاد حامد إلى الريف . . وقضيت أياماً لا أستطيع نوماً ، ولا أستقر فى مكان أكثر من ساعة فى ليل أو نهار . إن خصماً عنيداً يطاردنى هو أخطـــر على من الدولة ومن الوحوش وحسبت أن عزرائيل بدأ يخطىء تطويح منجله وأنه سيحصد اليوم أو غداً روحى فيما يحصد من أرواح . لقد بدأ إبراهيم حملته للقبض على حياً أو ميتاً وحامد جالس فى بيته مكتوف اليد ، لا يستطيع أن يفعل شيئاً وإلا اعتبر معتدياً فى نظر البلدة فقد أكد لى على مسمع من الناس أنه لا يأوى أحد ، فليس أن يحتج على البحث عنى أو يقوم دونه . . ووقفت البلدة تنظر . . منتظرة النتيجـــة .

خرج إبراهيم ـــ علانية ـــ يحمل سلاحه ودخاناً وماء ، فسار فى أول الدروب وأوعرها نهاراً كاملا . . وبحث فى جميع مخابئها فما وجد أحداً وعاد كما بدأ

عازماً أن يعاود البحث غداً . وكان الغد فسار فى الدرب الثانى إلى نهايته ولم يبق أمامه غير الدرب الثالث الذى أقيم فى أسهل مخابئه كشفاً . . إنه الدرب الذى تسكنه الجن التى قتلت ابن سليمان وزملاءه كما يقول أهل البلدة ولكن منذ متى يخشى إبراهيم جناً . . إن موعده مع الجن . ومعى ، غداً .

عاد إبراهيم فى يومه الثانى ، ليجد فى بيته زملاء العمل أفـراد عصابة من مديرية أخرى جاءوا ليشركوا معهم إبراهيم فى رحلة سطو لعدة أيام فى مديريتهم وشغل الكسب المرتقب من السرقة إبراهيم عنى فأرجأ الدرب الثالث بضعة أيام وقرر الذهاب أولا مع صحابته فى رحلة سطوهم وفى هذه الرحلة أخفى إبراهيم عن زملائه شيئاً سرقه فخالف بذلك قواعد السلوك بين المجرمين فلقى جزاءه المعروف ، قتله أحد زملائه وألقى جثته فى ترعة .

علمت أرملة الشيخ أحمد بالخبر فأقسمت أنى قديس من أولياء الله . وقبلت يدى منذ ذلك اليوم ، وعلم حامد بالخبر فذهب مع أحد أعمامه يبحثون عن جثة قريبهم وأعانهم مختار وثابت فى إحضار الجثة إلى البلدة . . فشعر حامد أن أصدقائى قد ردوا جميل إيوائى وأنه لم يعد له فضل فى الإبقاء على عنده وعلمت بالخبر فشعرت أنى مسئول عن أطفال إبراهيم الذى قتله عزرائيل ليحمينى منه فبذلت كل ما أستطيع من جهد لأقوم بهذه المسئولية ولأرى أطفال إبراهيم وأرملته وإن لم يرونى أبداً . وكان لإبراهيم ثأر يطالب به حامد الذى سبق أن وهبنى دمه مع أولاد عمه الآخرين وكم تمنى حامد أن يشركنى فى الأخذ بهذا الثأر لولا إعفاء الشيخ لى من هذا الشرط فى سلوك المجرمين .

وتملكنى بعد حادث إبراهيم شعور بالأنس إلى عزرائيل فكنت أقضى نهارى أقرأ وأفكر وأكتب وأرقب الأحداث حولى . . وأركن آخر النهار إلى عزرائيل ألقى رأسى المكدود على صدره وأشعر أنه يحنو على كأخ أو صديق وبدأت أشعر بشىء من الرضى على مقامى فى هذا المكان من الصحراء فكنت لا أتعجل أيام الذهاب إلى الريف كما كنت أفعل سابقاً . لقد أقلعت عن الذهاب إلى الريف إلا نادراً ، فقضيت فى مرة من المرات ستة أشهر لا أغادر الصحراء أبداً .

وحياة الصحراء جافة جفافها قاسياً قسوة الموء المحلق فيها ولكنى ألفتها بعد أن كنت منها أول الأمر نافراً . ألفتها وألفت مكانى وما جد فيه وما حوله ، ألفتها بطول المقام وبانصرافى عن حياتى العادية وعن حذرى إلى حياة تأمل وذكرى :

كنت أول أمرى أعيش متنقلا حذراً . ثم آوى إلى ذلك المستطيل الرملى المنبسط فى مجرى السيل الجاف – الذى كنت أسميه بيتى – لأبيت فى العراء : وبعد وفاة الشيخ كانت لى خيمة صغيرة تقينى بعض برد الليل وبعض ريح العام وأغلب ما تقذفه تلك الريح على من عقارب وأفاعى وإن لم يكن فى بيتى أول الأمر غير قربة ماء وسلة خبز ألقيت بجانب منه . . ثم ألزمنى الحرص عليها وعلى ما فيها أن أعلقها بحبل فى فجوة الجبل . فلما استقر المقام ، وجاءتنى الخيمة الصغيرة زادت الأيام عليها سلة أخرى ، وصفيحتين أحفظ فيهما الماء كى أعيد القرب إلى الرى فور وصولها وصندوقاً من ورق أضع فيه دخانى وملابسى وقلمى وأوراقى وراديو صغير أسمع به القاهرة ليلا بصعوبة ولا أسرف فى استعماله لأكثر من سبب أولها أن لا تنفد البطارية فتكلفنى مالا لشراء غيرها وجردل وموقد غاز وضعته فى طرف البيت وأحطته بالأحجار حتى لا تعبث بلهبه الريح ، وقدرة فول وحلة وزير ماء من الفخار .

ولا أذكر أنى وجدت ماء فى هذا الزير إلا نادراً ، صحيح أن الماء فيه يبرد ولكنه يفقد تسعة أعشاره قبل أن يبرد وأنا أحق من الهواء بهذا القدر الذى يتبخر أرضى أن أشربه ساخناً فهذا خير لى من أن يضيع وأموت أنا من العطش ولذلك لم أكن أضع فى الزير ماء إلا إذا فاض من قرب الماء التى تجىء شيئاً بعد ملأ الصفائح فكنت ألقى بالفائض فى الزير ، ولا أنال منه إلا شربة أو شربتين . وقد يفوز بكل ما فيه دونى فأر أو ثعبان أجده داخل الزير فيحرم على ذلك المـــاء البارد الذى يعتبر أغلى ما فى الصحراء .

كان الماء يأتينى كل أسبوعين يملأ صفيحتين وقد يفيض منه قليل يذهب فى زير الفخار مع الريح . وكان على أن أدبر أمرى بهذا القدر أسبوعين فاغتنيت

عن استعمال الماء فى أى شىء يستعمل فيه عادة غير الشرب والطهى وعمل الشاى وكان الطعام يأتينى من سوق البلدة المجاورة فى الغالب وكان يحضره أحد أطفال الشيخ الصغار بعد أن عرف الطريق ولذ له أن يخاطر ليقضى بضع ساعات ينال فيها أجراً على ما يشترى لى من أوراق دون علم أحد من أخوته الكبار الذين حاولوا أول الأمر منعى من الكتابة كما كان يفعل أبوهم . كان جالبوا الماء وجالب الطعام هم الأشخاص الوحيدون الذين أتحادث إليهم طوال الشهر . وأى موضوع يمكن أن يكون مدار حديث بيننا . . ؟ لا شىء إلا السؤال عن الصحة وذكر ما أحتاج من طلبات يحضرونها فى المرة القادمة ثم صمت يؤثرون معه أن ينصرفوا عنى إلى الريف عائدين وهكذا قيل لى بعد وقت أنى كدت أفقد المقدرة على النطق وإن قد زادت مقدرتى على الشعور والاستغراق فى التأمل الطويل .

لقد بقيت فى الصحراء عاماً كاملا هيأ لى أن أشهد تطور الجو على مدار العام وفصول السنة فى تلك البقعة من الصحراء بسيطة التقسيم فهناك الصيف وهو كل نهار طوال العام عدا شهراً واحداً . . وهناك الشتاء وهو كل ليل طوال العام عدا شهراً واحـــداً . . وهناك الخريف وهو ليل هذا الشهر الذى ليس شتاء ونهار ذلك الشهر الذى ليس صيفاً . أما الربيع فليس له وجود فالربيع يعنى أزهاراً تتفتح وأغصاناً تورق وأطيار تغرد وليس فى هذه الصحراء أزهاراً ولا أغصان ولا أطيار إلا إذا اعتبرنا صيح البوم ونعيق الغراب وفحيح الأفاعى تغريداً وهى أبعد ما تكون عن ذلك .

والصيف فى الصحراء صيف حق فالشمس لا تحتمل بمجرد شروقها فإذا قربت الظهيرة أصبح الجو كله ناراً تلفح لا يرد أذاه عن الجسم شىء غير الماء يتبرد به الإنسان والماء غير موجود فاستعنت عنه بالظل وظل الجبل وحده هو الذى يصلح فظل الخيمة لا غناء فيه، ظل الجبل نادر كأن الشمس كانت تتعقب كل ظل تحدثه فجوة فى الجبل لتقضى عليه فى أسرع وقت .

والشتاء فى الصحراء شتاء حق لا يدفع برده الذى ينفذ إلى العظام غطاء ولا ثوب مهما ثقلا . لا علاج له إلا النار نوقدها لتجلب الدفء وما لى مع النار حيلة

فالشيخ أوصانى أن لا أجلس إلى جوارها لأنها تكشفنى للقادم وتعمينى عن رؤيته ولكن البرد حين يشتد كان ينسينى هذه الوصية فالموت برصاصة قادم هو أمر مشكوك فيه أيسر من الموت متجمداً فى برد الصحراء وهو أمر قائم لا شك فيه .

وإذا كان الحر يدفع بالظل والبرد يدفع بالنار ، فالريح لا سبيل إلى دفعها فإذا جاء شهر مارس وتلاه إبريل وهما أشهر الربيع الحلو المرغوب فى الوادى هبت الريح لاتنى ولاترحم . وإذا بالمعالم حولى تغيرت وبخيمتى البائسة طارت فأعدوا خلفها وإذا أحكمت تثبيتها فى الصخر مزقتها الريح . وليت الريح تقلب الأوضاع فحسب ولا تأتينى كل حين بما لا أستطيع له اتقاء من العقارب والثعابين لقد أصبح مألوفاً أن أسعى إلى صفيحة الماء ألتمس منها ماء فأجد عليها أو تحتها عقرباً أو أكثر جاءت تلتمس المكان الرطب حول الماء . . أو أن أنقلب فى التل الضيق الذى أعرف مكانه ومواعيده فأجد بجوارى ثعباناً جاء هو الآخر يتفيأ الظل كما أفعل أنا أو أن أصحو من نومى فى الصباح فأجد تحت غطائى ثعباناً آخر جاء يشاركنى دفء الغطاء ولم تكن الثعابين ذات خطر كبير ، فحيحها يسمح برؤيتها واتقاء شرها أما العقارب فلم ينقذنى من لدغتها إلا القدر . والواقع أنى بدأت أسرف فى الثقة بالقدر . حتى صرت فى آخر أيامى لا أقتل عقرباً ولا ثعباناً . . بل أنصرف إلى القراءة القليلة والكتابة أحياناً . . والتأمل دائماً . لم أكن فى يوم من الأيام ناسكاً معتزلا ولكنى بدأت أفهم بماذا يشعر النساك المعتزلون وكيف يصبح كل ما فى الوجود لا يؤذيهم .

لم تكن حياة الصحراء كلها موتاً محيطاً ومشقة تضيق بها النفس وحرماناً من كل شىء بل كان فيها من المتعة الحقة العميقة الشىء الكثير كان فيها التأمل الطويل وصفاء النفس وكان فيها أنس الأرواح والأشباح تنادى وتغنى وتظهر وتختفى فيشيع الشعور بها فى نفسى رضا عن المكان ويسلمنى إلى ما أحتاج إليه من تأمل لأكتب . كم كتبت فى هذا المكان من الصحراء . . وقد أحرقت أغلب ما كتبت وأخفيت الباقى هناك . . وأعتقد أن بدراً أخرج ما أخفيت من مخبأه .

وحديث الأرواح والأشباح حديث جهدت طويلا أن أخفيه عن الناس حتى لا يظنوا بعقلى الظنون وأنا شخصياً لا أعرف عن نفسى شفافية الروح كما يقول المتصوفة ولا أكاد أصدق شيئاً مما سمعت ورأيت . . ولكنه حدث . . فإن ذكرت اليوم هذا الحديث فإنما أروى بعضه كما وقع دون تفسير لأنى لا أملك له تفسيراً .

بدأ دور الأرواح والأشباح فى حياتى بعد وصولى الصحراء بأيام قلائل كان الليل فى ديسمبر طويلا شاقاً بارداً موحشاً وكنت لا أنام خلاله إلا قليلا فأنا لم أعتد المكان ولم أستطع أن آنس إليه بعد، وفكرى مشغول بوضعى وأهلى وزملائى، كانت ليلة قارسة البرد كثيرة الريح تهب ريحها من جهة الوادى إلى الصحراء وكان الليل لم ينتصف بعد وفى المساء سحب لا آمل أن تمطرنى ماء والظلام محيط لا أكاد أرى يدى إن أخرجتها من تحت الغطاء وفجأة انبعث صوت يتنادى وخيل إلى أن أقواماً تتجمع ثم انبعث صوت جميل يغنى ترتيلا واستمر الغناء ساعة الكورس المتجمع يجيب أحياناً ثم هدأ الصوت وانقطع الترتيل كل هذا الذى سمعت أمر طبيعى له تفسيره المعقول فالريح قد نقلت من الوادى حفلا يقام ، ولا يحول دون وصول الصوت إلى ، إن بينى وبين الريف مسيرة ثلاث ساعات ونصف فالليل فى سكونه والريح فى هبوبها يمكن أن ينقلا إلى ذلك الصوت البعيـــد .

ومرت ليلتان وكانت الريح تهب منذ أول الليل من جهة الصحراء فتبعث صفير فى الوديان وإذا بالصوت يعود ، التنادى والتجمع والترتيل وجواب الكورس ثم يهدأ الصوت . وينقطع ، وحرت أول الأمر ثم قلت لنفسى أن الريح مع السكون والخشية تصور لى نداء وغناء وترتيلا، وما هو إلا صفير الريح فى الوديان وبين الهضاب تموه على النفس الموحشة أن تسمعها على الصورة التى تدخل إليها الأنس والطمأنينة .

ومرت ليال . . وكانت الريح ساكنة لا تهب من شرق ولا من غرب فإذا بالصوت يعود ثالثة ، التنادى والتجمع فالترتيل وجواب الكورس . . ثم يهدأ

الصوت وينقطع ولم أجد لما سمعت هـــذه المرة تفسيراً إلا أنها أوهام يضطرب بها عقلى من أثر الوحدة والوحشة والقلق ولكن أصحيح أن عقلى اضطرب . .؟ لقد ظل هذا الصوت يزور المكان مرة على الأقل كل أسبوع ويستمر إلى قرب الفجر ما تخلى عنى يوماً وكنت أجد فيه أنساً وأترقب أيامه . . لقد حفظت عنه كلاماً لم أسمعه ولم أقرأه فى حياتى ، إنه حقيقة سمعتها ولا أدرى مصدرها .

وهمست بما سمعت للشيخ أحمـــد قبل وفاته فقال لى أنها أرواح تهيم فى المكان ولو طال بى المقام وألفتها فقد أراها أشباحاً تموج . فلم أناقشه ولم أصدقه ولم أكذبه وأخفيت ما سمعت عن غيره من الناس . وطال بى المقام وألفت أصوات الأرواح وآن لى أن أراها ، لقد كنت أرى آخر عهدى بالصحراء أشباحاً تموج عند التنادى ولكن ملامحها لم تتحـــدد لى .

فى الجبل طير نادر ، صغير الجسم ، أسمر الريش نافر الطبع يحذر الإنسان والحيوان والطير جميعاً فلا تراه العين إلا وحده بعد ، وما أن يظهر كائناً ما حتى يطير ويسميه القوم هناك « ديك الجبل » وقد عرض لى أن رأيت ديك الجبل أول مرة وأنا أصعد الجبل حين لجأت إلى الصحراء ، لكنه طار عنا من بعد بعيد ، ومرت شهور على مقامى بالصحراء وإذا بهذا الطير النافر يحوم حول مكمنى . . وإذا به يقترب فيلتقط فتات الخبز اليابس . ثم يقترب أكثر فيشرب من جردل المـــاء القريب منى . . ثم يقترب أكثر وأكثر فيقف على كتفى فلم أحرك ساكناً حتى طار عنى واعتاد هذا الطائر الصغير أن يزورنى قبل شروق شمس كل صبـــاح فينقر أذنى لأقوم من نومى فآتيه بالماء وفتات الخبز ، فيأكل ويشرب ويقفز قليلا حولى ثم ينصرف ليعود إلى قبل الغروب وظل على هذه الحال أكثر من شهر . وإنه لمن الطبيعى أن يأنس طائر نافر لإنسان ، ولكن لا إلى هذا الحد وبهذه السرعة دون مقدمات وكانت زيارة الطائر لى بعد وفاة الشيخ أحمد مباشرة وأنا فى ضيق شديد فكنت آنس إليه ويطيل كل منا النظر إلى الآخر حتى أحس أن الطائر الأبكم يحدثنى .

وزارنى حامد يوماً فقلت له أن ديكاً من ديكة الجبل يحوم حول مكانى ويلتقط

فتات الخبز منى فلم يصدق أنى لم أقل له كل الحقيقة من أنه يقف على كتفى ويوقظنى من نومى لم يصدق حامد لأن هذا الطائر لا يأمن إنساناً ولا يركن إليه أبداً . وإذا بديك الجبل يأتى وإذا به يحط على كتفى فأقوم أحضر له الطعام يأكله من يدى وحامد ينظر إلينا عجباً . أقسم حامد أن ما معنا ليس بطائر بل هو روح من الأرواح ولعلها روح أبيه تبدت لى فى هيئة طير ونقل حامد الخبر إلى أمه فزادت اعتقاداً أنى من القديسين والأولياء وبدأت عدوى اقتناعها تنتقل إلى أبنائها ، فكان من اليسير على بعد ذلك أن أكفهم عن السرقة واتخاذها مورداً للـــرزق .

وزادت ثقتى فى مشاركة الأرواح والأشباح لى فى ذلك المكان حين زارنى صوت أخى حسنى ذات صباح – الذى توفى بعد ذلك بأعوام – زارنى نائماً وزارنى صاحياً ونقل إلى أخباراً وحذرنى أموراً ، فحرت فى أمره ولكن هذا قد حدث . وأعجب ما رأيته منه حين خاطبنى فى يقظتى .

كان ذلك ذات صباح وكان لى فى المحيط الذى أقيم فيه مصيفان ، أو هكذا أسميتهما لأنى آوى إليهما فى الصيف الذى هو كل العام إلا شهراً . فالمصيف الأول وكنت آوى إليه فى الصباح بعد أن ينحسر الظل عن بيتى ، يقوم دون أعلى القمة الجنوبية فى فجوة من الجبل ، أعددتها ونظفتها لأنى لاحظت أن الشمس تحجب عنها ساعتين من نهار ، فتحدث شريطاً صغيراً من ظل يكفينى أن أستظل به . وقد يشاركنى فيه ثعبان أو أكثر . أما المصيف الثانى فكان يبدأ الظل فيه ظهراً وكان يبدأ شريطاً ضيقاً ثم يتسع رويداً رويداً حتى أستطيع أن أتناول فيه غذائى وأشرب شاى العصر ، وأبقى إلى قرب الغروب ثم أعود إلى بيتى ، ذلك المستطيل الرملى فى مجرى السيل أستقبل الغروب وأقضى الليل إلى طلوع الشمس وكنت على هذا النظام مواظباً ، فالشيخ قد مات وتركت الذئاب وفلسفتها جانباً ، وعشت حياة عادية رتيبة لا يشغلنى الحذر ومستلزماته عن حياة التأمل التى أحببتها .

كان يوماً من أيام شهر يوليو الشديدة الحرارة وكان الماء قد جاء لى منذ أسبوع

قربتين من ماء ، ففرغت واحدة وبقيت الأخرى لأستعملها أسبوعاً كاملا . ورأيت القربة أحفظ لبرودة الماء من الصفيحة التى تجعله يغلى فتركت الماء فى القربة لعلى أشربه بارداً ، وعلقت القربة بفجوة السيل حتى لا تصل إليها الفئران فتقرضها وتضيع على ماءها هباء .

وقمت من بيتى فى الضحى ، ونقلت إلى المصيف الثانى أدوات الشاى وطعام الغذاء أبقيها هناك كى لا أعود إلى بيتى إلا قبيل الغروب كما أفعل كل يوم . ثم حملت سلاحى ومصحفى وسعيت إلى المصيف الأول فى أعلى القمة الجنوبية واستلقيت هناك على ظهرى وسلاحى بين يدى ورحت أقـــرأ قرآن كما اعتدت كل صباح . وما أن قرأت قليلا من الكثير الذى تعودت أن أقرأه حتى غلبنى النعاس فنمت مكانى . . وسقط المصحف على صدرى . . وتهاوت البندقية بين ذراعى ، ورأيت فيما يرى النائم ، كأن أخى حسنى رحمه الله جاء يزورنى وهو واقف أمامى ينادينى باسمى ويدعونى أن أقوم من نومى . . واستجبت له ، فقمت من نومى ألتمس مصحفى وسلاحى ، ولكن الصوت ظل بعد يقظتى يتردد فى أذنى واضحاً ينادينى باسمى الحقيقى الذى كدت أنساه ويدعونى أن أقوم وعجبت للأمر . وظننت أنى لا أزال نائماً ونهضت من مرقدى واطمأننت أن لا ثعبان يشاركنى مكانى .

نهضت والصوت لا يزال يتردد فى سمعى الصاحى هاتفاً « حسن . . حسن . . قم يا حسن . . قم وانزل قبل أن تنتهى . . » كان الصوت ينبعث من القمة فوقى فأيقنت أن شبحاً يخدعنى . . وقد يكون عدواً فمن يدرى ؟ وارتقيت القمة من جانب من جوانبها ملتزماً الحذر وسلاحى فى يدى مستعداً للاطلاق . وصلت القمة فلم أجد هناك شيئاً إلا الصحراء المترامية والريح تصفر فيها . . لا إنسان ولا حيوان ولا طائر يبدو فى الأفق ولكن الصوت ظل يتردد فينادى نفس النداء . . ويدعونى نفس الدعوى . . أن اهبط يا حسن قبل أن تنتهى .

لم يعد عندى شك فى أنى فقدت عقلى . فالصوت لا يزال يتردد فى سمعى

واضحاً وضوح النهار يتردد وأنا واقف على القمة ولكنه يأتى من أسفل حيث كنت منذ لحظات، لقد فقدت عقلى إذاً . . وصار الوهم يصور لى خيالات من أصوات وقد يصور لى قريباً خيالات من مرئيات، وجلست مكانى أبكى حالى . . ليتنى مت بضربة من منجل عزرائيل التى يضربها حولى . ليته لم يتركنى حتى أفقد عقلى ، وظلت دوامة الأسى تدور بنفسى ورأسى حتى تملكنى صداع . . والصوت لا يكف ، فهو يلح فى النداء .

هبطت إلى بيتى آسفاً حزيناً التمس مسكناً أسكن به صداع رأسى وما أن وصلت بيتى حتى كف الصوت عن النداء والتفت حولى فإذا قربة الماء المعلقة تتساقط منها قطرات الماء ، إن بها ثقباً ، ولو أنى بقيت بعيداً عن بيتى كما أفعل كل نهار حتى الغروب لنفذ ما فيها من ماء ، ولا ماء يأتينى قبل أسبوع . . وهكذا فهمت قول المنادى أن اهبط قبل أن تنتهى .

هل لهذا الأمر تفسيراً فى دنيا المعقولات . . ؟ لست أدرى ، ولكنه كان ذا وجود فى أيامى فى الصحراء . . مع عزرائيل والأشباح والأرواح وانقضت السنوات . . وعلمت أن أخى حسنى – رحمه الله – كان إلى يوم وفاته يؤكد أنى بخير وفى أمن دون دليل عنده على ذلك .

يقولون أن سكان الصحراء والبحار أكثر الناس إيماناً بالغيب والقدر والخوارق وأنهم لذلك كانوا أشد الناس تمسكاً بالتعويذات لتحميهم من قوى الشر . ولعل حياتهم وسط الخطر المحدق من كل جانب هى سبب ذلك وأنى لا أصدق هذا القول فأنا ما خاطبت طول حياتى روحاً ولا اتخذت تعويذة ولكنى اتخذت لنفسى فى الصحراء تعويذة ، ما نسيت يوماً أن أرددها قبل نومى . فإن حدث ونسيت جافانى النوم حتى أذكرها وبقيت هذه التعويذة تلازمنى بعد أن تركت الصحراء وغيرها .. وهاجرت معى خارج مصر حين هاجرت .

وتوالت الأيام على الصحراء حتى كدت أنسى لون الخضرة وجريان الماء . وشاقتنى رؤية اللون الأخضر وإنبات الحى فزرعت عود نعناع وسقيته بعض

ما أشرب حتى نبت وأينع ثم جاءت جرادة فأكلته . . وجاءت حرباء فأكلت الجـــرادة . . وحلق صقر فى السماء ثم انقض فاختطف الحرباء بل أكلها وأطلقت أول رصاصة من بندقيتى فأصابت الصقر فسقط ميتاً بين يدى .

وأحسست أنى سيد الموقف وأن لا خشية على هنا أبداً ما دام سلاحى فى يدى والموت يحمينى فلو أن الجبال ذاتها أرادت أن تنطبق على لدفعتها بيـــدى . . ولو جردت الدولة على جيوشها لولت هرباً أمامى . . ودخل قلبى الأمن الحقيقى وامتلأت نفسى اطمئناناً . فكنت أنام ملء جفونى وأترك سلاحى وأسير فى الصحراء أنشد شعراً . . وأستغرق فى التفكير ما شئت لأكتب سطوراً عندئذ تحركت فى غريزة الذئب التى غرسها الشيخ فى ولا أدرى ، ورن فى سمع أعماقى صوته الهادىء احذر يا ابنى حيث تأمن . . الصوت مضجعى وحرمت النوم وإذا غلبنى النعاس من الإعياء روعتنى الأحلام وأيقنت أن لا مقام لى هناك فحملت ما استطعت من أمتعتى وأدواتى ونزحت عن المكان . . نزحت إلى الريف أتخذه بعد الصحراء مقاماً لأعيد إلى نفسى الشعور بالخطر وما يوجبه من حذر .

سرت إلى الريف لأواجه حياة أخرى لها أخطارها ولكنها أخطار غير تلك التى ألفتها فى الصحراء والتى قام الموت فيها دونى يحمينى ممن يحاول أن يقترب من مكانى أو يفزعنى عنه .

سعال مسلول يجذبني إلى المدينة

لم يطل مقامي في الصحراء حين لجأت إليها في ١ مارس سنة ١٩٥٦م غير شهر واحد ، قضيته منقطعاً إلى الكتابة انقطاعاً كاملا . كنت أكتب طوال نهاري . . حتى في الليـل ، كنت أكتب على ضوء مصباح بترولي صغير (سهراية) ولكن النار كانت مصير أغلب ما كتبت في تلك الأيام . . ووصلت البقية إلى بدر ليقـرأها ثم أعادها إلى ليكون بعضها أغلب هذه الكلمـات .

عدت إلى المدينة بعد شهر ، فوزعت أيـامي بين مقـام عادي في البلـدة التي أعمل بها فلاحاً يزرع أرضاً . . وبين مقام حبيس في بيت أولاد الشيخ أحمـد في بلدتهم . لا أغادر داخل الدار أبداً إلا مسافراً .

وكان يشاركني الغرفة عليان ابن الشيخ . وكان يشكو سعالا طوال الشتاء المنصرم ، يعالجه بالشاي تارة وبعشب جبلي وصفوه له تارة أخرى ، وبتعويذة كتبها له درويش غيري تارة ثالثة ، ولكن السعال استمر .

وأقبل الربيع . وبدأ الجو يشيع دفئاً يجدر به أن يزيل ما أصاب عليان من برد الشتاء . ولكن السعـال يشتد مـع الدفء ، وهزال الشاب يتزايـد ، ويذبل لونـه ، ويعجز عما كان يقوم به من أعمـال الحقل . وأخشى أن يكون وراء هذا السعال والهزال مرض فأقرر أن أبعث به إلى الطبيب في مدينـة غير بعيدة عنا ، وأذهب معه .

وفي يوم من أيام إبريل سنة ١٩٥٦م ، تطأ قدماي المدينة لأول مرة منذ أكثر من عـام . ينزل من القطـار ريفيان يلبس كل منهمـا جلباباً فضفاضاً من الصوف فوق جلبـاب آخر من القطـن . فإن اشتد بهما الحر خلعا الجلباب الصوف وحملاه فـوق كتفهما . وكان كل منهما يحمل في يده عصاة ظاهرة ويخفي بين ثيابه الواسعة سلاحاً . كان زميلي يخفي سكيناً ، وكنت أخفي مسدسـاً

أعتدت أن أحملة منذ هجرت الصحراء أول مرة ، ولم أستطع أن أحمل فى الريف بنـــدقيتى . وكانت معنا ورقة كتب عليها بخط يشبه خط المبتدئين فى كبر حـــروفه عنوان فندق صغير ، وعنوان طبيب لأمراض الصدر .

وتلفت الريفيان حولهما منذ وطئت أقدامهما أرض المدينة ، كما يفعـــل كل ريفى تماماً . وخشيا السؤال . . ثم سألا فى رفق واضطراب يوحى لابن المدينـــة أن يسخـــر منهما وإن حاول أن يعينهما . وكنت فى الواقع قلقاً خائفاً ، فأضـــفى على قلقى وخوفى نوعاً من الاضطراب الحقيقى يزيل الشك فى شخصيتى من أذهان النـــاس .

ونسير فى طرق المـــدينة ، وأنا أتلفت لأشاهد مبانيهـــا العـــالية وشوارعهـــا المرصوفـــة وواجهات محلاتها التجارية وسياراتها المـــزدحمـــة ، وكأنى أراها لأول مرة . . وأنا من عشت فى المدينة طول حياتى . . ونسأل عن عنـــوان الطبيب أكثر من مرة حتى نصـــل إلى عيـــادته . . ويكشف الطبيب على زميلى فيشتبه فى أمـــره . . ويأخذ له صورة بالأشعة . ونضطر أن نبقى فى المدينة يوماً لنعلم أن فى الغـــد قرار الطبيب .

ونأوى إلى الفندق الصغير الذى معنـــا عنـــوانه ، فنحجز سريرين . ونأكل غذاءنا البسيط الذى أحضرناه معنا فى منديل ، فأتجنب بذلك الخروج إلى الشارع . لقد كنت أخشى الشـــارع فى المدينة وأحس اضطراباً وأنا أسير فيه إذ يخيل إلى أن كل الناس تنظـــر إلى كأنها تشتبه فى وتوشك أن تعرف شخصيتى .

ولما كان الليـــل وجـــدت فيه مجالا أن أغادر الفندق لأسير قليلا ، وأتنـــاول عشائى ثم أجلس على مقهى متواضع أرشف فنجـــان قهوة ، وأجذب أنفاس الدخـــان من الجوت ثم أنفثها فى الهواء إلى أعلى كما يفعل أمثالى من الريفيين إذا دخلوا المدن الكبيرة .

وفى الصباح يقرر الطبيب أن الشاب مسلول . .

وأسأل الطبيب عن أتعاب علاجه ، فإذا بها ليست بالشيء القليل ، فأسأله عن إمكان العلاج فى المستشفى الحكومى الذى هو مسئول عنه فيؤكد أن لا أمل فى خلو مكان به قبل عام حين يكون الشاب حطاماً لا أمل فى علاجه . فأعود بالشاب ضريع السل ، ليعيش معى فى بيته فى غرفة واحدة . . يسعل نهاره ويئن ليله . . فلا أحتمل سعاله ولا أنينه . . ويجذبنى سعاله المتزايد إلى المدينة مرة أخرى عسى أن نجد له من علته علاجاً ، أذهب به إلى المدينة وفاء لأبيه ، وأملا فى أن آلف حياة المدينة لأسعى منها إلى الخروج من مصر إن استطعت بعد أن تبين أن لا أمل لى فى ذلك من الريف .

ونبيع محصول الشتاء فى أواخر إبريل عام ١٩٥٦م قبل أن نحصده . وأبيع شتلتين كنت قد اشتريتهما وأذهب بالشاب إلى المدينة ، ونتفق مع الطبيب على العلاج ، وندفع له الأجر . ويقول الطبيب أن العلاج يستدعى بقاء الشاب قريباً منه شهراً كاملا ، فنفعل ذلك . . ونبقى فى المدينة بغرفة استأجرناها معاً فى الفندق الصغير المتواضع . نزلنا الفندق كأبناء عم أمام الناس من أهل المدينة . . وكنزيلين جمع بينهما المرض أمام من يزور الشاب من أقاربه الذين لا يعرفوننى .

وعشت فى مركز العدوى بذات الرئة شهراً عشت مع مرض السل أرى تطوره ، وأرقب خطواته وتحسنه وانتكاسه . لقد عشت مع الشاب فى غرفة واحدة قبل ذلك كثيراً ، وكان يفزعنى سعاله . . ولكننى ما كنت أدرى أن هذا السعال وراءه مرض قتال يفتك برئتيه وقد يفتك برئتى أنا أيضاً . كنت أرعى الشاب المريض ليله ونهاره . . أوقظه ، وأطعمه ، وأسقيه ، وأعطيه دواءه وأساعده حتى أضعه فى فراشه . ثم أقضى الليل أعد أناته وسعاله . . وأرثى لحاله ، ولحالى إذا أصابتنى منه العدوى ولم أحاول أن أفعل شيئاً يدفع السل عن صدرى ولكنى كنت واثقاً أن وفائى سيدفع عنى كل مرض . . ولكنها ثقة لا يكتف بها العقلاء عادة .

كان أجر الطبيب وثمن الدواء وأجر الفندق كبيراً ، فلم يبق معنا إلا القليل من المال فكنت أطعم الشاب المريض عشاءه مبكراً ، وأأخر عشائى حتى ينام كى لا أشعره أنى خصصته بالغذاء . فالطبيب أوصانى أن ينال من الغذاء المقوى قسطاً وافراً . . وفى الليل أعطيه دواءه ، ومسكناً للسعال ليتمكن من النوم . . فالنوم الطويل مع الغذاء المقوى أهم وسائل العلاج كما قال لى الطبيب لقد خصنى الطبيب دونه بالوصايا لأن المريض لا يوصى عادة ، أو لأنه رأى أنى أسرع من زميلى فهماً وأدق أسئلة عن العلة وأسبابها وتطورها .

يبدأ الشاب ليله بأن ينام نوماً هادئاً يعينه عليه المسكن القريب العهد به . وآكل أنا لقمة يسيرة ، ثم ألزم فراشى صامتاً فى الظلام حتى لا أزعجه . . ويقترب الليل من منتصفه ، ويقترب النوم من جفونى ، ويبدأ سعال الشاب مبحوحاً . . ثم يعلو ويشتد ، فينقلب إلى حشرجة أحس أن روحه تخرج معها . ويئن ويشتد أنينه حتى كأنه يستغيث من الآلام تمزق صدره ، وتصدع رأسه . . وتغشى كل جسمه . وأقوم من فراشى لأقلبه على الجانب الذى نصح به الطبيب ، فينتفض من نومه . . ويبقى ساعة يشكو . . ثم يعاود تعاطى المسكن ، فينام . وأحاول بعده أن أنام إلى أن تكون النوبة قد عاودته . . فتعاد القصة من أولها .

وكان فى النهار لا يغادر فراشه إلا لعيادة الطبيب ساعة ثم يعود . وكنت أستطيع أن أنال قسطاً من نوم أثناء النهار لا يعوض إلا بعض ما ألقى من عناء الليل . فلم أستطع أن أحول دون الهزال يدب إلى جسمى وكاد ما معى من مال أن ينفذ ، فكنت قليلا ما آكل كفايتى . . حتى زارنى مختار وثابت حين علموا بمقامى ، فهالهم ما عليه حالى . . وأشفقوا أن أكون قد هربت من عذاب السجن لألقى عذاب العدوى بذات الرئة . وكانت زيارتهم لى فرجاً ، فقد أعانونى بما احتجت إليه من مال ، وأصروا أن

أذهب إلى الطبيب يفحصني . وأكد لى الطبيب أنى لم أنل العدوى بعد وأن لاخوف على منها إذا نلت قسطاً عادياً من غــذاء أو نوم .

ومرت أيام ، وكاد الشهر أن ينقضى ، وأحس عليان مع العلاج والراحــة والغــذاء المنتظم أن علته كادت تزول وأنه استرد بعض صحته . فعاد يحدثنى عن غرامه . إنه يحب فتاة سمراء من بلدته ، ويتمنى أن يتخــذها لنفسه زوجة . إنه ينتظر نهاية العام ، حين تسد الترع فتخلو من المــاء ولا يجــد الريفى عملا يقوم به ، فيتزوج أو يشارك غيره أفراح زواجه . إن الشاب يحصى نصيبه من أجــر الحراسة ومن محصول القطن فى زراعته ، ويضيف إليهما ما يفترض أنى سأعطيــه إيــاه . .

ومن مجموع هذا كله يدبر المهــر ومصاريف الزواج . وهو لا ينوى انتظــار زواج أخيــه حامد الذى يكبره والذى يبدو أنه لا يفكر هذه الأيام فى الزواج . لقد كان هذا الحديث فيما مضى يسرنى ، فأشارك فيه ، وأراه نوعاً من الحب البرىء الساذج والأمانى البسيطة لهؤلاء الناس . ولكنى اليوم لا أستطيع لهذا الحديث سماعــاً ، فأنا لا أشارك فيه وأتمنى أن يقلــع محدثى وينصرف إلى حديث آخر . فالشاب مسلول وهو لا يدرى . . والطبيب يؤكد أنه لا يجوز له أن يتزوج قبل خمسة أعــوام . . خمسة أعوام تكفى لأن تتزوج تلك الفتاة السمراء وتنجب أربعة أطفال وهى لا تدرى أن فى هذا الصدر الممزق قلباً خفق بحبها يوماً . وأنا لا أريد أن أصدم الشاب بهذا النبأ الآن ، وهو لا يفكر منذ بدأ يشعر بتحسن صحته إلا فى زواجه المنتظر . وانقضى الشهر ، وجاء حامد ليعود بأخيه عليــان إلى بلدته على أن يتردد على المدينة كل أسبوع ليواصل علاجه . وأسررت لحامــد برأى الطبيب فى زواج عليان ، وأوصيته أن يحفظ السر حتى نهاية العــام . . ولكن حامــد لم يستطع أن يحفظ السر أكثر من أسبوع واحــد .

سافر من المدينة ذلك الشاب الذى جذبنى سعاله إليها ، وتركنى بها لأواجــه حياة جديدة لا أدرى إلى أين تذهب بى . لقد أصبح لى فى المدينة ــ خلال هذا

هذا الشهر — معارف يحبون « ناجى » ويرضون أن يشاركوه عملا جديداً يكسب به قوته ، ويستثمر رأس ماله الصغير .

بدأت حيـــاة جديدة بالمدينة ، هيأت لها فى تلك الأيـــام التى قضيتها مع عليان أرعـــاه فى مرضه ، فإنى منذ تلك الأيام ، بدأت أتعرف على بعض الناس . . وكان أكثرهم تجاوباً مع صاحب مقهى قريب من الفندق الذى أنزل فيه . كنت مجرد عميل من عملائه ، ثم صرت له صديقاً يزورنى فى الفنـــدق وأزوره فى المقهى ، وأنس كل منا للآخر ، وقبل أن يشاركنى فى عمل بالمدينـــة .

وكنت قد اخترعت قصة أعيش تحت ستارها مع هؤلاء الناس ، وأتجنب بها لقاء من يأتى من البلـــد الذى انتسبت إليه . وكانت القصة تصورنى فى صورة ريفى مهاجـــر إلى المدينة لا طلباً للكسب فحسب ، بل فراراً من ثأر قديم كان المسؤال الحقيقى عنه أخ لى مات منذ سنوات . . والثأر فى تلك البلاد التى أنا منها لا ينسى ولا يترك ، وإن انقضت سنون ، ومات المسئول الحقيقى عنه ، وتبادلنا عليان وأنا رواية تلك القصة ، نصـــدق كل منا الآخر حتى صارت فى أذهان الناس حقيقة لا مجال للشك فيها . . هكذا تصورنا ، وأيدت كل الظواهـــر صدق تصورنا .

كنت أتخذ سيماء الجد أمام الناس حين يروى عليـــان قصتى المخترعة فيقول أنه كان لناجى — الذى هو أنا — أخ كبير قتل رجلا من عائلة أخرى بالبلـــد فيما مضى من الأعـــوام ، وكان ناجى وقتذاك غـــلامـــاً صغيراً . وتصالحت عائلة عليان فخرجت من طلب الثأر . . ومات القاتل ، وشب ناجى فصار رجلا . . وظل أهل القتيل يطالبونه بذلك الدم القديم الذى أراقه أخ له منذ أعـــوام . . ويسكت عليان ، وأتم أنا الحديث قائلا إنى ضقت ذرعاً بحياة الريف الذى يخفـــق تحت علم الثأر دائماً ، وآثرت أمن المدينة بعيداً عن ذلك الخطر الذى يهددنى عقابـــاً عن جرم لم ترتكبه يداى . . وأذكر السامعين كيف أنى أتجنب لقاء من يقـــدم

المدينة من أهـــل بلدتى والبلاد المجاورة ، خشية أن يكون القـــادم طالب ذلك الثأر القديم ، أو دالا أصحاب الثأر عن مكانى .

ويؤمن معارفى على قولى أن لا ذنب لى فيما ارتكب أخى قديماً . ويعينونى على أن لا أقابل أحـــداً من أهل بلـــدى ، ويشجعوننى على أن اتخذ من المدينة مقامـــاً لى وأبحث عن عمل فيها : فأنا فى نظـــرهم جدير بأن أنجح لما أنا عليه من الفهم وحب المسالمة . . هذه صفات المدن لا أهل الريف . .

وبدأ هؤلاء المعارف يعينونى فى البحث عن عمل يشاركنى فيه صاحب ذلك المقهى الذى كنت أجلس فيه ، والذى صـــار لى صديقـــاً . وشجع على اختياره شريكاً لى ما رواه من عزمه على التخفف من أعبـــاء العمل بالمقهى لينصرف إلى زراعة أرض اشتراها ببلـــدته أخيراً . وما أن عاد عليان إلى الريف ، حتى كنا قد اتفقنـــا — صاحب المقهى وأنـــا — على الإشتراك معاً فى المقهى الذى يستأجره ويديره ، والذى من ربحه اشترى تلك الأرض ببلـــده .

اتفقنا على أن أبدأ فترة اختبار نجرب كل منا فيها الآخر . فأعمل عاملا بسيطاً فى المقهى مقابل أجر ، لأتدرب على هذا النوع الجديد من العمل الذى لم يسبق لى أن مارسته . ومن شأن تلك الفترة أن تهيىء لى معرفة حقيقة ما يدر المقهى من أرباح وما يحتاجه من نفقـــات . وكان المتفق عليه — بعد فترة الاختبـــار هذه — أن أشارك صاحب هذا المقهى عقد إيجاره لها وإدارتها ، فأبيع ما أملك من خراف فى بلـــدى ، وأدفع نصيبى . . ولم تكن لى خراف ، بل كنت سآخذ هذا المبلغ من بـــدر لأدفعه كنصيبى فى المقهى وإدارتها .

بدأت العمل كقهوجى ، فاشتريت جلبابين من قماش شعبى بكم ضيق ، ووضعت فوطة بيضاء على صدرى ، واستبقيت غطاء رأسى التقليـــدى وإن أعفيته من لفة العمامة . وصار مألوفاً أن يرانى المـــارة منذ الصباح مشمراً جلبابى عن ساقى أمسح بلاط الأرض ، وأكنس أمام المقهى ، وأنظم الكراسى والمناضد . . ثم أغدو وأروح أغلب نهارى وشقاً من ليلى ألبى للزبائن طلباتهم من شاى وقهـــوة

وكوكا كولا وتعميرة . وكان الحال لا يخلو من عميل كريم يتحفنى بقرش أو نصف قرش كبقشيش ، أتقبله شاكراً داعياً له بالخير .

وفرض لى صاحب المقهى أجراً عادلا أناله بعد عمل مضنى متواصل ، مائتين وخمسة وسبعين قرشاً فى الشهر . لقد كان أجرى أقل الأجور فى المقهى على الإطلاق . . ولكن لا غرابة فى ذلك فأنا عامل مبتدىء غير ذى خبرة ، وأنا أنام فى المقهى إذ وضعت لى حشية من قش فى ركن بالدور الأعلى من المقهى أنام عليها إذا انصرف الزبائن جميعاً وأغلق المقهى . . فلا بأس هناك من أن أنال أول الأمر أجراً بسيطاً ما دمت سأشارك بعد ذلك فى الربح الوفير .

وكان هذا المقهى ملتقى كثير من الطلبة والموظفين والأعيان . . وكان بعض رجال البوليس يرتادونه أيضاً . وقد عرفنى هؤلاء الزبائن كعامل فى المقهى سيصبح بعد حين أحد أصحابه . . ووجدوا فى شيئاً لم يجدوه فى غيرى من عمال المقهى . . شيئاً يرجع إلى ظروفى الخاصة فى الماضى والحاضر ، تلك الظروف التى لا يعلمون عنها شيئاً . لقد سمعت بعض هؤلاء يتمنى لو أنى تعلمت ليكون لى شأن آخر غير الذى أنا عليه . . وتوثقت الصلات بين هولاء العملاء وبينى ، وبادلونى احتراماً باحترامى إياهم ، وإن كان هذا الإحترام منهم قد حرمنى ما كان يمكن أن يعطونى إياه من بقشيش . وكان بعضهم ينادينى بالسيد « ناجى » تواضعاً ومراعاة لما سأكون عليه . وبلغت صلة بعضهم بى أن كانوا يعرضون على الأفيون ، لأن المفروض أن أمثالى يتعاطونه فإن اعتذرت ألحوا ، فآخذه منهم لأعطيه لزميلى رمضان . ما كنت أحسب إلى ذلك الوقت أن المخدرات منتشرة فى مصر بين كافة الطبقات برغم قسوة العقوبات المفروضة عليها . . حتى شاهدت ذلك بنفسى ، وشاهدت من المسئولين عن ضبطها أكثر الناس إقبالا عليها .

ورمضان — زميلى فى المقهى — عامل قديم فيه ، يتقاضى أكثر من ضعف أجرى فهو يتقاضى ستة جنيهات فى الشهر الواحد ، ويبلغ ما يحصل

بقشيشاً من كرام الزبائن جنيها ونصف جنيه . ولكنه كان يتعاطى من المخدرات ما لا يقل ثمنه عن نصف جنيه يومياً . . وعجبت كيف يوازن رمضان ميزانيته ، وكيف ينفق على عائلته الكبيرة . . حتى علمت – بعد عـــام – إن إدارة المخابرات العسكرية فى مصر وصلت إلى حدود من الإسراف فى سبيل التجسس ما كنت أتصورها من قبل واستغل أناس غفلها فى الإسراف فنظموا حياتهم على الاعتماد عليها كمورد مكمل لعجـــز ميزانيتهم .

أوجس رمضان منى خيفة أول الأمر كعامل جديد نشيط قد ينافسه بقشيش الزبائن ولكنه بدأ يتقرب إلى حين علم أن مآلى فى القريب أن أكون أحد أرباب العمل . وظل صديقاً لى بعد تركى المقهى ، وأعاننى فى البحث عن سكن بجوار منزله . . وكانت زوجتـــه تطهـــو لى طعامى بعض الأيـــام . . وظلت علاقتنا بعد ذلك طويلا ، وأنا لا أدرى أنه أحد عملاء إدارة المخابرات العسكرية ، وهو لا يدرى أننى طريد المخابرات العسكرية تبحث عنى فى كل مكان .

وكان مفهوماً أنى أعـــرف القراءة والكتابة وبعض قواعد الحساب ، فاستعان بى صاحب المقهى فى عمل الحسابات ، أجمع الإيراد والمنصرف ، وأقيد ما يسحبه العمـــال تحت حساب أجـــورهم . وكانت هذه فرصتى فى التعرف على المركز الحقيقى لربح المؤسسة التى سأشارك فيها برأس مالى . . أو رأس مال صـــديقى بـــدر ، وأن أغضبه هذا التمييز .

وكان مســـاء . .

كان المقهى قليل الرواد هادىء الحركة ، وأنا أجلس قريباً من الباب على مكتب مدير المقهى الغـــائب ، وأمامى دفتر أكتب فيه بعض الأرقام أو أجمعها . . ورمضان متكىء على المكتب بمرفقيه يقطع على عمليات الحساب بين الحين والحين بقصة يقصها ، أو نادرة يرويها ، أو سؤال يطرحه ولا يعنيه أن أجيب عليـــه . .

وأقبل ثلاثة رجال ، وألقى أحدهم تحيـــة المساء بصوت آمـــر جاف . .

ورفعت بصرى من دفترى فوجـــدت أمامى أحد ضباط البوليس ممن عملوا معى قديمـــاً فى النيابة العامـــة . . فأنا أعرفه وهو يعرفنى . .

وطلب الضابط أن يدخل دورة المياه فى الطابق الأعلى من المقهى . . فقـــاده رمضان إليها ثم عاد . . بينما جذب الرجلان اللذان كانا معه كرسين ، وجلسا غير بعيد عن مجلسى . وألقيت نظـــرة على الشارع فلم تخطىء عينى أشكال المخبرين يسدون منافذ القهـــوة إلى الشارع . .

هبط رمضان من أعلى ، وانحنى على يقـــول :

— هل تعرف من هؤلاء ؟

— لا . . (وخرجت من حلقى بعـــد جهـــد شاق) .

— إنهم ضباط المباحث . وهذا الذى صعـــد رئيسهم . كم هو داهية ماكر ، قاس لا يرحم . . إنه جاد فى عمله لأنه لم يذق المخـــدر أبداً ، لقد صعـــد المقهى بتلك الحجة التى انتحلها ليتأكد إن كان أحد يدخن الحشيش بأعلى المقهى أم لا ؟ أنظـــر . . هؤلاء هم المخبرون يسدون علينا الأبواب . . ولكن اطمئن فلا أحد بالطابق الأعلى أبـــداً . .

وراح رمضان يثرثر ويعلق على كل ما يدور ، وهو لا يدرى أنى فى دوامة لا قرار لها . . أنا لا أخشى البحث عن المخدرات ، ولكنى أخشى البحث عنى . وأيقنت أنى أنا المقصود بهذه الحملـــة . . لا شىء غيرى . وانكببت على دفترى فوق المكتب مدعياً الانهماك فى العمل ، وأنا لا أستطيع أن أرى الأرقام أمامى ، ولا أن أجمع شتات أعصابى التى تناثرت وأفلتت من يدى تماماً . . ليت الأمر سيقف عند ضياعى أنا . . لقد كان هناك — بالركن الذى أنام فيه بأعلى المقهى — سلة بها بعض ما أكتب من أوراق . . وبها « مذكرات هارب من نفسه » كما كنت أعتبر نفسى فى تلك الأيام بعد أن تركت الصحراء فأصبحت أهرب من كل شىء ، حتى نفسى . وكانت تلك المذكرات لا تشير إلى شخصيتى فحسب بل وتشير إلى صلتى ببـــدر وغيره ممن أعـــانونى طوال هربى . . تشير إليهم وتذكر

أسماءهم صراحة وهم أبعد الناس عن الشك فيهم . وأحسست أنى ضيعت نفسي ، وضيعت معي كل من أدى لى فضلا لا ينسى . . ومن يمكن أن يواصل الطريق .

ومرت دقائق لا أعلم كم هى ؟ . وهبط ضابط البوليس من أعلا . أحسست به حين انتصبت قامة رمضان بجوارى ، وهم الجالسان على الكراسى غير بعيد منى وقوفاً . وسعل الضابط سعالا مصطنعاً لينبهنى إلى وقفته أمامى . . فرفعت نظراً متوجساً . . ورفع الضابط يده إلى رأسه وهو يقول :

— متشكر . . . متشكر جداً : . مساء الخير . ؟

وانصرف مسرعاً ومعه أعوانه . . ولم أستطع لتحيته وشكره رداً ، فقد كنت قد فقدت صوتى تقريباً . . ولم أقم من مكانى كما فعل غيرى ، لأن ساقى عجزتا عن حملى . .

وبقيت على مكتبى وقتاً لا أدريه ، كالغائب عن الشعور . وتركت رمضان لينصرف إلى الزبائن الذين بدأوا يتوافدون على المقهى . وأرسلنا إلى صاحب المقهى ليحل محلى ، واعتذرت عن العمل ليلتى تلك بأنى متعب . وصعدت فجمعت أوراقى من سلة ملابسى فمزقتها . . وخرجت أختبىء فى دار للسينما حتى منتصف الليل . وعدت واثقاً أن هذه آخر ليالى مع حريتى ، ولكنى كنت أهدأ بالا ما دمت قد جنبت غيرى ذلك المصير الذى ينتظرنى .

عدت إلى المقهى مع منتصف الليل خائفاً أترقب . فلم أجد حول المقهى ما يريب . . فقلت لعل الأمر مؤجل إلى قرب الفجر حين تقدم القوة لتعتقلنى . وأيقنت أن ليس لى من هذا المصير مفر : . فقررت أن أبقى ، وأن أموت مكانى . كنت لم أترك سلاحى بعد ، كنت أحتفظ بمسدس أحمله حول وسطى دائماً يعيننى ثوبى الفضفاض على إخفائه عن أعين الناس . فقررت أن أقاوم به القادمين لاعتقالى حين يقتلوننى .

دخلت المقهى وكان على وشك الإغلاق ، فلم أسلم من سخرية رب العمل

أن كنت مريضاً ، وها أنذا أعود بعد منتصف الليـــل من نزهتى . وخـــرج الجميع إلى بيوتهم ، وأغلقت خلفهم الأبواب ، ووضعت المفتاح فى جيبى وصعدت إلى أعلى المقهى لأنـــام حيث اعتدت أن أنام كل ليلـــة . ولكنى لم أنم . . راحت تدور فى ذهنى صور ما ينتظرنى فى السجن حين يقبض على ، وكنت أسائل نفسى ما مصلحـــة هذا الضابط فى أن يرشد عنى ويقبض على ؟ صحيح أنه سينال مكافأته وقد يرقى . . ولكن ، هل يكفيه هذا لينضم بكليته إلى إلى معسكر أعداء الحريـــة ، وكنت أعرفه فيما مضى ذا خلق يؤمن بحريـــة الناس فى عصر كنا ننظر إلى ضباط البوليس فيه كأعداء للأحرار .

كنت واثقاً من أنه سيعود ، ومعه قوة كبيرة ، وأنى سأقاومهم وأموت برصاصهم كم هو عسير على الإنسان أن يموت مكانه . . وأحسست برغبة أن أنجو بحياتى مرة أخرة . . فقمت أفتح الشباك ، وأنظـــر هل من طريق للهرب إذا داهمتنى القوة بعـــد ساعات ؟ فوجدت الطريق ممهدة يسيرة ، توصل إلى حديقة بيت لا يسكنه أصحابه . . ومنها إلى شارع بعيـــد . . أسير بعده إلى الحقول خارج المدينة . . طريداً بكل معنى الكلمـــة . . أو درويشاً مرة أخرى ، فالدرويش يحق له أن يسير فى الحقول ليـــلا لا يخشى أحداً إلا رجال الأمن . وراقتنى الفكرة ، فتلمست ثيـــاب الدراويش بين ملابسى فوجدتها ، وأخرجتها من مكانها وارتديتها . ولكنى لم أجـــد فى نفسى دافعاً للهرب الآن . . بل آثرت أن أبقى هكذا مستعداً للطوارىء حين يعود الضابط بالقوة . . ومن يـــدرى ، لعله لا يعـــود . .

ودق الباب أسفل المقهى دقاً عنيفاً أعرف فيه عنف البوليس حين يأتى باحثـــاً عن برىء أو جان . . ونظرت فى ساعتى ، فكانت الواحدة . . إن الوقت مبكر لأمثال هذه الحملات ، ولكن لعل الضابط يتعجل ترقيته . ووضعت قدمى على حافـــة النافـــذة . . والباب يواصل الطـــرق . . وصوت ينادى عاليـــاً : « افتـــح يا عم ناجى » . .

إنه صوت رمضان .. ما الذى جاء به مع البوليس الآن . . ؟ هل سيكون دليلهم على ؟ أم هو مخلب القط الذى اختاروه لأفتح له الباب دون مقاومة . . ؟ وخيل إلى أن الوفاء انعــدم من هذه البلاد ، إذ ما الذى يدعو رمضـــان لأن يعـــاون البوليس ضدى ، وهو لم ير منى إلا كل خير . . وما الذى يدعو الضابط الذى كان حراً إلى محاربة الأحرار . . ؟ وساء ظنى فى الشعب ، وكدت أنسى ما قدمه لى أفراده من قبل .

وترددت فوق حافة النافذة لحظة . . هل أهرب ؟ . . هل أقاتل بعد أن لم تصبح للحياة قيمة بين جمـــع من غير الأوفيـــاء . . ؟ وهبنى هربت ، أين أذهب ؟ إن رمضان وصاحب المقهى يعرفـــان أين أولاد عمـــى . . ومنهم ستتبع الدولة خيطاً يوصل إلى حتماً ويقضى على من أعانونى . . فخير لى والحال هكذا أن أموت مكانى . .

وخرجت إلى الشرفة المطلـــة على الباب والشارع . . والصوت ينادى . . والدق مستمر . . ومسدسى فى يدى أنوى أن أبدأ باطلاق النار . وألقيت نظرة فى حـــذر ، فإذا الشارع خال من كل عابر أو واقف ، إلا رمضان لا يكف عن دق الباب ولا يكف صوته عن النداء : « أفتح يا عم ناجى » . .

وصحت به من أعلى المقهى فى عصبية ظاهرة :

— ماذا جاء بك . . وما الخبر . . ؟

— افتح يا سى ناجى . . لقد نسيت هنا تموين الصباح . .

وفهمت ما هو تموين الصباح ، فلعنت الرجل ولعنت تموين صباحـــه . وهبطت ففتحت له الباب . . فدخل مسرعاً إلى ركن من المقهى ليخرج من شق بالحائط لفافة صغيرة فيها تموين صباحه ، قطعة من أفيون ، إذا أصبح الصباح ولم يبتلعها قبل أن يغادر فراشه ، فلن يغادره أبـــداً . . وانصرف رمضـــان بتموين الصباح ، وبقيت أنا ساهراً أرقب الصباح ، وقد فقدت البقيـــة الباقيـــة من أعصابى .

وقررت العودة إلى الريف أبقى فيه وقتاً أجمع شتات أعصابي التي بددتها تلك الليلة ، وأفكـــر فيما سيكون بيني وبين الضابط الذى لم يزرنى بعد بقوة ليعتقلني . وكان لى فى السفر إلى بلدى عذر مقبول ، فالاستفتاء على الدستور واختيار رئيس الجمهـــورية سيقـــع بعـــد أيام ، وطبيعى أن أؤدى هذا الواجب السياسى العام فى بلـــدى بدلا من أن أؤديه فى المدينة وإن كان هـــذا مصرحاً به . وأذن لى صاحب المقهى فى السفر ، وفى أن أتغيب أسبوعاً . جمعت سلة ملابسى ، وخرجت أسعى إلى القطار لينقلنى إلى تلك البلـــدة التى أعيش فيها فلاحاً مع ابن عمى حامد ، والتى قيدت فيها كناخب له حق التصـــويت فى استفتاء الرئاسة والدستور . وفى طريقى إلى القطار ، وأنا أسير مرهق الأعصاب تحت عمامة على رأسى وسلة على كتفى وثوبين فضفاضين يخفيان انتفاض جسدى . . قابلنى نفس الضابط الذى كان بالمقهى بالأمس . نظـــر إلى وابتسم ، ورفع يده محيياً وهـــو يقـــول :

— صباح الخير . . كيف حالك ؟ أرجو أن تكون بخير . .

وسار فى طريقه ، وسرت فى طريقى . . وأنا أجيب بهمهمة غير واضحـــة . لقد عرفنى كما عرفته ما فى ذلك شك ، وحال وفاءه دون الإفشاء بسرى . . ورفض أن يبيعنى بمكافأة أو ترقية ، مساهم بذلك فى معركة الحرية فى صفوف المؤمنين بها . . فبقى كما كان دائماً ، وإن اضطرته ظروف عملـــه أن يخـــدم دولة تحارب الأحرار ، كان وفياً للفكرة لا لشخصى ولا لسابق معرفتـــه بى . . ورد هذا الوفاء منه إلى ثقتى فى الشعب وقضيته . فواصلت سفرى إلى الريف عازماً أن أرجع إلى المدينة بعد أيام ، وأن أواصل حياتى بها حتى أمهـــد السبيل لنفسى كى أترك مصر ، وأنضم إلى ركب الداعية لحـــرية ذلك الشعب .

ذهب مع الريح

فى يونية سنة ١٩٥٦م . كان اسم عبد الناصر قد بدأ يرتفع حقيقة لا وهماً . فنى ذلك الشهر جلت القوات البريطانية من القنال ، وكانت مصر تتعامل مع الكتلتين الغربية والشرقية دون أن تتورط بربط اقتصادها بإحدى الكتلتين ربطاً يعجزها عن مواجهتها بالحقائق . وكان العرب — فى كل قطر — قد بدأوا يجدون فى عبد الناصر رمزاً للقومية العربية وممثلا لنظرية الحياد فى الشرق الأوسط ، تلك النظرية التى كان كافراً بها من قبل والذى اعتبرنا واهمين حين طالبناه بها ، ولم تكن مؤامرات عبد الناصر على سلامة القومية العربية وأمنها قد اكتشفت — وهكذا كانت أسهم عبد الناصر فى ارتفاع . ولكن الدكتاتورية مقامرة بطبيعتها ، فهى لا ترضى بالكسب التدريجى والتطور الطبيعى نحو الارتقاء .. بل هى تقامر دائماً لتكسب كل شىء ، أو تخسر كل شىء ، فى ذلك الشهر بالذات جرى الاستفتاء على رئاسة الجمهورية وعلى الدستور الجديد الذى أعلنه عبد الناصر بعد أن نحى مشروع الدستور الذى كانت قد وضعته اللجنة محاولة أن ترعى الحريات وأن تحقق مطالب الأمة المصرية . . وكان الاستفتاء نوعاً آخر من مقامرة الدكتاتورية . ولكنه كان مقامرة غير شريفة غش فيها المقامر ففقد فيها احترام الناس . ولو أن عبد الناصر المقامر لعب لعباً شريفاً لربح . . كان مقامراً غشاشاً ، فكسف المظهر وخسر نظرة الشعب إليه .

لو أن عبد الناصر اعترف للشعب فى يونيه سنة ١٩٥٦م بحقه الطبيعى فى حريته ، واختيار حكامه ، والمشاركة فى توجيه سياسة البلاد ، ما كان قد فاته الأوان ، ولا استطاع أن يستمر هو نفسه فى الحكم ، ولكن على صورة ديمقراطية سليمة توفر للشعب رقابة حكامه والثقة فيهم وفى سياستهم .

لو أن عبد الناصر ورجاله تركوا استفتاء يونيه سنة ١٩٥٦م حراً يأتى بنتيجته الحقيقية دون اصطناع لنجح عبد الناصر كرئيس جمهورية ، ولوافق أغلب

الشعب على دستوره المشوه الذى أصدره . صحيح أن أغلب الموافقين على عبد الناصر رئيساً كانت ستدفعهم إلى الموافقة الرهبة من الحكام أو الخداع بالدعاية الكاذبة . . ولكن كان سيبقى الأمل فى أن تصلح الحال ، وتسير البلاد تدريجياً نحو الديمقراطية الحقة . ولكن الدكتاتورية لا تعرف إلا المظهر الكاذب والتشبث بالاستبداد إلى أن تقتلعها ثورة يدفع الدكتاتور وأعوانه حياته ثمنا لها ، وما أهونه من ثمن إذا قيس بعنف الثورات .

وهكذا ، أبى عبد الناصر ورجاله إلا أن يزوروا ذلك الاستفتاء المضمون النتيجة . . وكانوا فى غنى عن ذلك . لقد اصطنعوا لنجاح عبد الناصر نتيجة كانت مثار سخرية العالم وتندر الناس . كم قال الناس فيما بينهم من أحاديث أن الله لو كان محل الاستفتاء بدلا من عبد الناصر ما فاز بذلك الإجماع الغريب المريب . .

ولست أستدل على تزييف الانتخابات بعدم معقولية النتيجة التى حصل عليها عبد الناصر حين بلغت أكثر من تسعة وتسعين فى المائة . . وهو استدلال يكفى بذاته ، ولكنى استدل أولا بواقع شهدته بنفسى أستخبر فيه أحداً . . ثم جاءتنى الأخبار تؤكده .

كان أهل البلدة التى تعرف « ناجى » مزارعاً صغيراً بها ، يثقون فيه ، ويظنونه أكثر منها فى أمور القراءة والكتابة والأخبار والسياسة . كانوا كثيراً ما يستوضحونه الجديد من هذه الأمور أو يسأل رأيه فيها . ونقل العمدة إلى هيئة التحرير فى المركز رأيه ورأى الناس فى ، وصحبنى لزيارتها . . وما استطعت أن أعتذر . ومرت الزيارة بسلام ، ثم سعت هيئة التحرير إلى ضمى لعضويتها ، وإسناد عمل فيها لى . أما الإنضمام فما كان لى أن أرفضه وإلا أثرت شكوكاً أنا فى غنى عنها . أما الاشتراك فيها فقد خشيت نتائجه حين يأتى ضباط الجيش من القاهرة ليشرفوا على أعمال الهيئة فى المركز . . وبأنى قليل الإقامة فى البلدة . ولكن أهلها وعمدتها ظل رأيهم فى حسناً .

وفى ليلة من الليالى قبيل الاستفتاء ، تحلق أهل القـــرية حول الشاى والجـــوزة فى الدكان ، يتساءلون ماذا نفعل فى الاستفتاء القريب موعـــده . . ؟ وكان مفهـــوماً أن السؤال موجه إلى شخصين ، عمـــدة البلدة وأنا . فالعمـــدة ممثل الحكومة ، ولعله قد وصلت تعليمات رسمية لا تجوز مخالفتها . وأنا ، لأن أهل القرية ومنهم العمـــدة ورجال هيئة التحرير يثقون فى رأيى وفهمى للأمور ، ولم يكن العمـــدة يحجم عن إجابته التقليدية أبداً . فهو يقول أن الخانة الحمـــراء التى هى دليل الموافقة على عبد الناصر ودستوره آمن من أختها السمراء ، وأبعـــد لك عن القـــرية وأهلها . فالخانة السمراء سيلقى صاحبها حياة سوداء فى المعتقلات والسجون . فإذا قلت له أن الدولة تؤكد أن الناس أحـــرار ، وأن عهـــد الذل قد انقضى ، ابتسم وهو يقـــول :

ــ أنا لا شأن لى بما يقـــوله الراديو والجرائد . . فالعبرة بما يقوله المأمـــور يا سيد ناجى . . فهو أعلم منك ومن الراديو والجرائد بأوامر الحكومة . .

وأسكت أنا ، فلا أبدى رأياً أمام الجمـــع المحتشد فى الدكان . ويسألنى الناس على انفراد فأميز لهم بين الدستور والرئيس ، أما الدستور فكنت أدعو للموافقة عليه ، لأن دستوراً أعوج مشوهاً خير من لا دستور . . أما الرئيس فكل منا حر أن يوافق عليه أو يرفضه . . ويسألنى أحد الفلاحين فى مكر : « لماذا لم يأذن عبد الناصر بترشيح غيره ضده . . هل يخشى أن نختار غيره . . ؟ » وأكتفى بأن أقول « لا أدرى . . على كل حال ، فهو يحكم فعلا قبل أن نختاره . . »

واتفقنا فيما بيننا ــ خمسة أشخاص ــ على أن نرفض رئاسة عبد الناصر عند الاستفتاء . والدستور المنتظر . . ودخلنا صفاً الواحـــد إثر الآخر . . وكنا جميعاً أعضاء بهيئة التحرير فى المركز ومحل ثقة العمدة . ولن أنسى تلك النظرة الساخرة المستريبة التى وجهها إلى رئيس اللجنة حين طلبت أن أدلى صوتى سراً لأنى أعرف القراءة والكتابة . ولولا شهادة مندوب هيئة التحـــرير والعمدة لى ما سمح لى بهذا الحق فى دولة ضاعت فيها حقوق الناس . لست أدرى أى جرأة بلغت

مبلغ الحماقة تلك التى دفعتنى إلى دخـــول لجنة الاستفتاء . وإلى الاقتراع ضد عبد الناصر . إن الأمر الذى أقطع به ولا أتشكك فيه أنى أنا — على الأقل — اقترعت ضد عبد الناصر ، وقد أكد لى زملائى الأربعة أنهم فعلـــوا ما فعلت . وإن لم يعلم غير واحد منهم أنى طريد عبد الناصر وسياسته .

وجلسنا فى المساء نستمع إلى النتائج تذاع بالراديو ، فإذا بنتيجة تلك البلدة التى اقترعت فيها تكون إجماعاً فى اختياره . . ونظـــر كل منا — نحن الخمسة — إلى صاحبه ولم نعجب أين ذهبت أوراقنا السوداء فقد فهمنا أن الاقتراع شىء والنتيجة التى تريدها الدولة شىء آخر . وحتى هذا القدر اليسير من الناس الذى لم يوافق على عبد الناصر واقترع ضده ، والذى لا يضيره أن يوجـــد . . هذا القدر لم يؤذن له بأن يسمع صوته . فكان شبه الإجمـــاع الذى حصل عليه رئيس الجمهـــورية الأول أكبر دليل على اصطناع النتيجة . وليت الأمر وقف عند الإجماع أو شبه الإجماع . . لقد جاوز ذلك ، فقد علمت فيما بعـــد أن مسئول كبير عن حصر نتائج الاستفتاء تفصيلا أن إحصاء الأوراق التى اختارت عبد الناصر زاد عددها فى الصناديق عن عـــدد الناخبين جميعاً . والسبب فى ذلك أن كل لجنة من لجان الاستفتاء تسلمت عدداً من أوراق إعطاء الرأى تزيد عن عدد المقيدين أمامها ، لتواجـــه بهذه الأوراق حالات من يريد الإدلاء برأيه فى غير دائرته المقيد بها اسمه . وسولت الرغبة فى ضمان إرضاء الدولة إلى بعض اللجـــان أن تطمس الخانات الحمـــراء فى الأوراق التى تبقت لديها ثم تقذف بهـــا فى الصندوق . . وهكذا زاد الموافقـــون فى مجمـــوعهم عن المقيدين فعلا فى جداول الانتخاب . أما بعض اللجان — كلجنة بلدتى — فقد اكتفت بتمزيق كل ورقة لم تختر عبد الناصر رئيساً لتضع بدلا منها ورقة أخرى من الاحتياطى الذى لديها .

إن كان عبد الناصر قد ظن أنه حقق بهذه النتيجة جانباً مما حلم به يوماً ، من أن يوقف الشعب كله ويجلسه بضغطه على زر كهربائى بمكتبه .. فإنه واهم فى ظنه .

إنه لم يستطع بهذه النتيجة إلا أن يكون موضع السخرية تجرى همساً ، ففقد ما يمكن أن يتبقى له من ثقة الشعب فيه . . وثقة زملائه أيضاً . . أو بعضهم بمعنى أصح .

انقضت مهـــزلة الاستفتاء . وأقيمت الأفراح الرسمية فى كل مكان . . وقرب موعد عودتى إلى المدينة . . وإذا بهيئة التحـــرير فى المركز تعاود طلبها فى أن أعمل سكرتيراً لها ، وهو منصب لا يحلم به مثلى فى حقيقتى التى أخفيها ، وفى مظهـــرى الذى أعيش عليه بين الناس . كم راودتنى نفسى أن أقبل هذا المنصب كى أضحك فى أعماقى من الظروف التى جعلت أنصار الناصرية يضعوننى فى حزبهم . . وأنا عـــدوهم وعدو حزبهم وما ينطـــوى عليه من تضليل للناس واستبداد بهم ، ولكنى كنت أطرد هذا الخاطر دائماً ، فأنا حريص على سلامتى أكثر من حرصى على السخرية بالناصرية . . وهى سخرية مؤقتة قد يتبعهـــا سقوطى فى يدها . ولم أملك أمام طلب هيئة التحرير — التى لا يرد لها طلب — أن أرفض ، فوعدتهم بالاستجابة حين أستقر فى البلد ، وأنهى أعمالى فى غيرها من البلاد . . وعزمت أن أتشبث بعملى الآخـــر فى المدينة كى لا أعرض نفسى لمخاطر هيئة التحـــرير فى المركز .

عدت إلى المدينة أحمل تلك السلة التى بها ملابسى ، وذلك الأمل الذى يملأ قلبى أن أحصل على البقية الباقية من الأوراق التى تؤهل مثلى فى ذلك الوقت أن يسافر إلى الخارج دون أن يثير فى نفوس أحـــد ريبة . لقد نجحت جداً فعلا فى أن أجعل « ناجى » حقيقة لا محل لإنكارها ، وبهذا وجدت كمواطن معترف به من الدولة . وأصبح فى مقدورى أن قبض على من لا يعرف حقيقتى يوماً أن أنتسب إلى تلك البلـــدة التى فيها زراعتى والتى يحبنى عمـــدتها . لقد حصلت على شهادة بأنى ساقط القيد فى دفتر المواليـــد . . وعلى شهادة بتسنينى من طبيب المركز . . وبقيت اجراءات قيدى فى دفاتر وزارة الصحة فعلا . ثم أنى قيدت فى جداول الانتخاب ، وحصلت على تلك الورقة الخضراء التى تشهد لصاحبها بأنه مواطن صالح وتعطيه الحق السياسى فى مصر . ولكن ، ليس كل من له وجود فى مصر

تمكن أن يسافر إلى الخارج دون أن يثير شكاً . من سيقبل من ريفى يزرع بضعة أفــدنة يشاركه فيها آخــر أن يسافر إلى خارج القطــر . . ؟ لابد أن يكون لى وضع آخر يؤهلنى للسفر دون أن أثير شك أحــد . وهكذا ركزت جهدى كله فى المشاركة فى المقهى بالمدينة . . سأصبح بعد ذلك صاحب مقهى ، وسأقيد فى السجل التجارى . . وعندئذ يمكن أن أطلب جواز سفر وأسافر . . وخاصة وأنه سيدفع عنى الشك تماماً أنى شريك لمسيحى يمتاز بما يمتاز به المسيحيــون فى ريف مصر من مسالمة وانصراف إلى إتقان العمــل . .

وبهذا الأمل عاودت العمل فى المقهى ، وتفاهمت مع شريك المستقبل « المعلم غبريال » أن نكتب العقد : فقد جرب كل منا الآخر وارتضاه شريكا . . وسلمنى بدر المال المطلوب فقلت لشريكى إنى بعت خرافى ومعى ثمنها . . ولم يعد هناك داع لتأخير العقد . ذلك العقد الذى أتعجله لأنى أريد أن أهيىء نفسى للسفر ، ويتعجله شريكى — كما قال لى — لأنه يريد أن يترك لى إدارة المقهى كاملة فأنا محل ثقته ، ومحل تقدير الزبائن ؛ وهو يريد أن ينصرف بعض الشيء إلى زراعة أرضه بالبلد .

كان للمعلم غبريال — صاحب المقهى — أخ أكبر منه سنا . كان يقرأ الجرائد ، ويلبس البدلة ويتعاطى المخدرات . . ويعمل كاتباً فى الحكومة ببلد قريب من المدينة ، وكانت هذه الصفات مجتمعة تؤهله لأن يعتبر مثقفاً صاحب رأى فى الأمور يجب أن نعتد برأيه . وكنا نسميه « وجيه أفندى » تمييزاً له عن أمثالنا ممن لا يعرف كيف يلبس البدلة . .

وكان وجيه أفندى يقيم فى نفس المدينة التى أقيم فيها . . التى بها مقهى أخيه . . وكان يذهب إلى البلدة التى بها عمله كل صباح ويعود بعد الظهر . ولا يعدم أن يتردد أحياناً على المقهى فإن جاء فهو الأخ الأكبر لرب العمل ، فكنا نحتفى به ، يتبسط معنا فى الحديث شأن كبار القوم تماماً . وكان يعرف أنى لا أتعاطى أى نوع من أنواع المخدرات ، فيتكرم على بسيجارة أدخنها شاكراً إذ كنت قد كففت عن شراء الدخان تقريباً حين أصبح موردى لا يكفى للتدخين ، وأصبحت حريصاً على رأس مالى لأتم عقد الشركة فى المقهى .

دعانى وجيه ذات يوم للغذاء فى منزله . إنه يعيش فى منزل لا يحلم أمثالنا فى ذلك الوقت أن يعيش فيه : فهو يجلس على الكراسى ذات المساند ، ويأكل على منضدة كبيرة عالية ، وعنده بالمنزل ملاعق كبيرة ، وشوك وسكاكين ، وأطباق من الصنف المتواضع المنقوش برسوم أزهار فاقعة اللون .

دخلت بيت الرجل ، ومعى شريكى. وجلسنا قليلا حتى دعينا للطعام ، فقمنا إلى الصالة التى وضعت فيها مائدة الطعام . . وكان أمام كل واحد منا صحن وشوكة وسكين وملعقة .. ولست أدرى أى شىء أصابتنى فنسيت نفسى ، وأنا الريفى الذى لا يعرف هذه الأدوات – ومددت يدى إلى الشوكة والسكين وبدأت آكل بهما ..
ونظر إلى وجيه أفندى نظرة التشكك وهو يقول :
– أراك تحسن الأكل بهذه الأدوات . ؟ .
ولم اضطرب ، إذ علمتنى الأيام أن أخترع القصص سريعاً ، وأجبت بهدوء :
– ألا ترى ذلك . . ؟ فقد عملت خادماً بمنزل أحد الإنجليز بأسوان قرابة عام . . فتعلمت منهم كيف آكل بهذه الأدوات . ولكنى لا أجد لذة الطعام إلا إذا أكلت بيدى .

وانتهينا من الطعام ، والرجل لا يكف عن نظراته المرتابة . وجلسنا نتحدث ونحن نشرب القهوة ، فكان يدير الحديث بأسلوب أكثر ريبة ، ملأ نفسى يقينا أن الرجل يبحث عما وراء مظهرى الريفى البسيط من حقائق . وانقطع وجيه أفندى منذ ذلك اليوم عن ارتياد المقهى . . ولكنى لم أقم لذلك وزنا وظننت أن شاغلا شغله .

وألححت على صاحب المقهى أن نكتب عقد الشركة ، وسلمته نصيبى من رأس المال ، واتفقنا أن يمر على فى الصباح الباكر من غد لنذهب إلى من يكتب لنا العقد .

وكان الغد . . وانتظرت المعلم غبريال فلم يحضر ، بل جاء أحد أقاربه رسولا من وجيه أفندى يدعونى لزيارته فى مقر عمله . . ويقول أن العقد بينى وبين أخيه لن

يوقع إلا بعد تلك الزيارة . وألجأتني الحاجة إلى العقد أن ألبي الدعوة ، فسافرت ذلك السفر الصغير إلى حيث يعمل وجيه أفندى فوجدته بمكتبه المتواضع ينتظر قدومى .

وما أن دخلت وسلمت وجلست : : حتى نادى وجيه أفندى قريبه ذاك الذى صحبنى إليه ، وطلب منه أن يحضر لنا « كوشرى » . . وأزعجنى الطلب . . فالكوشرى خليط قاس مسكر من الدخان والحشيش يعرفه المدمنون فى مصر ، وقد عرفت اسمه ، ولكنى لم أذقه .

كان على وجه وجيه أفندى ، وهو يصدر هذا الأمر ، ابتسامة خبيثة خشيتها ، وملأت نفسى اضطراباً وريبــة ، فالرجل يعلم أنى لا أدخن الحشيش . . ومثل هذا الطلب لا يكون إلا بين قوم اعتادوه ، أو حين يريد شخص أن يكشف عما فى صدر جليسه من أسرار يظن أنه يخفيها عنه عامدا .

ودرات فى خاطرى ذكرى حديث قديم للشيخ أحمد حين كان يلقننى دروساً فى فلسفة الذئاب فدعوت له بالخير ، وحمدت ذاكرتى التى لم تنس وصاياه رغم بعد العهد بها .

جلس الشيخ أحمد بجوارى على رمال الصحراء ذات مساء يسألنى :

ـ هل تشرب الخمر ؟ .

ـ لا .

ـ هل تدخن الحشيش ؟ .

ـ لا . . فهما يستويان فى التحريم دينا .

ـ أنا لا أسألك عن رأيك فيهما دينا . . ولكنى أسألك هل تتعاطاهما ؟ .

ـ لا .

ـ إن كنت تتعاطاهما من قبل ، فتجنبهما هذه الأيام ، فليس أفشى لما فى صدر

الإنسان منهما المخمور يقول ما فى صدره وهو لا يدرى ، والمغيب بالحشيش يقول ما فى صدره وهو يدرى ولا يستطيع للسانه رداً .

ـ شكراً لك على هذه المعلومات . . أما النصيحة ، فأنا أتبعها من قبل سماعها منك .

ـ وأنت اليوم إلى اتباعها أحوج من ذى قبل . ولكن ، هب أنك جلست مجلسا فيه شراب ، وعرض عليك الجالسون أن تشاركهم كأساً . . فماذا أنت قائل .

ـ أقول إنى لا أشرب الخمر .

ـ هذا كلام معقول فهذا عذر مقبول فعادت أهل الريف أن لا تشرب الخمر .

ولكن ماذا تفعل إذا جلست فى مجلس يدخن حشيشاً ، وعرض عليك الجلوس أن تشاركهم .

ـ أقول أيضا إنى لا أدخن الحشيش .

ـ لا . . هذا غير مقبول منك ؛ فمن هو فى مثل مظهرك الذى أنت عليه الآن لا يقبل منه المدخنون للحشيش هذا القول عذراً . . إنهم سيظنون أنك تخفى فى صدرك عنهم سرا .

ـ إذا ماذا أفعل ؟ .

ـ تقول إنك تأكل الحشيش لا تدخنه . . وآكل الحشيش أعرق فى الإدمان من مدخنه . . وبهذا ترى نفسك عليهم السبق فى الضمان ، وتأخذ نصيبك من الحشيش جافاً ، فألقه بعد ذلك حيث شئت . .

ـ شكراً على هذا الأسلوب . فقد كنت أجهـــل المخرج من هذه الحالة .

ـ ولكن بقى أمـــر . .

ـ أى أمر بعد أن آخذ نصيبى وألقيه ، فأريح واستريح . .

ـ بقى أن يجبرك المجلس على التدخين . فيسمحون لك بنصيبك جافاً لتأكله ، على أن تشاركهم التدخين علاوة على ذلك . وهذا حق من حقوقهم فى عرف

مدخنى الحشيش ، فالكيف مشاركة ، ولهم أن يطلبوا منك أن تشاركهم . فماذا تفعـــل . . ؟

ــ والله لا أدرى . .

ــ يمكنك أن تلجأ « للقطقطة » . ولكن إياك وأن تفعلها إذا كان جليسك حاضر الذهن منتبهاً ، فإن ذلك يدعوه إلى اليقين أنك عدو تريد به شراً ، أو جاسوس تخفى ما فى نفسك وتريد أن تعـــرف دخيلة نفسه . . ولذلك . .

ــ (مقاطعاً) ولكن قل لى ما هى القطقطة أولا ، لألجأ إليها أو لا ألجأ . . ؟

ــ هى أن تجذب النفس جذباً ضعيفاً ، فلا يتجاوز فمك إلى حلقك ، ثم تخرجه فوراً . أما إذا خشيت القطقطة ، أو اعترض عليها جلساءك . . فافسد أثر الحشيش مقـــدماً ، وذلك بأن تبتلع قبل التدخين قطعـــة أفيون . .

ــ وهل تريد أن تخرجنى من الحشيش لتوقعنى فى الأفيـــون . .

ــ الأفيـــون لا ينسى الأسرار كما يفعل الحشيش . . وعلى كل ، فلك ــ بدلا من الحشيش ــ أن تأكل ليمونة كاملـــة قبل أن تدخـــن . . وثق أنك ستواصل مع جلسائك التدخين والسهر ما شاءوا دون أن تتأثر بشىء على الإطلاق . .

ومن ذلك اليوم البعيـــد ، لم أنس يوماً أن تكون فى جيبى ليمونة أينما ذهبت منذ وطئت قدماى أرض الريف والمدن ، فصرت معرضاً لأن ألقى الناس ، وأن أجلس فى مجالس الحشيش . ولكنى كنت قليلا ما أتعرض لتلك المجالس ، وكان الجلوس يكتفون باعطائى نصيبى جافـــاً إذا سألونى أن أشاركهم . . ومع ذلك بقيت الليمونة فى جيبى ، أغيرها كلما ذبلت . . لقد بقيت آخـــر ليمونة فى جيبى حتى تركت الوطن كله بعد سنين . .

دارت فى ذهنى تلك الذكرى سريعة واضحة حين أمـــر وجيه أفنـــدى قريبه باعداد ذلك الخليط المسكر من الحشيش والدخان الجاف . . فتلمست جيبى ، ووجدت الليمونة قابعة فيه . . فاحتججت بدخـــول دورة المياه حيث أكلت الليمونـــة بقشرها ، ثم عدت إلى مجلسى بمكتب وجيه أفندى . . ولكن ثقتى فى

وصية الشيخ وفى أثر الليمــونة لم تكن كاملــة ، فما أن عدت حتى طلبت نصيبى من الحشيش جافــاً لآكله . فأخرج الموظف من درج مكتبه الحكومى قطعة حشيش وسلمنى إياها وهو يبتسم قائــلا :

— ولكنك ستدخن معى أيضاً . . فأنت ترى ليس جليس معى سواك .

وقرب غابة الجوزة من فمى فارتعــدت ، وأقسمت أن يبدأ هــو . . فبدأ ، ثم أعــاد الغابة إلى فلجأت إلى « القطقطة » كما أوصانى الشيخ أن أفعل خشية أن لا تسعف الليمونة فى رد سكرة مخدر لم أجــربه من قبل . . ولكن نظرة جليسى ازدادت ريبــة وهو يقــول لى :

— عيب يا سيد ناجى هل أنا عــدو فتخشانى ، أم أنت العــدو تخشى أن أخــدرك . . دخن كما يدخن الرجال إذا اجتمعــوا . .

ولم يعد من الأمــر المكروه بد ، فاغمضت عينى ، ورحت أجــذب أنفاس المخدر كمحمــوم . . وأناوله الغاب فيجذب فى أثرى حتى فاقنى جــذباً . . وأعيد المخدر مرة وأخرى وثالثة . . وبدأ صاحبى يثرثر . . وأنا جالس أمامه فى هدوء لم أتأثر بعــد . . وغفل عن مجالسى ، فلجأت إلى القطقطــة ، والمغالطة أيضاً . . فصار هو يدخن ، وأنا أجلس قبالته حاضر الذهن تماماً . وعند ذاك أحسست بشىء من الاستعلاء عليه . . وخيل إلى أن لا خطــر من جليسى . . وأنى كنت واهماً فيما ظننت .

وفجأة . . أوقف وجيه أفنــدى دورات الحشيش ، وأمر قــريبه أن يغادر الغــرفة ويغلق بابها . . ثم فتح درج مكتبه ، وأخرج التوراة والإنجيــل والقــرآن ، ووضعها الواحــد فوق الآخر ، وقربها منى وقال :

— أنا لا أدرى من أنت ، ولا ما اسمك الحقيقى ، ولا بأى دين تدين . .

وهــذه الكتب الثلاثة التى يؤمن بها أصحاب الأديــان . . أقسم عليها مجتمعــة أن تقــول لى الصدق فيما أسألك عنه . .

وأحسست أنى هبطت من استعلائى الذى كنت عليه . . وأكدت لى ابتسامة الرجل أنى وقعت فى فخ لا مخرج لى منه . ولكنى حاولت أن أتماسك ، وأن لا أفقد أعصابى من أول هجمة تواجهنى . آثرت أن أفعل ما يفعله الناس العاديون فى هذه المواقف . . أن أخرج عن موقف المتهم إلى موقف المهاجم . . وبدأت ألتمس صوتى لأتكلم ، فخرج ضعيفاً ، ثم ارتفع وامتلأ غضبـــاً ناتجاً عما أنا فيه من خوف :

— هل الرجال فى حاجة إلى قسم ليصدق أحدهم الآخر . . ألا ترى أنك تهيننى فى مكتبك ، وهو بيتك ، بطلبك منى الحلف قبل أن تسأل . . ؟ هل طلبت أنا منك أن تقسم على أن تسألنى حقيقة ما فى نفسك . . ؟

وسول الإحراج والحشيش والاضطراب للرجل أن يجذب الكتب المقدسة الثلاثة من أمامى ، ويضع يده عليها ، ويقسم بها وبخالقها أن يسألنى كل ما فى نفسه بصراحة . . وأن لا يخفى عنى شيئاً . ثم أعاد الكتب الثلاثة أمامى ، وسألنى أن أقسم على الصدق فى الجواب . .

كانت عينا الرجل تشع غضباً وشكاً . . لقد سكر حقاً بما أسرف فى جذبه من أنفاس الحشيش وطمأننى سكره إلى أنى لم أفقـــد الموقف بعـــد ، فأردت أن أزيده اضطراباً وإحراجاً عسى أن يكون لى بذلك من بين يديه مخرج . لقد كان فى مقدورى أن أقسم وأكذب ، ولكنى أيقنت أن كذبى سيكون واضحاً أمام شخص يشك فى ويسعى ليعرف الحقيقة . فحاولت أن أتصنع الهدوء الذى لم تعد لى منه بقية وقلت وكأنى غاضب :

— أسأل ما شئت ، وأنا أقسم لك أن أجيبك . . فإن لم أجيبك فأنت وشأنك فيما تظن . .

ونحيت بيدى الكتب الثلاثة من بيننا ، وبدأ الرجل يسأل ، وبدأت أجيب . .

وجرى الحوار بيننا مضطرباً ، يوحى إلى تارة أنى نجوت ، وتارة أنى ضعت . .
قــال :

ـــ ما اسمك . . ؟

ـــ أنت تعــرفه . .

ـــ من أى بلــد أنت . . ؟

ـــ لقد ذكرت لك مراراً . .

ـــ ما الذى دعاك إلى ترك بلــدك والسكنى فى هــذه المدينة . . ؟

ـــ سبق أن رويت لك قصة الثأر الذى يطــاردنى به بعض الناس .

ـــ أين تعلمت القــراءة والكتابة . . ؟

ـــ فى كتاب القــرية وأتممت التعليم بجهــدى . .

ـــ هل سبق أن جنــدت . . ؟

ـــ لا . . فقد كان عنــدى أكثر من سبب للاعفــاء . .

ـــ لماذا تريد أن تشارك أخى فى المقهى . . ؟

ـــ هو الذى أراد . . وأنا قبلت . . فإن ضــايقكم هذا فأنا على استعداد لأن أعــدل عنه . .

ـــ هل الشابان اللذان يحضران إليك أحياناً أولا د عمك حقيقة . . ؟

ـــ إن لم تصدقنى فاسألهمــا . .

ـــ لقد دعوناك إلى بيوتنا . . وذهبنا بك إلى بلدتنا . . فلماذا لم تأخذنا إلى بلــدك أبداً . . ؟

ـــ إن شئت أن نذهب اليوم فهيا . . ولكنك قلت لى أن ننتظــر تمام القمر . . حيث يحلــو السهر والسمر ، والحشيش أيضاً . أليس هذا رأيك الذى تأخــذ اليوم على اتباعى إياه . . ؟

وضرب الرجل كفاً على كف ، وصاح بصوت مبحـــوح من أثر الغيظ والحشيش :

– لقد حرت فيك . . وما زدت لك اليوم فهماً عما كنت . . لا الضابط نفعني ، ولا الحشيش اليوم أفادني . . أريد أن أعرف من أنت . . ؟ وبغير هذا لن أرتـــاح .

وأحسست أني نجوت من يد الرجل ، ولكن الفضول دفعني إلى معـــرفة ماذا يدور فى هـــذا الرأس المغيب بالحشيش الجالس أمامى ، فقلت له :

– هل تسمح لى أن أسألك سؤالا لأريحك . . ولكن اذكر جيـــداً أنك أقسمت أن تصارحني . .

– اسأل ما شئت . . وسأجيبك بصراحه . . وإن شئت أقسمت لك ثانية . .

– لا ويكفيني القسم الأول . قل لى ما جال بخاطـــرك عني ، وماذا ظننت حتى رحت الآن تسألني عن كل ما تعرف من أمـــورى . . ؟

وأخرج هذا السؤال الرجل عن طوره . . وندمت أن سألته . قد كان يكفيني أن أقف عندما سبق من حديث وأن أبتعـــد عن طريقه دون أن أواجـــه الجرح الدامى فى صدره ، والذى طالما حاول أن يخفيه عني . ندمت أن سعيت – بفضولى – إلى معـــرفة حقيقة رأيه فى ، فقد أجاب الرجـــل منفعلا :

– أنت لست من أهل الريف . . وليس اسمك ناجى . . وليس من يزورك أولاد عمك . . أنا أعلم أنك رجل ذكى ومثقف ، بل لعلك ذو قلب طيب . . أليس لك أولاد كما لنا أولاد . . فلماذا تفعل بنا هـــذا . . حرام عليك يا سيدى . . حرام والله . . لمـــاذا تريد أن تجرنا إلى مشاركتك . . حرام هذا الذى تفعله بنا . .

واختنـــق صوت الرجل بما يشبه البكاء فسكت . . وارتفعت دقات قلبي حتى

خلت أن محدثى يسمعها . وتصلبت كل عضلات جسمى ، وفقدت توازنى تماماً . خلت أن رائحة الحشيش التى ملأت جو الغرفة أفقدتنى السيطرة على لسانى وفكرى . . وخشيت أن أندفع محدثاً إياه بحقيقة أمـــرى . . ولكن صوتى كان أضعف من أن يستمر فى حديث طويل ، فلم يزد على أن صدر مبحوحاً هامساً وأنا أقول :

— فمن أنـــا إذاً . . ؟

— أنت . . أنت يا سيدى ضابط فى الجيش أو البوليس . . ضابط فى المخابرات العسكرية أو المباحث . . وهؤلاء الذين يزورنك مرءوسيك . أنا أعلم أنك جئت لتتجسس علينا لماذا ؟ حـــرام عليكم هذا . . هل نعتبر أعداء لعبـــد الناصر لمجرد أننا مسيحيون . . ؟

وارتخت عضلاتى فجأة حين أفصح عن ظنه . . وتصبب وجهى وجسمى عـــرقاً بارداً . . وبلعت ريقى مرتين بصعوبة لأجمـــع ما بقى لدى من قدرة على الحركة والكلام ، ثم جذبت الكتب المقدسة الثلاثة أمامى ووضعت يدى عليها وقلت صارخـــاً :

— أقسم لك بالله ، وبالقرآن والإنجيـــل والتوراة . . وبمحمـــد وعيسى وموسى . . أننى لست ضابط مخابرات ولا مباحث ، ولم أعمـــل يوماً فى المخابرات ولا المباحث . . ولا أمقت فى مصر شيئاً مقتى للمخابرات والمباحث . . ولا يعنينى رأيك فى جمـــال عبد الناصر ، وهل أنت عـــدواً له أو صديق ، هل ارتاح خاطـــرك بعـــد هذا . .

وتهالكت على مقعـــدى مبهور الأنفاس ، يكاد شهيقى وزفيرى يعلـــو على ضوضاء القطـــار الذى مر فى تلك اللحظة بجوار نافذة الغرفة . .

لم أدر كيف أنهى الجلسة وإن أحسست بوجوب إنهائها . كان المفروض أن أخرج فوراً . ولكنى أحسست أنى منهوك القوى من طول ما شددت أعصابى أثناء الحديث حول معنى فى ذهن محدثى ، لا أدريه ولكننى أخشاه ، كنت أفسر

كل ما يقول على أنه عرف حقيقتى ، وكان هو يخنى فى ذهنه ظناً أبعـد ما يكون عما أخشى . . عن الحقيقة ذاتها . كان كل منا يخشى الآخـر ، كنت أخشى أن يسلمنى لرجال المخابرات العسكرية أو المباحث من أعوان عبد الناصر ، وكان يخشى تجسسى عليه وعدى ما قد يزل به لسانه من نقـد لعبد الناصر أو هجـوم عليه . . لقد كانت مفارقة حرى بها أن تضحك . . ولكنها كانت فى وقتها أشق شىء على ذهنى وأعصابى . .

جلست صامتاً فى مكانى على كره منى ، لأنى لا أقدر على الكلام ولا القيام . وعاد الرجل إلى الكلام والثرثرة وقد طمأنه قسمى الذى أقسمت ، وشعر أنه فى مأمن ممن يتجسس عليه . . وأباح له التخدير أن يتحـدث بصراحه ويكشف عما فى قلبـه .

بدأ وجيه افنـدى يعتذر عن ظنه – وظن أخيه – فى شخصيتى ، فإن انتشار التجسس ، ورهبة الحكم البوليسى القائم ، تفرض على الناس حذراً يبلغ سوء الظن بالناس . وأكد لى أنهم يشكون فى شخصيتى منذ عرفـونى . . وأنه لاحظ فارقاً واضحاً بينى وبين أولاد عمى فى أسلوب الكلام والتفكير ومعاملـة الناس . وقال أنه طالما أثار معى المناقشات ليكشف عما أخفى وراء لباسى الريفى من حقيقة .. وأنه دعانى إلى بلـدته ليسهل لصديقه ضابط النقطة الذى شاركه الشك فى شخصيتى أن يتعرف على حقيقة أمـرى . . ثم ألح على الرجل أن أعـذر سوء ظنه وأن أسامحه فعذرته وسامحته ، ولكننى أكدت له أنى لن أشارك أخـاه فى المقهى ، ولن أواصل العمل فيه ، ولن أبيت به ليلتى . وحاول الرجل استرضائى ولكن استرضائى كان بعيد المنال ، فإن من تطـرق الشك إلى ذهنه على هذه الصورة المخطئة مرة فاستمهل فى البحث ، قد يتطرق إلى ذهنه الشك مرة أخرى على النحـو الصحيح . . وخاصة أنه يستعين فى ذلك بصديق من ضباط البوليس . وعادت إلى مخيلتى صورة تلك الزيارة لضابط البوليس فى بلـدة وجيـه افندى ، وكيف كنت يومئذ بسيطاً لم أتنبه إلى ما يدبره الناس بشأنى .

كان ذلك فى ليلة من الليالى ، وكنت أقوم بعملى فى المقهى كالمعتاد ، والمعلم غبريال جالس على مكتبه بجوار الباب ، حين جاءنا — كعادته — وجيـه افندى ومعه صديق بسيارة ، فجلسا قليلا ثم هما بالإنصراف . وعرض على وجيه أن أذهب معه إلى بلدتهم لنزور أهله ، ونزور ضابط النقطـة التى طالمـا جلس على المقهى فخدمته كلما قدم للمدينـة فى عمل رسمى أو فى راحته الاسبوعية . وحاولت أن أعتذر ، ولكنى وجدت من وجيه افندى إصراراً وإلحاحاً حملته على أنه حب وزيادة ود . . وانضم إليه فى إلحاحـه أخوه الذى أذن لى — بصفته رب العمل — فى الإنصراف واعـداً أن يقـوم الليلـة بعملى وبإغلاق الباب حتى أعـود فى الصباح ، وركبنا السيارة ، وانطلقت بنا إلى البلـدة .

وفى منزل ضابط النقطة — الكائن فوق مقـر عمله الرسمى — جلسنا . وكنا قد أحضرنا للضابط زجاجة كونياك كهديـة منا . ورد الضابط الهدية بأن أرسل إلى أحد تجار المخدرات فى البلـدة فجاءنا بكمية كبيرة من الأفيـون والحشيش ، ليتخير كل منا ما يروقه من أصناف « الكيوف » . ولبعض الضباط بتجار المخدرات صلات قوية تمنعهـم عادة من ضبطهم إلا إذا اختلفـوا فيما بينهم . وهذه الصلات تمكن الضباط من إخفاء ما يشاءون من أصناف المخدرات الممتازة بنصف ثمنها أو بغير ثمن على الإطلاق . وجاء فى أثرنا أهل وجيـه افنـدى من بيوتهم المنتشرة فى البلـدة ، يحمـل كل واحد منهم زجاجة أو أكثر من الخمـر المحلى النافـذ الرائحة .

ودارت كؤوس الشراب . . فاعتذرت ، وأحرق الحشيش ، فأخذت نصيبى جافاً دون أن يعترض أحـد ووزع الأفيـون . . فرحبت به وأخذت منه كل ما قدم إلى . ولست أدرى هل عثر خدم الضابط بعد انصرافنـا على ما ألقيت بجوار الكراسى ، أم أن الأقـدام حملت تلك القطع الصغيرة الحجم الغالية الثمن ضمن ما حملت من أتـربة وأوساخ .

وسكر الضابط . . وتبعـه فى السكر أغلب الجلسـاء ، وأنا بينهم صاح أشهد

ما يدور متعجباً . وللناس فى سكرتهم مذاهب شتى . وكان صاحبنا ومضيفنا ضابط النقطــة ذا مذهب غريب فى سكره . ما أن يقترب من حد السكرة حتى تتجمــع فى ذهنه وتطفــو على نفسه كل ما فى حياته من الآلام ومتاعب وأحزان .. فيتولاه حزن عميق ، يحاول أن يذهبه بالشراب فيكثر منه . . وتزيد مع الشراب أحزانه . . فيجهش بالبكاء لا يمنعه من ذلك أن المجلس مجلس أنس ، ولأن كل ما حوله هم من محكــوميه .

قضينا آخر الليل نرفه عن الضابط الباكى ، ونهدئ من خواطــره الحزينة الجياشة . ففاته يومئذ ــ وفات من معه ــ أن يرقبونى ليدرسوا حالى ويتعــرفوا على حقيقتى التى أمعنت فى إخفائها عنهم صحوتى وسكرتهم . وعــدنا مع الصباح وما أفــاق من يقــود سيارتنا بعــد من سكره . . وكانت تلك الزيارة ــ كما علمت أخيراً ــ إحدى اختبــارات القــوم لى . . فما أوصلتهم إلى ما يريدون من كشف حقيقتى .

كنت قد تمالكت قواى بعض الشيء أثناء اعترافات وجيه افنــدى وثرثرته واعتذاره . . فاستأذنت منه ، وعجلت بالعودة إلى المدينة تاركاً إياه فى مكتبه الحكومى ، لا أدرى كيف سيصرف أعمــاله وهو فى هذه الحال . وما أن وصلت إلى المقهى ، حتى أبلغت صاحبها عدولى عن مشاركته ، فما بدت عليه دهشة ، وما سألنى سبب العــدول ، وما ألح على أن أبقى . . وسألت رمضان ــ زميل العمــل ــ أن يبحث لى عن مسكن ، وحللت محله فى العمل ساعة . وسرعان ما وجــد لى غرفة بجوار بيته ، استأجرتها لفورى ، ونقلت إليها سلة ملابسى وأدواتى البسيطة . وتركت المقهى ونمت ليلتى فى غرفتى على البلاط ، وفى الصباح اشتريت حشية ومنضدة صغيرة وكرسيين خشبيين . .

وهكذا صرت صاحب بيت فى المدينة ، لا يقلل من أهميتــه أنه من غرفة واحــدة شبه خالية من الأثاث .

وجلست فى بيتى الصغير الخالى أغلب اليوم أفكــر ، وأدبــر . .

لقد فهمت الآن كل شيء ، لقــد كنت واهماً فى تقــدير صلتى بهؤلاء المعارف منذ البدايــة . كنت أظنهم راغبين حقاً فى صداقتى ، وإذا بودهم لى مجرد مداراة لجاسوس الحاكم عليهم . . لا لشخصيتى بوصفى أهل لأن أكون شريكهم فى عملهم . . لقد كان مديح وجيــه افندى — وأخيه وأصــدقائه — فى عبد الناصر وحكمه خداعاً لى ، ورغبة فى أن أسجل لهم ذلك فى تقاريرى السرية ، وأن أكف عن رقابتهم وأرحل عنهم . . لقد كنت أبنى من الوهم آمالا ، أن أصبح صاحب مقهى ، وأن أقيــد فى السجل التجارى ، وأن أحصل على جواز سفر ، وأن أسافر إلى الخارج . كل هذه كانت أوهاماً أبنيها فى ذهنى بينما شركائى يدارونني ، فليس هناك عزم على شركتى ، وليس هناك تقدير خاص لناجى ابن الريف ولأهليته أن يعيش فى المــدينة ، ويستثمر رأس ماله الصغير . .

لقد أحسست أنى وحيــد ، وأنى أسقط من أعلى قمــة آمالى . . إنها آمال عقدتها على وهم ، ثم ذهبت مع الريح كما تذهب كل الأوهــام . . وعلى أن أواجه الحقائق . سأقطــع صلتى بأسرة صاحب المقهى كلها . . وبصديقهم صاحب الفندق الصغير ، فهو ولا شك قد تداول معهم فى شكوكهم . . ومع ذلك سأبقى فى المدينة لأهرب من هيئة التحــرير بالمركز ، ولأن المدينة سبيلى الوحيــد نحو النجــاة من مصر ، إنها خطــوة خطوتها لا أريد أن أعجــل بالتراجع عنها . على أن أطرق مشروعاً جديداً ، أكسب به قوتى وأستثمر رأس مالى الصغير الناتج عن بيع ما أملك من خراف — كما أوهم الناس — وأقرر به مظهــر بقائى ، وأسلوب خروجى من مصر كلهــا . .

وبعــد أيام ، عرف الناس فى تلك المدينة — وفى ركن قصى منها — شخصية « ناجى البقــال » هكذا كانوا ينادوننى ، مع أنى بدأت أبعــد ما أكون عن مهنة البقــال .

ناجى البقال ... ومحارف الماضى البعيد ...

حين قررت أن لا أشارك صاحب المقهى فى مقهـاه ــ ولكن هذا القرار وافق هواه ــ صرت مضطراً أن أبحث عن عمل آخر أتستر به فى حياتى فى المـدينة ، وأستند إليه فيما أحتاج من نفقـات فى حاضرى وأستنير به فى طريق الخـروج من البلاد فى مستقبلى . . فوجدتنى أبدأ من جديد ، لا عمـل ، ولا بيت ، ولا شخصية يمكن أن أدعيها . .

ووجدت فى رمضان ــ عامل المقهى وعميل المخابرات المصرية ــ نعم العـون فى ذلك . . عدت إليه من عند أبى وجيه ، فما أن لقيته حتى قلت له :

ــ رمضـان . . إنى أريد حجرة أسكن فيها ، فهل تعرف لى حجرة خاليـة الإيجـار . .

ــ ولماذا . . وأين مبيتك فى مقهـاك . .

ــ لم تعـد مقهاى ، ولن تكون . . فإن أصحابها يحاولون التخلص من شركتى لهم بالمعـاذير . .

وكان رمضان يحبنى أكثر مما يحب مخدومه الحاليين ، فساءه أن يتخلصوا من شركتى إياهم بعد ما رأى منى فى عملى من إخلاص أدى إلى زيادة عدد الزبائن عن ذى قبل . . فقمت بعمله فى المقهى ساعة ، غابها حيث وجد لى حجـرة . . ذهبت فاستأجرتها قبل أن أراها . . ثم رأيتها . . وكانت غرفة صغيرة ذات شباك عال قريب من سقفها ، وباب يحدث جلبة إذا فتح أو أغلق ، ومفتاح أسود يزن كيلو جـراماً . . وكانت مرصـوفة بالأسمنت ، ملحقـاً بها شيئاً يسمى دورة مياه . . ولكن دون ميـاه . .

وأحضر لى رمضان من بيته فى أول ليلة حصيرة أنام عليها ، ولم تكن حرارة الجو لتحوجنى إلى غطاء . . ونمت ليلتى الأولى ، استلقيت على الحصيرة ، أفكر فى مصيرى . .

كنت أتصور نفسى كمن صعد سلماً نحو نجاته حتى بلغ أقصاه ، وفجأة انهار السلم ، فوجد نفسه فى القاع حيث كان . . وزاد أن أصيب بما أصيب به من جراح ومن دوار يحدثه السقوط عادة . كنت آمل أن أصبح صاحب مقهى يدفع الضرائب ويتعامل مع الدولة ، فيسهل لى هذا يوماً أن أسافر كما يسافر الناس . . وبهذا أتم ما بدأته من تأمين لحريتى . . ولكن القوم يشكون فى وألزمنى شكهم أن أتركهم ، وأنا لا أعرف غيرهم يمكن أن أستعين بهم على ما أريد إلا صاحب ذلك الفندق الصغير الذى نزلت به مرات ، وساعدت صاحبه فى عمله . . ولكن ، أغلب الظن أن رأى صاحب الفندق فى لا يختلف كثيراً عن رأى أصحاب المقهى ، فهم أقارب ، ولعل كل منهما أفضى للآخر بما فى نفسه . .

والآن . . ماذا أنا صانع ، هل أعود إلى بيت الشيخ أحمد وسط زوجته وعياله حيث لا أستطيع أن أغادر الغرفة العليا إلا إذا قررت العودة إلى الصحراء من جديد ، فألغى من طريقى إلى النجاة شوطاً كبيراً ظننت أنى قطعته . .

هل أعود إلى مكانى كناجى الفلاح فى تلك القرية التى استأجرت فيها أرضاً ، فأعود بذلك إلى ضغط هيئة التحرير لكى أشترك فيها وأساهم فى أعمالها ، وقد يترتب على ذلك أن يعرضونى — كما يعرضوا شيئاً غريباً فى المعارض — على مندوب الهيئة فى مصر وضباطها ، وقد يعرفنى من هؤلاء بعضهم فأضيع . .

لا . . لن أفعل هذا ولا ذاك ، لن أعرض نفسى لعضوية هيئة التحرير ، ولن أعود إلى الصحراء من جديد . . لقد قطعت شوطاً على أن أتمه . . إن كنت قد سقطت من عال وفقدت ما فقدت ، فقد بقيت لى ثقتى بنفسى . . وبقى لى

ما يدفعنى إلى المدينة دون خطــر . . فلأبدأ عملا جديداً ولأبدأه وحدى فمعى رأس المال الذى كنت سأضعه فى المقهى ، فلأضعه فى عمــل آخر . .

وما أن انتهيت فى الصباح من شراء الحشية والكرسيين والمنضدة لأشغل بها فراغ مسكنى ، حتى كنت أجوب المدينة ـ وخاصة أطرافها ـ أبحث عن دكان أستأجره . . وأشترى أى بضاعة أضعها فيه ، وأصبح صاحب دكان . .

ولم تمض أيام ـ جبت فيها المدينة كلها ـ حتى عثرت فى أحد أطرافها وعلى منفذ من منافذ البيت إليها على دكان ـ أو كشك ـ صغير ، معتدل الإيجار يشاع عنه أن مشئوم لا يطول مقام مستأجره فيه حتى يفلس أو يهجــر البلــد . . وتفاءلت بهذا الذى تشاءم به الناس ، فأنا أحوج ما أكون إلى ما يسهل لى سبيل الهجرة من البلــد . . واستأجرت الدكان ، وكتبت عقد استئجاره يوم ٢٥ أغسطس سنة ١٩٥٦م ، وبدأت أكنس أرضه وأمسحها ، وأبحث عمن يعيــد طلاء جدرانه التى أذهبت القذارة لونها . .

وجاءنى صاحب الدكان وهو رجل بلغ الثمانين من عمــره ، فاستعرت له كرسياً من جارى ، وجلس يسألنى ، وينصحنى بخبرة من أفنى عمــره فى التجارة وصنــوفها ، فقال :

ـ فى أى تجارة تنوى أن تعمــل ؟

ـ الكازوزة وبعض الخــردوات البسيطة .

ـ عليك بالبقالة فليس بجوارك بقال .

ـ أنا لا أعرف فى البقالة شيئاً . .

ـ ستتعلم ، وهى تجارة مربحة . . ولكن عليك بتجنب ثلاثة أمور : الغش ، والعشق ، والتفريط . . فالغش يطــرد العملاء ، والعشق يؤدى إلى الإفلاس ،

والتفــريط يأكل الربح . . فالتجارة ربحها بسيط فى كل صفقة فإن ضيعته ضيعت ربحك . .

وكان يلقى إلى هذه النصائح بلغته العامية ، فكانت كأنها شعر شعبي محفــوظ . .

وبعد أسبوع ، بدأت العمل فى الدكان . . بعض السجائر ، والحلــوى ، ولعب الأطفال . . وتدرج الأمر إلى الجبن والزيتــون والعسل . . ثم السكر والشاى . . وبدأ الدكان يتطور شيئاً فشيئاً ليكــون شبه بقالة ، وإن لم يستطع ــ لقلة الخبرة وضعف رأس المال ــ أن يتم تطــوره .

وامتنعت عن بيع الكوكا كولا وغيرها من صنوف المشروبات الغازية ، لأن جارى الذى كان يتخــذها تجارته الأصلية طلب منى أن أكف عن بيعهــا ويمتنع هو عن بيع السجائر ، ووسط فى ذلك أحد أعيان الشارع فقبلت ، وإن لم يرض قبولى كثيرين ، واعتبره صاحب الدكان أول تفريط*. . وظللت ممتنعاً عن بيع الكازوزة متمسكاً باتفاقنا حتى انتهى الأجل المضروب لجارى أن يكف بعده عن الإتجار فى السجائر . . ولكنه استمر وكلما حدثته فى ذلك أمهلنى إلى أجل آخر ، فأشهدت عليه الوسيط ، وبدأت أتاجر فى السجائر أيضاً وأدخن منها كفايتى بطبيعة الحال . .

وكان عمل البقال شاقاً فعلا . . فقد كان لزاماً على أن أبكــر فى الصباح لأواجه التلاميذ فى ذهابهم إلى المدرسة فأبيع هذا بعض الحلوى وذاك ساندويتش جبنة . . ثم أواجه بعد ذلك فوج العمــال الذاهبين إلى عملهم فيشترى بعضهم سيجارتين وبعضهم باكو دخــان . . ثم يأتى دور الموظفين الذين يبكــرون بالذهاب إلى العمل ، فيشترى الواحد منهم سيجارتين أو ثلاثة . . ولا يشترى العلب كاملة إلا الذين يذهبون إلى عملهم متأخــراً لأنهم وحدهم الرؤساء الذين يستطيعون شراء العلب . وكان لزاماً على أن أبقى فاتحاً الدكان ظهــراً إذ قد يحتاج

آكل إلى شراء شيء ، وأسهر فى الليل لأواجه العائدين من سهراتهم إلى بيوتهم فقـــد يشترون شيئاً . .

وكان عندى بالنسبة للأطفال ضعف خاص يتنافى مع صنعة التاجــر طالب الربح ، إذ كان كل طفل وطفلة يذكرانى بأولادى ، فلا يشترى منى أحدهم شيئاً إلا خصصته ببعض الحلــوى وزدت لهم فيها ، فإن اشترى الطفل حلــوى زدتها له كثيراً . . ويثور مالك الدكان على . إنه يرى ذلك تفــريطاً شديداً فى الاحتفاظ بحق فى الربح ، ولا يعــذرنى لأنه لا يدرى ما يدفعنى ، وأعذره لأنى أعلم أنه بحرصه على ما أدى به كبر سنه من امتناع عن العمــل . . ثم هو حريص أن يدفع عن دكانه هذا شائعــة التشاؤم منه . .

واشتريت عجلة مستعملة (بسكلتة) ، وأصبح منظــراً مألوفاً أن أرى راكبها لأذهب إلى قلب المدينة حيث السوق الكبير وتجار الجملــة ، وأرجع حاملا ورائى صندوقاً أو شوالا أو كليهما . . فإن توفير أجــرة الحمــال من السوق إلى الدكان نصيب من الربح لا يستهان به . .

وفى يوم سوق المدينة العام ، وهو يوم فى الأسبوع ، تمتلىء فيه الطريق المؤدية إلى المدينة بأهل الريف رجالا ونساء جاء كل منهم يبيع ما وفره من قوت عياله طول الأسبوع من بيض وزبد ، ليشترى به ما هو فى حاجة إليه من بضاعة المدينة من صابون وسكر وشاى وفول سودانى . . وبعض المسلى النباتى ليغش به الزبــد الذى سيبيعه فى الأسبوع القادم . . وأمام دكانى كان يقف الناس ليشترون من هؤلاء الريفيين ما جاءوا به قبل أن يصلوا به إلى السوق فيكثر المشترون .. ويوزن الزبد فى دكانى وعلى ميزانى لقاء أجــر معلــوم . . وقد أكون أنا المشترى ، ولى مع ذلك أجر الميزان ربحاً خالصاً يضاف إلى ما سأحصله من ربح البيع بعد ذلك بسعر أعلا . .

إن الموظف والمحامي — وهما العملان اللذان قمت بهما فى حياتى العادية — لا تتفق عقليتها فى فهم الربح مع عمل تاجر التجزئة الصغير بحال من الأحوال . . فالموظف يفهم أن أجره الذى يكفيه شهراً يتقاضاه كل شهر عن عمله ، وهذا دخله .. والمحامي يتقاضى مبلغاً كبيراً يشعر به عن العمل الواحد . وإن طال . . وهو يقدر بعد ذلك مصاريفه الشهرية أو السنوية فيعرف دخله . . أما تاجر التجزئة الصغير فهو غير ذلك . . إنه يبيع يومه وأغلب ليله بالقرش والقرشين ونصف القرش .. ليربح فى كل صفقة مليما أو جزء من مليم . . فهو لا يحس بحقيقة دخله ، ولكن مع توالى عمليات البيع والشراء ينتج الدخل ، ينتج زيادة فى بضاعة الدكان — أى فى رأس ماله — وينتج مواجهة لمصاريفه . .

وهكذا بدأت أستقر ، وأحس أنى أربح ، أو أنى صاحب دخل إن لم يكن ثابتاً واضحاً فهو موجود لا شك فى ذلك . . فالبضاعة — كما وكيفاً — تزيد فى الدكان . . وأنا أعيش آكلا كاسياً دافعاً أجر مسكنى . . ثم أنا لا أنسى أن أعين أولاد عمى — أى أولاد الشيخ أحمد — فى معاشهم عوناً يزيد عما كنت أستطيعه من قبل . . وهكذا اعتبرت تاجراً ناجحاً فى حدود النجاح البسيط المقصود من صاحب دكان صغير فى طرف من أطراف مدينة فى أقاليم مصر . .

وصرت صديقاً للخدم والبوابين ، حتى خدم وبوابين وزملاء كنت أعرفهم من قبل ، ولكنهم اليوم فى بيوتهم لا يعرفون عنى شيئاً ، فليس دكانى الصغير بالدكان اللائق بأمثال هؤلاء أن يقفوا أمامه ليشتروا منه ما يريدون . . بل الخادم أو البواب هو الذى يفعل عنهم ذلك . .

وكان صباح . .

بعد أن مرت فترة العمل المبكر ، وأكلت صحن فول أشتريته من جارى ، وجلست أدخن وأنا أتمم حسابات يومية الأمس . . وإذا بعميل محترم يقف أمامى ليطلب علبة سجائر من نوع غال . . ورفعت عينى وأنا أنتصب

واقفاً فى احترام — فالاحترام أقصر الطـرق إلى قلب العميل وجيبه — والتقت عيوننا فعـرفته ، ولكنى أسرعت إلى السجائر أقدمها له ، وأعطيته باقى نقـوده لينصرف . وانصرف وهو يعيـد النظـر إلى وقد لوى رقبته إلى خلفه ليتحقق منى . .

كان زميلا قديماً جمعتنى وإياه أيام الدراسة المبكـرة . . جمعتنا فى الفصل فى درجين متجاورين ، وفى الحوش نلعب الكرة فى فريق واحد . . ومع ذلك لم تنشأ بيننا صداقـة بالمعنى المفهوم . . وفرقت بيننا الدراسة الجامعية ، ثم التقينا فى العمل المنفصل تماماً حين عرضت قضايا أستعين به على النواحى الفنية فيها ، وكنت أنا المسئول عنها قضائياً . . وما ظننت بعد ذلك أن أراه .

أما أنا فعـرفته ، لأنه هو هو . . أما هـو فأغلب الظن عندى أنه ما عرفنى ، ولكن استلفت نظره فى ، شبه ذكره بماض بعيد لم يستطع ذهنه له تحـديداً . . وانقضى اليوم بتعبه وكسبه وخسارته ، وأغلقت دكانى قبل منتصف الليل بساعة ، وعدت إلى بيتى . .

وكنت حين استقر بى الحال بقالا اتخذت بيتاً آخر ، أرحب ، وأكثر غرفاً وأغلى أجراً ، وآخر فى المدينـة قرب دكانى . . واشتريت سريراً ودولاباً ، وكرسيين آخرين . . فجعلت غرفة للجلـوس ولقاء زوارى من الخدم والبوابين ، وجعلت الأخرى لنومى فلا يدخلها أحد لأن فيها ما أكتب من أوراق ، وفيها سلاحى الذى لم أستطع التخلى عنـه بعـد . .

عدت إلى بيتى ، فخلعت ثياب العمـل ، وجلست مع أوراقى أكتب فى غـرفة نومى . . عدت إلى نفسى وشخصيتى بعد أن هربت منها يوماً كاملا ، عدت إليها لأتأمل ، وأكتب فى هدوء . بعيداً عن الرقبـاء وما أخشاه من تطلعهم .

وقطـع على الاستغراق طرق بسيط . . فأنصت . . وعاد الطـرق خفيفاً كما بدأ . . إنه على بابى . .

من الطارق الآن ، وقد انتصف الليل . . ليس لى زائر أرقبـه فى ذلك الوقت . .

فأولاد عمى لا يزورننى ليلا إذ تنقطع المواصلات بين بلدتهم والمدينة منذ الغروب . . وعملائى من الخدم والبوابين لا يزورننى ليلا . . وأعدت الإنصات . . وعاد الطرق وقد زاد شدة عن ذى قبل . .

ولم أدر ما أفعل . . فخرجت من غرفة نومى ، ووقفت خلف الباب منصتاً لعل همساً يجرى بالباب أفهم منه من الطارق . . وتوالى الطرق ، واشتد ، بل عنف . .

وليس لمن فى حالى أن يفكر إلا أن وراء كل أمر غريب خطراً . . ولذلك لم أتردد فى الظن أن البوليس هو القادم . . هو الطارق . . وفكرت فى الهرب . .

وكنت قد حرصت فى بيتى ، هذه المرة أن يكون طريق الهرب منه مأموناً . . فهو ذو منور من خلف الشارع ، يسهل أن يقفز منه الإنسان إلى المزارع الواسعة حيث يختفى . . ويسير إلى حيث يريد . . وفتحت باب المنور ، ولم أنس أن آخذ معى سلاحى . .

ولكن يا للأسف ، لقد كان جيرانى يقضون سهرتهم فى منورهم الملاصق لمنورى . . فاليوم خميس وهم موظفون وغداً عطلة الأسبوع ، فحلا لهم السهر مع زملائهم ، وفى المنور . . ولو حاولت هرباً لرابهم أمرى ، ولساهموا فى القبض على . .

والطرق بالباب يتوالى . . ولا مفر . . واقتربت من الباب سائلا فى همس :

— من . . ؟

— أنا . . . .

وفتحت الباب وأنا لا استطيع منع نفسى من سبه . . إنه ذلك الزميل ، عرفنى ، وراقبنى ، وتعقبنى حتى عرف مسكنى . . وجاء ليلا يزورنى ، ويعرض أن

يؤدى لى أى خدمة أريــدها . . ولم تكن لى خدمة أطلبها إلا أن يصبر على ازاء مــا سببه لى من ازعاج . . وقد أدى لى الخــدمة راضياً ، فسببته . . وجلست – وفى غرفة نومى – على ضوء مصباح الغاز نذكر الماضى ، ونضحك . . والحاضر ونواصل الضحك . . وأحس الصديق القديم أنى سعيد حقاً ، غير آبــه بما آل إليه حالى ، فأراحه ذلك . . وكانت بيننا بعــدها مغامــرات كثيرة . .

وحقيق بمن يعــرف سيف الدين أن يقطع بأنه من أنصار الحكم القائم فى مصر الملائمين له كل الملاءمة فهو موظف حكومى يؤدى عملــه باخلاص لحساب حكم عبد الناصر ، وهو يرقب الأحداث فى صمت ، ويقــرأ الجرائد بانتظام ولا يفكر فى السياسة ، ولم يكن يوماً ما فى الماضى رجعياً ولا استغلالياً ولا إقطاعياً ، وإذا سمع حديثاً فيه نقد للأوضاع لم يشترك فيه ، فإذا سئل رأيه التمس لأخطاء الحكم ما يسعفه به ذهنه من معاذير . . وهو على كل حال عن السياسة مشغول بعملــه ورياضته ونزهاته ، ومشروعات زواجــه المستقبلة . . هكذا عرفته من قبل وعــرفه الناس . . حتى التقيت به وأنا فى هــذه الظروف ، طريد الدولة التى هو من أنصارها ومكافحاً فى معركة الحرية الفــردية التى لم يشغل هو نفسه بها من قبل . . فإذا به يحمــل فى صدره قلباً ينبض بحب الحرية وكراهية الدكتاتورية والطغيان العسكرى ، ولكنه ساكن سكون غيره من الناس ، يرقب فرصته . .

وسألته يوماً لم يبدو هكذا غير آبه بحقــوق الناس وحرياتهم ، فقال اسمع منى هذه النكتــة :

طلب شاب للتجنيد ، وهو يكره أن يجند فى هذا العصر ، فادعى ضعف النظر ، فإذا سأله طبيب العيــون عن علامة ما هى ، سأله : أى علامة . . أين هى العلامة . . فيقول الطبيب تلك التى على اللوحة . . فيجيب أى لوحة . . أين هى اللوحة . . فيقول الطبيب : تلك اللوحة التى على الحائط أمامك . . فيجيب : أى حائط . . أين هو الحائط . . ؟ فيكتفى الطبيب بهذا القــدر ، ويقرر عدم لياقته الطبيــة

للخدمة العسكرية . . ويخرج الشاب فرحاً ، فيحتفل بما نال من إعفاء بأن يذهب إلى دار للسينما وإذا بجلسته تكون بجوار ذات الطبيب الذى امتحنه . . ويعجب الطبيب من أمره ، ويسأله : كنت لا ترى الحائط فكيف ترى الآن ما على الشاشة . . فيجيب الشاب بنفس البلاهة : شاشة . . أى شاشة . . أليس هذا أتوبيس رقم ستة . .

ويضحك سيف الدين من أعماقه الصافية مقهقهاً ، ويقـــول : هكذا حال الناس الآن . .

ويحاول سيف الدين أن يخدمنى ، فيوص كل من يعرف أن يشترى سجائره منى . . وفاته أن بعض هؤلاء ـــ مثلـــه ـــ من معارف الماضى . .

ويكثر من عندى المشترون المحترمون ـــ بأنفسهم أو خدمهم ـــ ويعرفنى منهم كثير . . ويكثر معارفى على حقيقتى . . وهذا أمر يثير الاضطراب فى نفسى الوجلـــة المترقبة الشر دائماً . . ثم يظهر فى الأفق شخص جـــديد ، يكون شبحاً يثير نفسى اشمئزازاً لا رعباً . .

بجوار دكانى مصلحة حكـــومية ، تصبح يوماً فتجد أنه قد ألحق للعمل بها شاويش فى الجيش . . وأحاول أن أفهم الصلة بين شاويش فى المدفعيـــة وبين أعمـــال هذه الإدارة الحكـــومية فلا أستطيع . . ولكن ، لم لا وكثير من الضباط يلحقـــون بالأعمال المدنية التى لا يعرفون عنها شيئاً . . ويبدو أن دور إلحاق الضباط فى الأعمال المدنية قد بدأ . . ومن يدرى ، لعلهم غداً يلحقـــون الجنود أيضاً . .

ويمر الشاويش ـــ الذى لا يزال يحتفظ بزيه العسكرى ـــ بالحوانيت الأربعة التى فى المكان يشترى منها على التوالى ، فيجدنى أدمث أصحابها خلقاً وأهدأهم طبعاً . . ولو لم أكن كذلك لوجب على أن أصطنعه الآن . . فيأتى لى ، ويجعل دكانى محله

المختار ، فيه يفطر وقد يتغذى . . ويقضى فترة العصر . . ويشترى منى السجائر ولوازم بيته من البقالة فى الحدود التى أبيعها . .

والشاويش عميل جدير بالتاجر الصغير مثلى أن يحتفظ به . . فهو يشترى علبتين من السجائر على الأقل يومياً فضلا عن الطعام وأصناف البقالة . . ولذلك حاولت أن أحتفظ به ، بالإحترام ، وحسن المعاملة ، وتقديم زجاجة كوكا كولا مجاناً له كل عدة أيام . .

وصار الشاويش صديقاً حميماً لناجى . .

وأسر إلى يوماً أنه يريدنى فى أمر من الأمور الخاصة ، وأنه سيزورنى فى بيتى بعد انتهاء عملى فى المساء ليتحدث إلى على انفراد . . وأبلغت سيف الدين كى لا يفاجئنى بزيارة والشاويش عندى . .

وجاء الشاويش ، وجلس فى الغرفة التى أستقبل فيها الناس ، وسألنى إن كان أهلى معى فقلت له لا . . وقدمت له كوب شاى . . وبدأ يتحدث . .

وبعد مقدمات طويلة فى شرح نظام الحكم ، وأهداف الثورة ، وشخصية جمال عبد الناصر ، مقدمات أحسست أنها محفوظة يلقيها كما يعيد أى ببغاء حديثاً سمعه ، تطرق إلى ما يحاك من مؤامرات ضد الدولة وسلامتها ، وأن مدينتنا هذه التى نحن فيها مركز من مراكز المؤامرات . . وإنه واجب على كل وطنى — مثلى — أن يدفع عن الدولة شر هذه المؤامرات بالإرشاد عنها ، ومراقبة الناس ليعلم حقيقة شعورهم نحو الثورة وبطل البلاد وزعيمها جمال عبد الناصر . .

إذاً ، لهذا ألحق الشاويش بالعمل المدنى . .

إذاً ، هذه هى الصلة بين المدفعية وأعمال الإدارة الفنية . .

إذاً ، لهذا آنس لى الشاويش وقرر صداقتى . .

ووصل الشاويش فى حديثه إلى نهايته ، وأبلغنى أنه على استعداد أن يعطينى

أجراً مقابل ملاحظة الجو حولى وحديث الناس عن الثورة لأن هذا يفيــده . . إنه يريدنى جاسوساً وعميلا للمخابرات . . ومنه عرفت أن القهــوجى رمضان ــ وكان قد رآه عندى مرة ــ يعمل فى المخابرات وينال عن ذلك أجراً كبيراً ، ففهمت كيف يوازن رمضان ميزانيته الكبيرة بأجــره المحدود . .

ولم أرفض عرض الشاويش ولم أقبله . . ولكنى وعدته أن أرقب الحالة ، وأبلغــه بكل مؤامرة أعرفهــا ، أما الأجــر فهــذا أمر لا محل للمدنيين فيه الآن . . وهكذا حاول أعوان جمــال عبد الناصر أن يستعينوا بى فى القضاء على مثلى . . أليست هذه من مهازل القــدر ومفارقاته . . ؟

وظل الشاويش يتردد على ليعرف نتيجة مراقباتى . . وأنا لا جــديد عندى أبــداً أقوله له . . وأحسست بالحرج . . أحسست بأن قدراً يطاردنى ويلزمنى أن أهجــر هذه المدينة أيضاً بعد ما وصلت إليه بها من أمن واستقرار . . . وقررت النزوح . . ولكن ، إلى أين . . ومتى . . ؟

وأيا كان الأمر فقد كنت قد حصلت فى المدينة ربحاً كبيراً ــ لا فى التجارة ــ ولكن فى استقرار وضعى ، ورسم أسلوب خروجى من مصر . . كنت قد أصبحت صاحب محل مرخص له من جانب الدولة ، وصرت تاجراً مقيداً اسمه فى السجل التجارى ، وصرت أحمــل رخصه عمل باسمى ، وشهادة ميلاد كساقط قيد . . صرت إنساناً آخر معترفاً به من جانب السلطات . . وكانت هذه خطــوة كبيرة ما قدرت أن أحققها فى ذلك الوقت القصير . .

ثـأر ... وهجـرة

لم يكف حامد منذ قتل إبراهيم ابن عم أبيه عن الحديث معى عن ثأره . . وهو الذى وهبنى دمه منذ كان يبحث عنى فى الصحـــراء ، ليسلمنى إلى المشنقة ، ويسلم معى أى عدد كان من أهل الشيخ أحمـــد ، وعلى رأسهم حامد نفسه بطبيعة الحال . ولكن إبراهيم منذ قتل ، وقتله آخـــر غيرى وغير حامـــد ، وحامد أحد أصحاب الـــدم . .

وهو يفكر فى الأمر ، هل يترك دم قتيله فيثأر له غيره ، أم يسبق هو إلى هذا الثأر فيضمن بذلك المكانة فى العشيرة ، وفى البلـــد كلهـــا . . وهو يحاول أن يقنعنى أن من حقه الأخذ بثأر ابن عم أبيه ، ولعله كان يضمر أن أعينه على ذلك ، ويمنعه من الإفصاح أن أباه أوصى بإعفائى من هذا الشرط وشروط جـــوار المجرمين . .

وتذهب بعثة من ستة أشخاص – ليس فيهم أحد من أولاد الشيخ أحمـــد – لتثأر للقتيل . . وتعود دون أن تريق دماً . . فيشتد حنق حامد ، وتسول له نفسه أن ينال وحده الفخر الذى عجزت عنه بعثة من ستة أشخاص مسلحين . .

ويأتى إلى يوماً زائراً ، ويفضى إلى أنه قرر الثأر لقتيله ، وهو لا يعرف من قاتله ، ولذلك يجب أن يذهب إلى البلد التى قتل فيها ، فيطلق النار على رجلين يرديهما صريعين ثم يعـــود . . أى رجلين ، لا يهم صلتهما بالحادث من قريب أو بعيـــد . . وهو يحدد رجلين ، لأن الثأر فى شريعتهم يتكرر إذا حاول القاتل إخفاء جثة قتيله . . وقاتل إبراهيم ألقى بجثته فى الترعة ، وهذه محاولة لإخفائها . .

ويشتد الجدل بيننـــا ، فأنـــا أرى أن هـــذا أسلوب من الثأر لا يقره عرف ولا قانون . . فيقتنع الشاب بعد مشقة ، وتذهب بعثـــة تحقق من القاتل . .

ويستدلون عليه . . إنه كان شريكاً لإبراهيم فى العصابة ، أغضبه أن أخفى إبراهيم بعض ما سرق ، فأطلق عليه النار ، ولم ينكر الحادث فى حديثه مع الناس ، بل اعترف به ، أو جعله أحدوثة يتحدث بها ليفتخر . .

وجاء حامد ينقل لى الخبر ، ويسألنى رأيى فى أن يثأر من القاتل نفسه . . وحاولت جداله ، فأرجأنى بعض الوقت . . ولكنه لم ينتظر . . كنت أجلس فى دكانى ذات صباح حين قدم على حامد ووجهه قد اكتسى بابتسامة المنتصر الذى أزاح عن كاهله عبئاً ثقيلا ، وكتب اسمه بأحرف من نور فى لوح الكرامة والشرف . . وأيقنت أن الشاب فعلها . . وبادرته بالسؤال قبل أن يجلس :

— أوفعلتها . . ؟

— نعم ، والحمد لله . . أنا وخدى أخذت بثأر إبراهيم . .

لقد ذهب إلى قاتله فى بلده . وظل يرقبه أربعة أيام بلياليها لا يغفل عنه ، حتى كان آخر الليل فى حفل مولد ، فانقض عليه ومسدسه فى يده ، فأطلق عليه رصاصتين ، والثالثة بعد أن سقط . . ثم صاح فى الناس أن ابتعدوا . . فأخلوا له الطريق ليهرب . . وعاد إلى من مكان الجريمة ، وأنا أحس أن يديه لا زالتا تقطران دماً . .

وارتفعت أسهم حامد فى بلده . . ولكنه أصبح هو الآخر مطارداً ، مطلوباً ليثأر منه أهل القتيل الجديد . . والكل يعرف بيته ، ويعرف الأرض التى استأجرها معى . . فكان لزاماً على أن أفكر فى مكان آخر ينتقل إليه . . ولم تكن المدينة بالنسبة له مكاناً مناسباً فهو يضيق بالمدن ذرعاً . .

وأنهيت إيجار تلك الأرض التى استأجرناها معاً . . واستأجرنا — شركاء —

أرضاً أخرى فى إقليم يبعد كثيراً عن الإقليم الذى كان يعيش فيه . . وهناك ، جلس حامد فرح ، ويعبث بسلاحه ، وأنا فى المدينة أعمـــل . . ويزورنى بعض الوقت ليرى من ترف المدينة ما لا يراه فى الريف عادة . . ولم يكن الترف فى تصورهم يزيد عن الأكل فى مطعم أحياناً ، والذهاب إلى دار السينما مرة . .

وكثر حولى معارف الماضى العارفون بحقيقتى . . وطاردنى الشاويش مطالباً إياى أن أعمل معـــه فى المخابرات . .

وأنا أشهد أن معارف الماضى ما كان منهم خطــر ، فقد كان كل منهم نبيلا شهماً يعيننى — على قدر استطاعته — فى معركتى . . ولكنى أخشى العارفــون لأمرى مهما كانت الظروف . . ثم قد يرانى ذلك الشاويش زائراً أحــدهم مرة ، أو مزوراً منه ، أو متحدثاً معه فى غير كلفة ، فماذا سيظن . . وتكاثرت حولى الأوهـــام . . وآن أن أهجــر المدينة . .

كم كان شاقاً على ذلك الذى فعلت لأحصل على ما حصلت من أوراق . . شهد العمـــدة والمشايخ أنى ابن فلان ومن مواليـــد بلدة كذا . . سنة كذا ، وأنى ساقط القيد . . وقدر الطبيب سنى . . وأعلن عن ذلك فى الجـــرائد . . وقيدت فى دفتر المواليـــد .

وحصلت — متردداً أكثر من مرة على دواوين الحكومة ومراكز البوليس — على رخصة لمحلى المتواضع . . فصرت صاحب متجر لا أخشى بعده أن أرسل إلى بلـــدى إذا قبض على البوليس فى مشتبهاً . .

وحملت رخصة عمل فى البقالة ألزمتنى أن يكشف على طبيباً فى أكثر من مستشفى ، وأن تلصق صورتى بالرخصة ، وأن تختم بخاتم الدولة . .

وقرب — أمام تصورى — موعد خروجى من مصر . . ولكن ليس لى مقام فى

المدينة بعد ذلك . . فهجرتها ، وآويت إلى حيث يأوى حامد فى مديرية بعيـــدة ، يسكن قرية على حدود الصحـــراء الغـــربية . . هو طريد ثأر وأنا طريد دولة . .

وبعت نصف دكانى – المزدهر – لجار . . وجلس هو فيه مقابل أجر فضلا عن حصته . . ولم يدفع لى من ثمنه إلا القليل وضعته فى مصاريف الزراعة الجديدة . .

وحاولت هناك – فى تلك القـــرية على حدود الصحراء – أعيش عيشتى السابقة فى الصحراء معـــه . . ولكن كان هناك أرق ، فالخضرة قريبـــة ، والناس كثيرون . .

وبدأت أبحث أمكانيات الهـــرب من الصحراء الغربية . . وأحسست أنها ممكنة برغم ما فيها من مشقة . . وخطوت فى ذلك خطوات . .

ولكن . . وهناك شىء آخر يربطنى بتلك المدينة ، شىء غير الدكان . . إنه أمل أو خيط بسيط من أمل – رأيته فى حديث مع عزيز – أحد أصدقائى . فتعلقت به . . وقررت أن أسير معـــه ، لعله يوصلنى إلى حيث أريـــد . .

فكنت أتردد على المدينة أحياناً ، وأغيب عنها فى الزراعة أحياناً . . وعرف الشيخ ناجى فى المكانين والقطارات بينهما كتاجـــر ومزارع معاً . .

وفى جلسة .. توسمت ذلك الخيط البسيط من أمل لاح أمامى عن صورة واضحة لا يجوز أن أتركها . . فسرت فيها إلى النهاية . .

نهـايـة الطـريق ...

لم يكن عزيز فى يوم من الأيام الحالية لى صديقاً ولا زميلا ، فما جمعت بيننا دراسة ولا جمعت بيننا فى الحياة عمل . . وإن كان كلا منا ذا نزعة سياسية ، فقد كان من شأنها فى الماضى أن تفرق بيننا ولكننا أمام الخطـــر الداهم على الحرية ذاتها — وهو ما يستهدفه كل منا أساساً — اجتمعنا مذهباً وغاية وأسلوباً . .

وكان عزيز زميلا لأحـــد أولئك الذين عرفونى . . وأوصاه من عرفنى أن يشترى منى ، ففعل . . ثم أبلغه أنى فلان . . فما اضطرب وما اهتم ، وأخذ الأمـــر أخذاً هيناً . . وأرسل فى دعوتى . . وكانت بيننا لقاءات . .

وفى ليلة من الليالى ، كان يذاع بالراديو حفـــلا يريد عزيز أن يسمعه ، ولم يكن عنده راديو فبعث إلى يطلب أن أرسل له الراديو وأ ن أحضر لأقضى معه السهرة بعد أن انتهى من عملى . . وفى تلك الجلسة شعرت أن عزيزاً يوافقنى على وجوب خروجى من مصر ، وقـــد خيل إلى أنـــه يبسط الأمـــر ويراه ميسوراً رغم ما على السفر من قيود للشخص العادى ، فما بالنا بشخص فى مثل وضعى . .

وبهذا الخيط من الأمل تشبثت . . فكنت أجذبه كلما زرت المدينة ولقيت عزيزاً ، وفى كل مرة ألقى عزيزاً عند رأيه ، وفى حماسه للتنفيـــذ . . بل إن حماسه يزداد . . حتى وضع لى خطـــة . .

ووضعت الخطة موضع التنفيذ . . وقام هو بكل ما فيها من أعمال . . وما كان على إلا أن أسير على الخطة لا أطالب بأكثر من أن أحفظ أعصابى وأدعو الله أن ينقـــذنى . .

وزارنى بدر ومختار وثابت . . ورأيت عبد الله وأنيس . . وحدد موعد السفر . . وعشت بعد ذلك شهرين كاملين حياتى العادية لا يعلم أحد ممن حولى — غير هؤلاء

الذين ذكرت أخيراً — شيئاً عن سفرى . . وكتبت تنازلا عما أملك ، عنه لأولاد الشيخ أحمد . . رحمه الله . .

وكانت عهـــود ومواثيق . . وفى صباح يوم من الأيام الأولى من أغسطس سنة ١٩٥٧م — بعد ثلاثة أعوام كاملـــة قضيتها بمصر — كنت على الحدود أودع الوطـــن . .

وظهـــر فجأة أحد ضباط الجيش ، وكان يعـــرفنى من قبل ، جاء ومعه ثلة من جنود يتأكدوا من شخصية عابرى الحـــدود من مصر إلى خارجها . . ونظر إلى الرجل فعرفنى . . فما زاد عن أن نظر إلى وابتسم، ثم أذن لنا بالمسير . . وظل يلـــوح لنا حتى غبنا عن ناظـــره . .

ولم يفهم صحابى — ولا جنـــوده — لم حرص الضابط على التلـــويح لذلك الراكب . . وفاتهم أنـــه يثبت بذلك سخط الجميـــع على كل طغيـــان فى الحكم ومحاربة لحـــرية الناس . .

وبعـــد ؟ . (لحديثى إيضاح وبقية يا أحمـــد . . واعذرنى . . فأنت لا تعلم ماذا أنوى فإن عدت أتممت لك الحديث وأوضحته . . فقد كان آخـــر ما نطق به لسانى وأنا أغادر الوطن أن أحاول إنقاذ بـــدراً ، وكل بدر فى مصر . . فكل من فى مصر من عشاق الحرية عندى بـــدر) . .

وإلى اللقـــاء

فهرس الكتاب

مطابع المكتب المصرى الحديث
القاهرة
ص.ب ٣٥ شبرا الخيمة

رقم الإيداع ٥٠٢٥ / ٧٧
الترقيم الدولى :
ISBN ١٩٧٧/٧٠٤٩ – ٥٠ – ١

هذا الكتاب

فى سنة ١٩٥٤ أصدر مجلس قيادة الثورة قراراً بحل جماعة الإخوان المسلمين ، وتم القبض على قادتها والمنضمين إليها ، وقدموا للمحاكمة وصدرت ضدهم أحكاماً بعقوبات متفاوتة من الإعدام شنقاً إلى الأشغال الشاقة المؤبدة . . .

إلا أن كاتبنا هنا المرحوم حسن العشماوى استطاع الهرب وظل مختفياً داخل مصر لثلاث سنوات ثم غادرها إلى السعودية متخفياً فى سنة ١٩٥٧ ومنها إلى سويسرا والمغرب والكويت الذى عمل بها نائباً لرئيس الفتوى والتشريع حتى لقى ربه سنة ١٩٧٢ .

وقد سجل فى مذكراته هذه – أثناء هربه – قصته مع ثورة يوليو – كيف بدأت تنظيمات الضباط الأحرار داخل الجهاز السرى للإخوان ، وكيف استقلت مجموعة الضباط عن تنظيم الإخوان مع استمرار تعاونها ومدى هذا التعاون وكيفية استثماره فى الهجمات على معسكرات الإنجليز فى القناة وقصة حريق القاهرة والأسلحة وكيف كانت تهرب لاستغلالها عند ساعة الصفر إلى ليلة قيام الثورة ودور الإخوان فيها قبل قيامها وبعد نجاحها حتى وقع الصدام والخلاف إثر أزمة محمد نجيب فى مارس سنة ١٩٥٤ ثم حادث إطلاق الرصاص بالمنشية على جمال عبد الناصر . . ماذا حدث للإخوان ؟

عمليات القبض والتعذيب . . والمحاكمات . . وما تعرض له صاحب المذكرات من معاناة بالرغم من عدم القبض عليه .

قدمت لنا أسرة المرحوم حسن العشماوى هذه الصفحات بخط يده ولم نتردد فى نشرها لإلقاء شعاع من ضوء على فترة من تاريخنا المعاصر ، ولعلها تيسر للمؤرخين رؤية تلك الفترة التى شابها كثير من الغموض لا سيما فى علاقة الثورة بالإخوان . . .

وللأمانة وللتاريخ . . نقرر أننا حذفنا من النص الخطى بعض العبارات والفقرات . . بعض العبارات لمساسها ببعض الأشخاص ، وبعض العبارات لعدم جواز نشرها الآن .

ونرجو أن نقدم للقارئ قريباً الجزء الثانى من هذا الكتاب مشتملاً محاضر اجتماعات قادة الثورة والإخوان .

الناشر

احمد يحيى